

تسليية أهله المصائب

محمد المنبجي الحنبلي

www.al-mostafa.com

الباب الأول - في المصيبة و حقيقتها و ما أعد الله لمسترجعها

قال الله تعالى : { الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون } قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نعم العدلان و نعمت العلاوة { أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة } الآية ذكره البخاري تعليقا و قال تعالى : { ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله و من يؤمن بالله يهد قلبه } قال علقمة وجماعة من المفسرين : هي المصائب تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و الآيات في هذا الباب كثيرة

قال أهل اللغة : يقال مصيبة و مصابة و مصوبة قالوا : و حقيقته الأمر المكروه يحل بالإنسان و قال القرطبي : المصيبة كل ما يؤذي المؤمن و يصيبه يقال : أصابه إصابة و مصابة و صابة و المصيبة واحدة المصائب و المصوبة بضم الصاد مثل المصيبة و أجمعت العرب على همز المصائب و أصله الواو و كأنهم شبهوا الأصل بالزائد و يجمع على مصاوب و هو الأصل و على مصائب

: و المصاب : الإصابة قال الشاعر

(أسليم إن مصابكم رجلا ... أهدى السلام تحية ظلم)

و صاب السهم القرطاس يصيبه صيا : لغة في أصابه و المصيبة : النكبة ينكبها الإنسان و إن صغرت و تستعمل في الشر و [روى عكرمة مرسلا : إن مصباح النبي صلى الله عليه و سلم انطفأ ذات ليلة فقال : { إنا لله و إنا إليه راجعون } فقيل : أمصيبة هي يا رسول الله ؟] قال : نعم ! كل ما أذى فهو مصيبة

و في صحيح مسلم [من حديث أبي سعيد و أبي هريرة - رضي الله عنهما - أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما يصيب المؤمن من وصب و لا نصب و لا سقم و لا حزن حتى بهم يهمة إلا كفر الله به من سيئاته

و الوصب : المرض - و النصب : التعب

و في الصحيحين [عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عز و جل بها عنه حتى الشوكة] يشاكها

و قال الإمام أحمد : [ثنا يونس ثنا ليث - يعني ابن سعد - عن يزيد ابن عبد الله عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت : أتاني أبو سلمة يوما من عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه و سلم قولا سررت به قال : لا تصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتة ثم يقول :

اللهم أوْجِرني في مصيبتِي و أخلف لي خيرا منها إلا فعل ذلك به قالت أم سلمة :
فحفظت ذلك منه فلما توفي أبو سلمة استرجعت في مصيبتِي و قلت : اللهم أوْجِرني في
مصيبتِي و أخلف لي خيرا منه - وفي لفظ : خيرا منها - ثم رجعت إلى نفسي و قلت : من
أين خير لي من أبي سلمة ؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله صلى الله عليه
و سلم وأنا أدبغ إهابا لي فغسلت يدي من القرظ و أذنت له فوضعت له وسادة من آدم
حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسي فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ما
بي أن لا تكون بك الرغبة و لكني امرأة في غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئا يعذبني
الله به و أنا امرأة قد دخلت في السن و أنا ذات عيال فقال : أما ما ذكرت من الغيرة فسوف
يذهبها الله عز و جل عنك و أما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل ما أصابك و أما ما
ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي قالت : فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه و سلم
فتزوجها رسول الله [فقالت أم سلمة بعد : أبدلني الله بأبي سلمة خيرا منه : رسول الله
صلى الله عليه و سلم و قد روي هذا الحديث بعدة طرق في الصحاح و المسانيد و سيأتي
فيما بعد إن شاء الله تعالى

ك

عن

فصل - في كلمة إنا لله و إنا إليه راجعون

و قد جعل الله كلمات الإسترجاع - و هي قول المصاب : { إنا لله و إنا إليه راجعون } ملجأ و ملاذا لذوي المصائب و عظمة للممتحنين من الشيطان لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة فيهيح ما سكن و يظهر ما كمن فإذا لجأ إلى هذه الكلمات الجامعات لمعاني الخير و البركة فإن قوله : { إنا لله } توحيد و إقرار بالعبودية و الملك و قوله { و إنا إليه راجعون } إقرار بأن الله يهلكنا ثم يبعثنا فهو إيمان بالبعث بعد الموت و هو إيمان أيضا بأن له الحكم في الأولى و له المرجع في الأخرى فهو من اليقين إن الأمر كله لله فلا ملجأ منه إلا إليه

و روى مسلم في صحيحه من [حديث أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : { إنا لله و إنا إليه راجعون } اللهم أؤجرني في مصيبتى و أخلص لي خيرا منها] الحديث و روى مسلم أيضا عن [أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبي صلى الله عليه و سلم فقلت : يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات قال : قولي اللهم اغفر لي و له و أعقبني منه عقبى حسنة] فقلت فأعقبني الله من هو خير لي منه : محمدا صلى الله عليه و سلم هكذا روي بالشك : إذا حضرتم المريض أو الميت هذا لفظ مسلم

و قد تقدم معنى هذا الحديث من طريق أخرى [عن ابن سفيينة مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : { إنا لله و إنا إليه راجعون } اللهم أؤجرني في مصيبتى و أخلص لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبتة و أخلص له خيرا منها] قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت : من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قالت : ثم عزم لي فقلت فتزوجت رسول الله صلى الله عليه و سلم

و روى مسلم نحوه من حديث سعد بن سعيد الأنصاري أخي يحيى ابن سعيد عن عمر بن كثير عن ابن سفيينة فذكر نحوه

و المقصود : أن هذا تنبيه على قوله تعالى : { و بشر الصابرين } إما بالخلف كما أخلف الله تعالى لأم سلمة بدل زوجها أبي سلمة رسول الله صلى الله عليه و سلم حين تبعت السنة و قالت ما أمرت به ممثلة طائفة إن البر - له - والخير فيما قاله الله ورسوله و إن

الضلال و الشقاء في مخالفة الله و رسوله فلما علمت - رضي الله عنها - أن كل خير في الوجود إما عام و إما خاص فهو من جهة الله و رسوله و أن كل شر في العالم أو كل شر مختص بالعبد فسببه مخالفة الله و رسوله فلما قالت هذه الكلمات حصل لها مرافقة الرسول في الدنيا و الآخرة

و قد يحصل العبد بكلمات الاسترجاع منزلة عالية و ثوابا جزيلا كما في [حديث أبي موسى و سيأتي ذكره و فيه : فيقول الله تعالى لملائكته : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك و استرجع فيقول الله تبارك : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة و سموه بيت الحمد] و قد تقدم الاسترجاع في المصيبة و أن قائله عليه الصلوات من ربه و الرحمة و هو من المهتدين و قول عمر : نعم العدلان و نعمت العلاوة و أنه أراد بالعدلين الصلوات و الرحمة و بالعلوة الهداية و الله أعلم و قيل : المراد استحقاق الثواب و تسهيل المصاب و تخفيف الحزن { أولئك عليهم صلوات من ربهم } فالصلاة من الله الرحمة و من الملائكة الاستغفار و من الآدمي التضرع و الدعاء و قال أبو العالية : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة و صلاة الملائكة الدعاء و ظاهر الآيه - و الله أعلم - أن الصلاة من الله غير الرحمة فإنه تعالى عطف الرحمة على الصلاة فعلم التغير

فصل - في تسلية أهل المصائب بالعلاج الإلهي و النبوي

فالإلهي : قوله تعالى : { وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون } وآيات الصبر كثيرة جدا

و النبوي [قوله صلى الله عليه و سلم : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله به : { إنا لله وإنا إليه راجعون } اللهم أؤجرني في مصيبتى و أخلص لي خيرا منها إلا آجره الله في مصيبتى و أخلص الله له خيرا منها] و قد تقدم و أمثال ذلك من الأحاديث

و قد تضمنت هذه الكلمة : { إنا لله و إنا إليه راجعون } علاجا من الله و رسوله لأهل المصائب فإنها من أبلغ علاج المصائب و أنفعه للعبد في عاجله و آجله فإنها تتضمن أصليين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما و تسلى عن مصيبتيه

أحد الأصلين : أن يتحقق العبد أن نفسه و أهله و ماله و ولده ملك لله عز و جل حقيقة و قد جعله الله عند العبد عارية فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريتيه من المستعير و أيضا : فإنه محفوف بعدمين عدم قبله و عدم بعده و ملك العبد له متعة معارة في زمن يسير و أيضا : فإنه ليس هو الذي أوجده من عدم حتى يكون ملكه حقيقة و لا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده فليس له فيه تأثير و لا ملك حقيقي و أيضا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد الأمور المنهي لا تصرف الملاك و لهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكة الحقيقي

والثاني : أن مصير العبد و مرجعه الى الله مولاه الحق و لا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره و يأتي ربه يوم القيامة فردا كما خلقه أول مرة بلا أهل و لا مال و لا عشيرة و لكن يأتيه بالحسنات و السيئات فإذا كانت هذه بداية العبد و ما خوله و نهايته و حاله فيه فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا ؟ أم كيف يأسى على مفقود ؟ ففكرة العبد في بدايته و نهايته من أعظم علاج المصائب و من علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه قال تعالى : { ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور } و من تأمل هذه الآية الكريمة وجد فيها شفاء أو دواء المصائب و كل ما ذكرناه في هذا الفصل فهو في هذه الآية فتدبر ذلك

في النظر في كتاب الله تعالى و سنة رسوله: فصل

و من تسلية أهل المصائب : أن ينظر المصاب في كتاب الله و سنة رسول الله فيجد أن الله تعالى أعطى - لمن صبر و رضي - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي

و من أنفع الأمور للمصاب : أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب و ليعلم أنه في كل قرية و مدينة بل في كل بيت من أصيب فممنهم من أصيب مرة و منهم من أصيب مرارا و ليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت حتى نفس المصاب فيصاب أسوة بأمثاله ممن تقدمه فإنه إن نظر يمينة فلا يرى إلا محنة و إن نظر يسرة فلا يرى إلا حسرة

وذكر أبو الفرج بن الجوزي بإسناده عن عبد الله بن زياد قال : حدثني بعض من قرأ في الكتب : أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض و مغاربها و بلغ أرض بابل مرض مرضا شديدا فلما أشفق أن يموت كتب إلى أمه : يا أماه اصنعي طعاما واجمعي من قدرت عليه و لا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة و اعلمي هل وجدت لشيء قرارا باقيا و خيالا دائما ؟ ! إنني قد علمت يقينا أن الذي أذهب إليه خير من مكاني قال : فلما وصل كتابه صنعت طعاما و جمعت الناس و قالت : لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة فلم يأكلوا فعلمت ما أراد فقالت : من يبلغك عني أنك و عظمتني فاتعظت و عزيتني فتعزيت فعليك السلام حيا و ميتا فإذا علم المصاب أنه لو فتنش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى إما بفوات محبوب أو حصول مكروه فسرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل إن أضحكت قليلا أبكت كثيرا و إن سرت يوما ساءت دهرها و إن متعت قليلا منعت طويلا و ما ملأت دارا حبرة إلا ملأتها عبرة و ما حصلت للشخص في يوم سرورا إلا خبات له في يوم شرورا قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : لكل فرحة ترحة و ما ملئ بيت فرحا إلا ملئ ترحا

و قال ابن سيرين : ما كان ضحك قط إلا كان بعده بكاء

فليعلم العبد أن فوت ثواب الصبر و التسليم هو الصلاة و الرحمة و الهداية في قوله تعالى : { إنا لله و إنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون } و قد تقدم ذلك فما ضمنه الله على الصبر و الاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة و الله أعلم

فصل - في أن مرارة الدنيا هي حلاوة في الآخرة

و من تسلية أهل المصائب : أن ينظر العبد بعين بصيرته فيعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة في الآخرة يقبلها الله تعالى و حلاوة الدنيا هي بعينها مرارة في الآخرة و لأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير من عكس ذلك فإن خفي عليك ذلك فانظر إلى قول الصادق المصدوق وهو قوله صلى الله عليه و سلم : [حفت الجنة بالمكاره و حفت النار بالشهوات] وكذلك قوله في الصحيح : [يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا و الله يارب ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول لا و الله يا رب] الحديث

وهذا المقام تتفاوت فيه عقول الناس و تظهر حقائق الرجال فأكثر أهل زماننا يؤثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول ولم يتحمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد و لا ذل ساعة لعز الأبد و لا محنة ساعة لعافية الأبد فإن الحاضر عنده شهادة و المنتظر غيب و الإيمان ضعيف و سلطان الشهوة حاكم فتولد من ذلك إثثار العاجلة و رفض الآخرة و هذا حال النظر الواقع على ظواهر أكثر أهل زماننا في أوائل أمورهم و مبادئها و ما ذاك إلا لحبهم هذه الحياة الدنيا

قال وهب بن منبه : كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول : بحق أقول لكم إن أشدكم حبا للدنيا أشدكم جزعا على المصيبة

و أما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجل و محاورة العواقب و الغايات فله شأن آخر فادع نفسك إلى ما أعد الله لأولياته و أهل طاعته من النعيم المقيم و السعادة الأبدية و الفوز الأكبر و ما أعد الله لأهل البطالة و الإضاعة من الخزي و الخسران و العذاب الدائم ثم اختر أي القسمين أليق بك و كل يعمل على شاكلته و كل أحد يذهب إلى ما يناسبه و ما هو الأولى به و هذا نصح أخيك فيما يحسن بك و يسليك

فصل - في الاستعانة بالله و الاتكال عليه و العزاء بعزائه

و من تسلية أهل المصائب : أن يستعينوا بالله و يتكلوا عليه و يتعزوا بعزاء الله تعالى و يمتثلوا أمره في الاستعانة بالصبر و الصلاة و يعلموا أن الله مع الصابرين و يطلبوا استنجاز ما وعد الله به عباده على الصبر

و [في حديث أنس بن مالك قال : ألا أحدثكم بحديث لا يحدثكم به أحد غيري ؟ كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم جلوسا فضحك فقال : تدرن مما ضحكت ؟ قالوا : الله و [رسوله أعلم ! قال : عجبت للمؤمن إن الله - عز و جل - لا يقضي له قضاء إلا كان خيرا له و ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده قال : قال إبراهيم بن داود : قال بعض الحكماء : إن لله عبادا يستقبلون المصائب بالبشر قال : فقال : أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم ثم قال : قال وهب بن منبه : وجدت في زبور داود : يقول الله تعالى : يا داود هل تدري من أسرع الناس ممرا على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي و ألسنتهم ربطة من ذكري فالمؤمن الموفق - نسأل الله تعالى حسن التوفيق - من يتلقى المصيبة بالقبول و يعلم أنها من عند الله لا من عند أحد من خلقه و يجتهد في كتمانها ما أمكن قال عبد العزيز بن أبي داود : ثلاثة من كنوز الجنة : كتمان المصيبة و كتمان المرض و كتمان الصدقة

و قال بعض السلف : ثلاثة يمتحن بها عقول الرجال : كثرة المال و المصيبة و الولاية و قال عبد الله بن محمد الهروي : من جواهر البر كتمان المصيبة حتى يظن أنك لم تصب قط

و قال عون بن عبد الله : الخير الذي لا شر معه : الشكر مع العافية و الصبر مع المصيبة

فصل - و من أعظم المصائب المصيبة في الدين

و من أعظم المصائب : المصيبة في الدين فهي من أعظم مصائب الدنيا و الآخرة و هي نهاية الخسران الذي لا ربح معه و الحرمان الذي لا طمع معه
وقد حكى ابن أبي الدنيا عن شريح أنه قال : إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات و أشكره إذ لم تكن أعظم مما هي و إذ رزقني الصبر عليها و إذ وفقني الاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب و إذ لم يجعلها في ديني
و من أعظم المصائب في الدين موت النبي صلى الله عليه و سلم لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم لأن بموته صلى الله عليه و سلم انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة و انقطعت النبوات و كان موته أول ظهور الشر و الفساد بارتداد العرب عن الدين فهو أول انقطاع عرى الدين و نقصانه و فيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد و غير ذلك من الأمور التي لا أحصيها
قال أنس بن مالك - رضي الله عنه - : ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى أنكرنا قلوبنا رواه ابن ماجه
و إذا أردت أن تعلم أن المصيبة به صلى الله عليه و سلم أعظم من كل مصيبة حدثت في الدين فانظر إلى ما روي [عن عائشة - رضي الله عنها - : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزى بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري فإن أحدا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتني] و هذا من رواية موسى بن عبيده و قد أضعفه غير واحد من الأئمة
لكن روى أبو عمر بن عبد البر بإسناده [من حديث عطاء بن أبي رباح مرسل أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بي فإنها من أعظم المصائب] رواه الحافظ أبو نعيم من هذه الطريق أيضا و من طريق أخرى عن مكحول مرسلًا نحوه

: و لقد أحسن أبو العتاهيه في نظمه موافقا لهذا الحديث حيث يقول

(اصبر لكل مصيبة و تجلد ... و اعلم بأن المرء غير مخلد)

(أو ما ترى أن المصائب جملة ... و ترى المنية للعباد بمرصد)

(من لم يصب ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست عنه بأوحد)

(فإذا ذكرت محمدا و مصابه ... فاجعل مصابك بالنبي محمد)

: وفي رواية

(وإذا ذكرت مصيبة تسلو بها ... فاذكر مصابك بالنبى محمد)
و إذا أردت أن تعلم تغير الأحوال بموت النبى صلى الله عليه و سلم فاذكر قوله تعالى : { و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم } الآية
{ أفإن مات } شرط { أو قتل } عطف عليه والجواب : { انقلبتم } و دخل ألف الاستفهام
على حرف الجر لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة و خبرا واحدا و المعنى :
أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل ؟ يقال لمن عاد إلى ما كان عليه انقلب على
عقبه و قيل : المعنى فعلتم فعل المرتدين و منه انقلب على عقبه و قول أنس و قد
تقدم

و روى ابن ماجه من حديث أم سلمة - زوج النبى - صلى الله عليه و سلم - قالت : كان
الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا قام المصلي لم يعد بصر أحدهم
موضع قدميه فتوفي رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان أبو بكر رضي الله عنه - فكان
الناس فإذا قام أحدهم يصلي لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة فتوفي أبو بكر وكان - عمر -
رضي الله عنه - فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة فكان
عثمان - رضي الله عنه - فكانت الفتنة فتلفت الناس في الصلاة يمينا و شمالا و إسناده
مقارب

و المقصود أن المصائب تتفاوت فأعظمها المصيبة في الدين - نعوذ بالله من ذلك - هي
أعظم من كل مصيبة يصاب بها الإنسان يؤيد ذلك أنه قد جاء في بعض الآثار أن النبى صلى
الله عليه و سلم قال : [المسلوب من سلب دينه والمحروم من حرم الأجر] ثم بعد مصيبة
الدين المصيبة في النفس ثم في المال أما المال فيخلفه الله تعالى و هو فداء الأنفس و
النفس فداء الدين و الدين لا فداء له قال تعالى : { ما أصاب من مصيبة في الأرض و لا في
{ أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير

فصل - في البشارة لمن تذكر المصيبة فاسترجع

و من أعظم البشارات لمن أصيب بمصيبة فذكرها بعد مدة طويلة فجدد لها استرجاعا و صبرا ماله عند الله من الأجر كلما ذكرها و استرجع

قال الإمام أحمد في مسنده : [ثنا يزيد و عباد بن عباد قالا : حدثنا هشام ابن أبي هشام ثنا عباد ابن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين ابن علي - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما من مسلم و لا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها و إن طال عهدا - قال عباد : قدم عهدا - فيحدث لذلك استرجاعا إلا جدد الله له عنه ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها] و رواه ابن ماجه من حديث [فاطمة بنت الحسين أيضا و لفظه : إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من أصيب بمصيبة فذكر مصيبتة فليحدث استرجاعا و إن تقادم عهدا كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب] لكن في اسناده مقال

قال سعيد بن جبير : ما أعطي أحد في المصيبة ما أعطي هذه الأمة - يعني { إنا لله وانا إليه راجعون } - و لو أعطي أحد لأعطي نبي الله يعقوب عليه السلام ألم تسمع إلى قوله في فقد يوسف : { يا أسفى على يوسف } أولئك - أصحاب هذه الصفة - { عليهم صلوات من ربهم ورحمة و أولئك هم المهتدون }

فصل - في الفرق بين تمتع الدنيا الفاني و الآخرة الباقي

و من تسلية أهل المصائب : أن ينظر المصاب و يفرق بين أعظم اللذتين و التمتعين : تمتع الحياة الدنيا الفانية و تمتع الدار الآخرة الباقية و أدومهما لذة و تمتعا بما أصيب به و لذة تمتعه بثواب الله له على قوله و فعله من استرجاع و صبر و نحوه فإن ظهر له الرجحان فأثر الراجح فليحمد الله على توفيقه له و إن أثر المرجوح من كل وجه فليعلم أن مصيبته في عقله و قلبه و دينه أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه و أي نسبة بين تمتعه بمحبوبه في هذه الدار التي قال الله تعالى في حقها من أولها إلى آخرها : { قل متاع الدنيا قليل } و أي شيء حصل له من القليل ؟ فمن أثر جزءا قليلا من قليل ينفد على جزء كثير من كثير لا ينفد فقد اغتيل عقله

قال بعض الحكماء : يحسب الجاهل الشيء الذي هو لا شيء شيئا و الشيء الذي هو الشيء لا شيء و من لا يترك الشيء الذي هو لا شيء لا ينال الشيء الذي هو الشيء و من لا يعرف الشيء الذي هو الشيء لا يترك الشيء الذي هو لا شيء يريد الدنيا و الآخرة ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا

فصل - في أن يوطن الإنسان نفسه على توقع المصائب و أنها بقضاء الله و قدره
و مما يسلي المصاب : أن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هي من عند الله و أنها بقضائه و قدره و أنه سبحانه و تعالى لم يقدرها عليه ليهلكه بها و لا ليعذبه و إنما ابتلاه ليمتحن صبره و رضاه و شكواه إ ليه و ابتئاله و دعاءه فإن وفق لذلك كان أمر الله قدرا مقدورا و إن حرم ذلك كان ذلك خسرانا مبينا

: قال أبوالفرج بن الجوزي : علاج المصائب بسبعة أشياء
الأول - أن يعلم بأن الدنيا دار ابتلاء و الكرب لا يرجى منه راحة
: قال الشاعر

... و ما استغربت عيني فراقا رأيته (

) و لا علمتني غيرما القلب عالمه

الثاني - أن يعلم أن المصيبة ثابتة

الثالث - أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة

الرابع - النظر في حال من ابتلي بمثل هذا البلاء فإن التأسى راحة عظيمة
: قالت الخنساء

(و لولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي)

(وما يكون مثل أخي و لكن ... أعزي النفس عنه بالتأسى)

و هذا المعنى قد حرمه الله عز و جل أهل النار فإن المخلدين فيها كل واحد محبوس وحده فهو يظن أنه لم يبق في النار سواه

الخامس - النظر في حال من ابتلي أكثر من هذا البلاء فيهبون عليه هذا

السادس - رجاء الخلف إن كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد و الزوجة

قيل للقمان عليه السلام : ماتت زوجتك ؟ قال : تجدد فراشي

: قال الشاعر

... هل وصل عزة إلا وصل غانية (

) في وصل غانية من وصلها خلف

السابع - طلب الأجر بالصبر في فضائله و ثواب الصابرين و سرورهم في صبرهم فإن ترقى

إلى مقام الرضى فهو الغاية انتهى كلامه و قد تقدم معنى ذلك

: و ما يلحق بعلاج هذه السبعة أشياء و أمور أخر

الثامن - أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خير له

التاسع - أن تعلم أن تشديد البلاء يخص الأختيار
العاشر - أن يعلم أنه مملوك و ليس للمملوك في نفسه شيء
الحادي عشر - أن هذا الواقع وقع برضى المالك فيجب على العبد أن يرضى بما رضى به
السيد
! الثاني عشر - معاتبة النفس عند الجزع مما لا بد منه فما وجه الجزع مما لا بد منه ؟
الثالث عشر - إنما هي ساعة فكأن لم تكن
و هذه المعاني و قد تقدم ما يشبهها و يناسبها و يأتي ما هو أتم من ذلك و بالله التوفيق

فصل - في أن لا ننكر وقوع المصائب في الدنيا بجميع أنواعها

ينبغي للعبد أن لا ينكر في هذه الدنيا وقوع هذه المصائب على اختلاف أنواعها و من استخبر العقل و النقل أخبره بأن الدنيا مارستان المصائب و ليس فيها لذة على الحقيقة إلا و هي مشوبة بالكدر فكل ما يظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب و عمارتها و إن أحسنت صورتها خراب و جمعها فهو للذهاب و من خاض الماء الغمر لم يخل من بلل و من دخل بين الصفيين لم يخل من وجل فالعجب كل العجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع ؟ ! و أعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع

: قال بعض الأدباء

... طبعت على كدر و أنت تريدها (

) صفوا من الأقداء و الأكدار

قال أبو الفرج بن الجوزي : و لولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الأمراض و الأكدار ولم يضق العيش فيها على الأنبياء و الأخيار فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا و نوح بكى ثلاثمائة عام و إبراهيم يكابد النار و ذبح الولد و يعقوب بكى حتى ذهب بصره و موسى يقاسي فرعون و يلقي من قومه المحن و عيسى بن مريم لا مأوى له إلا البراري في العيش الضنك و محمد صلى الله عليه و عليهم أجمعين يصابر الفقر و قتل عمه حمزة و هو من أحب أقاربه إليه و نفور قومه عنه و غير هؤلاء من الأنبياء و الأولياء مما يطول ذكره و لو خلقت الدنيا للذة لم يكن حظ المؤمن منها

و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم : [الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر] فإذا بان بأنها دار ابتلاء و سجن و محن فلا ينبغي إنكار وقوع المصائب فيها

فصل - في المصائب المختصة بذات الإنسان

ذكر أبو الفرج بن الجوزي : في المصائب المختصة بذات الإنسان قال : رأيت جمهور الناس إذا طرقتهم المرض أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع و الشكوى و تارة بالتداوي إلى أن يشتد عليهم فيشغلهم اشتداده عن الالتفات إلى المصالح من وصية أو فعل خير أو تأهب للموت فكم ممن له ذنوب لا يتوب منها أو عنده ودائع لا يردها أو عليه دين أو زكاة أو في ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها و إنما حزنه على فراق الدنيا إذ لا هم له سواه وربما أفاق وأوصى بجور انتهى كلامه

و سبب ذلك ضعف الإيمان كما قال تعالى : { فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم } و أحدهم لا هم له إلا الدنيا و لا يتأسف إلا عليها و العين المتطلعة إلى الآخرة ضعيفة جدا و قد عم هذا أكثر الخلق في زماننا نعوذ بالله من الخذلان

فينبغي للمتيقظ أن لا يتأسف على ما فات و أن يتأهب في حال صحته قبل هجوم المرض فربما ضاق الوقت عن عمل و استدراك فارتأى أو وصية فإن لم تكن له وصية في صحته فليبادر في مرضه و ليحذر الجور في وصيته فإنه من المحرمات فإنه يمنع المستحق و يعطي من لا يستحق فيحتاج أن يحارب نفسه و شيطانه فقد [روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يقول : اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت] و يعلم أنه مملوك لله و ليس له في نفسه شيء

: قال الشاعر

(صرت لهم عبدا و ما ... للعبد أن يتعرضا)

و يعلم أيضا أن هذا الواقع من المصائب في نفسه و ماله و ولده وقع برضى مالكة وخالقه فيجب على العبد أن يرضى بما يرضى به السيد ويعاقب نفسه إذا جزعت و يقول لها : أما علمت أن هذا لا بد منه ؟ ! فما وجه الجزع ؟ ! وإنما هي ساعة كأن لم يكن ما كان و من تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء و الله تعالى الموفق

قال بعض السلف : رأيت جمهور الناس ينعجون لنزول البلاء انزعاجا يزيد عن الحد كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا

! وضعت و هل ينتظر الصحيح إلا السقم و الكبير إلا الهرم و الموجود سوى العدم ؟

: قال الشاعر

... على ذا مضى الناس : اجتماع و فرقة)

(و ميت و مولود و بشر و أحزان

ثم قال : و لعمرى إن أصل الانزعاج لا ينكر إذ الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا و إنما ينكر الإفراط فيه و التكليف كمن يخرق ثيابه و يلطم وجهه و يعترض على القدر فإن هذا لا يرد فائتاً لكنه يدل على خور الجازع و يوجب العقوبة و السلام

فصل - في أن المصائب و المحن دواء للكبر و العجب

و ليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا و مصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر و العجب و الفرعنة و قسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلا و آجلا فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقد في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء و حفظا لصحة عبوديته و استغراغا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة فسبحان من يرحم ببلائه و يبتلي :

قد ينعم الله بالبلوى و إن عظمت (

و يبتلي الله بعض القوم بالنعم) فلولا أنه سبحانه و تعالى يداوي عباده بأدوية المحن و ...
الابتلاء لطغوا و بغوا و عتوا و تجبروا في الأرض و عاثوا فيها بالفساد فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمر و نهى و صحة و فراغ و كلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها تمردت و سعت في الأرض فسادا مع علمهم بما فعل بمن قبلهم فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال ؟ ! و لكن الله سبحانه و تعالى إذا أراد بعبد خيرا سقاه دواء من الابتلاء و الامتحان على قدر حاله و يستفرغ منه الأدواء المهلكة حتى إذا هذبه و نقاه و صفاه أهله لأشرف مراتب الدنيا و هي عبوديته و رقاها أرفع ثواب الآخرة و هي رؤيته

فصل - في اعتراض المصاب على الأقدار و دلالاته بعبادته

قد يحصل للعابد الجاهل مصيبة من الجزع ما يسوء الناظر إليه و السامع عنه من الاعتراض على الأقدار و ما ذاك إلا لإدلاله بعبادته فإنه قد شوهد أن خلقا كثيرا من أهل الدين و الخير عند موت أحببهم جرى منهم أمور ينكرها العقال من الناس فمنهم من خرق ثيابه و منهم ! من لطم خده و منهم من اعترض على القضاء و القدر

قال ابن الجوزي : رأيت رجلا كبيرا أعرفه قد قارب الثمانين وهو من أهل الدين المحافظين على الجماعة فمات ولد لابنته فقال : ما ينبغي لأحد أن يدعو فإنه ما يستجيب ثم قال : إن عاندنا فما يترك لنا ولدا فعلمت أن صلاته و فعله للخير عادة لا أنه ينشأ عن معرفة إيمان و هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف ثم قال ابن الجوزي : حدثني خالي لعمي محمد بن عثمان قال : كنت مشدا بقرية التل فسمعت عن شيخ قد جاوز الثمانين و لا يصلي و قد كان قبل ذلك كثير الصلاة مع الجماعة و فعل الخير ثم ترك ذلك فدعوته و قلت : يا شيخ لم لا تصلي ؟ فقال : وكيف أصلي و كان لي أولاد فماتوا وكان لي غنم فغنيت ؟ فأنا ما بقيت أصلي له و لا ركعة فضرته و طفت به البلد فكان بعد ذلك يواظب على الجامع انتهى ما ذكره

فلا شيء أنفع من العلم لأن العالم لو حصل له هلع شديد في مصيبته يعلم أنها زلة منه فيدري كيف يتنفس و العابد الجاهل كلما غاص إلى أسفل يظن أنه صاعد إلى فوق فإذا امتحن الشخص ينبغي له أن يتداوى بالأدوية الشرعية فإنه يقال : عند الامتحان يكرم الشخص أو يهان أما علم لا بد من الفرقة ؟ و قد روى داود [عن الحسن بن جعفر عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : قال جبريل : يا محمد عش ما عشت فإنك ميت و أحبب من شئت فإنك مفارقة و اعمل ما شئت فإنك ملاقيه] فنعود بالله من عدم الصبر عند المحنة و نسأل الثبات في الأمر فإنه و العياذ بالله يخاف على الشخص من سوء الخاتمة إذا سخط الأقدار و نازع القضاء و القدر أهله فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة

فصل - في أن الأفضل إبدال الشكوى و الأنين بذكر الله تعالى

ينبغي للمصاب بنفسه أو بولده أو بغيرهما أن يجعل في المرض مكان الأنين ذكره الله تعالى و الاستغفار و التعبد فإن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يكرهون الشكوى إلى الخلق و هي و إن كان فيها راحة إلا أنها تدل على ضعف و خور و الصبر عنها دليل قوة و عز و هي إشاعة سر الله تعالى عند العبد و هي تأثر شماتة الأعداء و رحمة الأصدقاء

: قال الشاعر

(لا تشكون إلا صديق حالة ... تأتيك في السراء و الضراء)

(فلرحمة المتوجعين مرارة ... في القلب مثل شماتة الأعداء)

و ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده إلى إسماعيل بن عمرو قال : دخلنا على وراق بن عمر و هو في الموت فجعل يهمل و يكبر و يذكر الله عز و جل و جعل الناس يدخلون عليه و يسلمون عليه فيرد عليهم السلام فلما كثروا عليه أقبل على ابنه فقال : يا بني اكفني رد السلام على هؤلاء لا يشغلوني عن ذكر ربي عز و جل

و عن أبي محمد الحريري قال : حضرت عند الجنيد قبل وفاته بساعتين فلم يزل تاليا و ساجدا فقلت له : يا أبا القاسم قد بلغ ما أرى من الجهد فقال : يا أبا محمد أحوج ما كنت إليه هذه الساعة فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا

و قد روي في حديث أن إبليس لا يكون في حال أشد منه على ابن آدم عند الموت يقول لأعوانه : دونكموه فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه

و اعلم - رحمك الله - أن الأعمال بخواتيمها فإنه ربما أضله في اعتقاده و ربما حيل بينه و بين التوبة و غير ذلك مما هو محتاج إليه و ربما وقع منه الاعتراض على القضاء و القدر فينبغي للمصاب بنفسه أو بغيره أن يعلم أو يعلم بغيره أنها صبر ساعة فيتجلد و يحارب العدو جهد طاقته فبصدقه تحصل له عليه الإعانة من الله و يعلم أيضا أن التشديد عليه أو على غيره في النزاع هو في الغالب من كرامة العبد على الله عز و جل فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل و الأمثل و قوله صلى الله عليه و سلم : [ما أشد مرارة الموت] و قول أبي عبيدة : اخنق خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك

وقد روى الإمام أحمد عن الوليد بن مسلم الأوزاعي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : ما أحب أن يهون علي سكرات الموت إنه آخر ما يكفر عن المرء المسلم

و قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني معمر حدثني شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يستحبون للمريض أن يجهد عند الموت و بإسناده عن ابن

عباس قال : آخر شدة يلغاها المؤمن عند الموت
كانت عائشة رضي الله عنها تقول : مات فلان ولم يعالج قال الحافظ بن ناصر : يعني أنه لم
يعالج : أنه لم يحصل له في مرضه و عند موته ما يكون كفارة لذنوبه
و [عن ثابت عن أنس بن مالك - رضي الله عنهم - أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل
على شاب و هو في النزاع فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله و أخاف ذنوبي فقال رسول
الله صلى الله عليه و سلم : لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله
[ما يرضى أو أمنه مما يخاف
فمن خاف الله و حفظه في صحته حفظه في مرضه و من راقب الله في خطر حرسه الله
في حركاته و سكناته
و في [حديث ابن عباس - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال :
[احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة
و في قصة يونس عليه السلام لما تقدم له عمل صالح قال : { فلولا أنه كان من
المسبحين * للبت في بطنه إلى يوم يبعثون } ولما لم يكن لفرعون عمل خير قط لم يجد
وقت الشدة متعلقا فليل له : { الآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين } فمن ضيع
الله في صحته فإنه يضيع في مرضه و الله أعلم

فصل - في أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها

و ليعلم المصاب أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها و هوفي الحقيقة يزيد في مصيبتة بل يعلم المصاب أن الجزع يشمت عدوه و يسوء صديقه و يغضب ربه و يسر شيطانه و يحبط أجره و يضعف نفسه و إذا صبر و احتسب أخزى شيطانه و أرضى ربه و سر صديقه و ساء عدوه و حمل عن إخوانه و عزاها هو قبل أن يعزوه فهذا هو الثبات في الأمر الديني قال [النبي صلى الله عليه و سلم :] اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر فهذا هو الكمال الأعظم لا لطم الخدود و شق الجيوب و الدعاء بالويل و الثبور و التنسخت على المقذور

قال بعض الحكماء : العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام و من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم يريد بذلك ما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [إنما الصبر عند الصدمة الأولى

و قال الأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيمانا و احتسابا و إلا سلوت كما تسلو البهائم بل يعلم المصاب أن ما يعقبه الصبر و الاحتساب من اللذة و المسرة أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه بل يكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يبنى له في الجنة على حمده لربه و استرجاعه على مصيبتة فلينظر أي المصيبتين أعظم مصيبتة العاجلة بفوات محبوبه أو مصيبتة بفات بيت الحمد في جنة الخلد ؟

و [في الترمذي مرفوعا :] يود ناس لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما [يرون من ثواب أهل البلاء

و ليعلم المصاب الجازع و إن بلغ به الجزع غايته و نهايته فأخر أمره على صبر الاضطرار و هو غير محمود و لا مثاب عليه فإنه استسلم للصبر و انقاد إليه على رغم أنفه قال يحيى بن معاذ ابن آدم مالك تأسف على مفقود لايرده عليك الفوت ؟ مالك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت ؟

فإذا علم الجازع على المصيبة أن الجزع لا يرد ما فات و أنه يسر الشامت فأى عقل لمن لم يتفكر في العاقبة و يذكر مآله إلى مصيبة أصابت غيره أنها تصيبه في نفسه و أنه أمر لا بد منه فليستعد له

وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع فذكروا لها ذلك فقالت : ما أصاب بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب و مما يسلي العبد قول بعض الحكماء : قد مات كل نبي و مات كل نبيه و فقيه و عالم فلا

تجزع و لا يوحشك طريق الخلائف فيها
و قال بعض السلف و قد سأله رجل فقال : عطني فقال : انظر منك إلى آدم هل ترى عينا
حسبك : تطرف ؟ فقال

فصل - في أن من سلم أمره في مصيبته و احتسب لله عوضه خيرا منها

و مما يسلي أهل المصائب : أن المصاب إذا صبر و احتسب و ركن إلى كريم رجاء أن يخلف الله تعالى عليه و يعوضه عن مصابه فإن الله تعالى لا يخيبه بل يعوضه فإنه من كل شيء : عوض إلا الله تعالى فما عوض كما قيل

من كل شيء إذا ضيعته عوض (

) و ما من الله إن ضيعته عوض ...

بل يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدث له فمن رضي فله الرضى و من سخط فله السخط فاختر لنفسك خير الحظوظ أو شرها فإن أحدثت له سخطا و كفرا كنت في ديوان الهالكين و إن أحدثت له جذعا و تفريطا في ترك واجب أو فعل محرم كنت في ديوان المفرطين و إن أحدثت له شكاية و عدم صبر و رضى كنت في ديوان المغبونين و إن أحدثت له اعتراضا عليه و قدحا في حكمته و مجادلة في الأقدار فقد قرعت باب الزندقة و فتح لك و ولجته فاحذر عذاب الله يحل بك فإنه لمن خالفه بالمرصاد

وإن أحدثت له صبرا و ثباتا لله كنت في ديوان الصابرين و إن أحدثت له رضى بالله و رضى عن الله و فرحا بقضائه كنت في ديوان الراضين و إن أحدثت له حمدا و شكرا كنت في ديوان الشاكرين الحامدين و إن أحدثت له حمدا و اشتياقا إلى لقائه كنت في ديوان المحبين المخلصين

و في مسند الإمام أحمد و الترمذي من حديث [محمود بن لبيد أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي الله فله الرضى و من سخط فله

السخط] زاد الإمام أحمد : و من جزع فله الجزع

فأنفع الأدوية للمصاب موافقة ربه و إلهه فيما أحبه و رضيه له و إن خاصية المحبة و سرها موافقة المحبوب فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه و أحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه و أسخط عليه محبوبه

قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به

و كان عمران بن حصين - رضي الله عنه - يقول في مرضه : أحبه إلي أحبه إليه و قال بعده أبو العالية : و هذا دواء المحبين و علاجهم لأنفسهم و لا يمكن كل أحد أن يتعالج به فانظر هذه الطرائق و اختر وفقنا الله و إياك لما يحب

فصل - فيمن طلب المصائب و فرح بها رجاء ثوابها

روى ابن أبي حاتم بإسناده في تفسيره عن خالد بن يزيد عن عياض عن عقبة أنه مات له ابن يقال له : يحيى فلما نزل في قبره قال له رجل : و الله إن كان لسيد الجيش فاحتسبه فقال والده : و ما يمنعني أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا و هو اليوم من الباقيات الصالحات ؟ ! فهذا رجل صابر راض محتسب ما أحسن فهمه و حسن تعزيتة لنفسه و ثقته بما أعطاه الله من ثواب الصابرين

و عن ثابت قال : مات عبد الله بن مطرف فخرج أبوه مطرف على قومه في ثياب حسنة و قد ادهن فغضبوا فقالوا : يموت عبد الله و تخرج في مثل هذه مدھنا ؟ قال : أفأستكين لها و قد وعدني ربي تبارك و تعالى عليها خصالا كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا كلها ؟ ! قال تعالى : { الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون } أفأستكين لها بعد ذلك ؟ ! ثم قال ثابت قال مطرف : ما شيء أعطي به في الآخرة قدر كوز من ماء إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد

و عن محمد بن خلف قال : كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدى عشرة سنة حفظ القرآن و لقنه من الفقه جانبا كبيرا قال : فمات فجئت أعزيه فقال : كنت أشتهي موت ابني هذا قال : فقلت له : يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب و لقنته الحديث و الفقه ؟ ! قال : نعم رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت و كأن صبينا بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم و كان اليوم يوما حارا شديدا حره قال : فقلت لأحدهم : اسقني من هذا الماء قال : فنظر إلي و قال : ليس أنت أبي قلت : فأبي شيء أنتم ؟ قال : فقال لي : نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا و خلفنا آباؤنا فنستقبلهم فنسقيهم الماء قال : فلهذا تمنيت موته

و روى البيهقي بإسناده عن ابن شوذب : أن رجلا كان له ابن لم يبلغ الحلم قال : فأرسل إلى قومه : إن لي حاجة ! قالوا : نعم و ما هي ؟ قال : إني أريد أن أدعوا على ابني هذا أن يقبضه الله تعالى و تؤمنون على دعائي فسألوه عن ذلك فأخبرهم أنه رأى في منامه كأن الناس جمعوا ليوم القيامة فأصاب الناس عطش شديد فإذا الولدان قد خرجوا من الجنة معهم الأباريق فأبصرت ابن أخ لي فقلت : يا فلان اسقني قال : يا عم إنا لا نسقي إلا الآباء قال : فأحبت أن يجعل الله ولدي هذا فرط لي فدعا فأمنوا على دعائه فلم يلبس الغلام إلا يسيرا حتى مات و قد روى ابن عساكر بإسناده عن سهيل بن الحنظلية الأنصاري - و

كان لا يولد له - فقال : لأن يولد لي و لو سقط فأحتسبه أحب إلي من أن يكون لي الدنيا بأجمعها و كان ابن الحنظلية ممن بايع تحت الشجرة
و ذكر ابن عساكر أيضا عن الليث بن سعد قال : حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أبنا لعياض بن عقبة حضرته الوفاة و كان عياض غائبا فقالت أم الغلام : لو كان أبو وهب حاضرا لقرت عينه فلما حضرت وفاة عياض ابن عقبة قال لأخيه أبي عبيد : يهناك الظفر قد كنت أرجو أن تكون قبلي فأحتسبك

و قال أبو مسلم الخولاني - رحمه الله - : لأن يولد لي مولود يحسن الله نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إلي قبضه الله تعالى مني أحب إلي من أن تكون الدنيا و ما فيها لي و روي عن الإمام القفال قال : كان في جوارى رجل يأبى التزويج فلما كان في بعض الليالي استيقظ من نومه في الليل و نادى : زوجوني زوجوني فستل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقني ولدا يقبضه قبل البلوغ و قبل موتي قيل و كيف ذلك ؟ قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت و الخلق في الموقف و أنا معهم و قد كظني العطش و إذا قد ظهر أطفال بأيديهم أباريق من فضة مغطاة بمناديل من نور يتخللون الجمع و يسقون واحدا بعد واحد فمددت يدي إليهم و قلت لبعضهم : اسقني فقد أجهدني العطش فنظر إلي شزرا و قال ليس لك فينا ولد و إنما نسقي أباءنا و أمهاتنا فقلت من أنتم ؟ قالوا : أطفال المسلمين

و قال أبو الحسن المدائني : دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه في وجعه فقال يا بني كيف تجدك ؟ قال : تجدني في الحق قال : يا بني لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك فقال : يا أبة لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن أكون ما أحبه
و روى ابن أبي شيبة بإسناده عن ثابت البناني : أن صلة بن أشيم كان في غزاة له و معه ابن له فقال له أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك فحمل فقاتل حتى قتل ثم تقدم أبوه فقتل فاجتمعت النساء فقامت امرأته معاذة العذرية فقالت للنساء : مرحبا إن كنتن جئتن لتهنئنني مرحبا بكن إن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن

و [عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء قلت : ثم من ؟ قال الصالحون إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحتويها و إن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء] رواه ابن ماجه من حديث طويل و روى الإمام أحمد في كتاب الزهد و ابن ماجه في سننه عن [أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال و لا بإضاعة المال و لكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك و أن تكون [في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك

و قال ابن الجوزي : ثنا ابن ناصر أنبأ جعفر بن أحمد ثنا أبي ثنا هاشم عن ابن المبارك عن الحسن ثنا أبو الأحوص قال : دخلنا على ابن مسعود - رضي الله عنه - و عنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير فجعلنا نتعجب من حسنهم فقال : كأنهم يغبطونني ؟ قلنا : إي و الله ليمثل هؤلاء يغبط المسلم فرفع رأسه إلى سقف البيت و قد عشش فيه خطاف و باض فقال : و الذي نفسي بيده لأن أكون قد نفضت يدي من تراب قبورهم أحب إلي من أن يسقط عش هذا الخطاف و ينكسر بيضه ثم قال : ما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها

و روى هناد بن السري في الزهد عن كثير بن تميم الداري قال : كنت جالسا مع سعيد بن جبير فطلع عليه ابنه عبد الله بن سعيد و كان به من الفقه فقال : إنني لأعلم خير حالاته فقالوا : و ما هو ؟ قال : أن يموت فأحتسبه

و روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان قال : سمعت سفيان يقول : ما في الأرض أحب إلي من سعيد و ما في الأرض أحد يموت أحب إلي منه فمات فرأيته يبكي قلت : قد كنت تمنى موته ! قال : أذكر قوله : أه جنبي

و في تاريخ الرقة للحراني : ثنا أحمد بن بديع ثنا أبي قال : سمعت عمر بن ميمون بن مهران يقول : كنت مع أبي و نحن نطوف بالكعبة فلقي أبي شيخا فعانقه أبي و مع الشيخ فتى قريبا مني فقال له أبي : من هذا ؟ قال : ابني فقال : كيف رضاك عنه ؟ قال ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا و قد رأيتها فيه إلا واحدة قال : و ما هي ؟ قال : كنت أحب أن يموت و أوجر فيه ! قال : ثم فارقه أبي قال : فقلت لأبي : من هذا الشيخ ؟ قال : هذا مكحول

و المقصود أن هذا المقام مقام عظيم شريف لمن يطلب المصيبة و يفرح بها نظرا إلى ثوابها و ما يفعل ذلك أحد حتى يعلم من نفسه القوة و الصبر و الجلد و الركون إلى دعوى النفس و ما أكثر ما تخلف الوعد و تنقد العهد فإن الغالب متى ما أظهرت الدعوى و كلت إليها و طولبت بتصحيح دعواها فتقصر عند الحقيقة و تميل عن تقويم الطريقة و كان سحنون - رحمه الله - يقول : قد رضيت ما تقضيه فابتلني بما شئت فابتلاه الله بحصار البول فما صبر فكان يدور على الصبيان و يقول : ادعوا لعمكم الكذاب بالطريقة [الكاملة قوله صلى الله عليه و سلم :] لا تتمنوا لقاء العدو و سلوا الله العافية

و اعلم أن النية في طلب الولد و فقده و قصد بقائه إذا صحت النية حصل الثواب الجزيل على النيتين جميعا لأن الأعمال بالنيات فإنه ثبت عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : ما من أهل و لا مال و لا ولد إلا و أنا أحب أن أقول عليه : { إنا لله و إنا إليه راجعون } إلا عبد الله بن عمر فإنني أحب أن يبقى في الناس يأيد ذلك ما ثبت [في صحيح مسلم أن

النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من صدقة
[جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له

و في حديث أنس مرفوعا : سيع يجري أجرها للعبد بعد موته فذكر منها : أو ترك ولد
يستغفر له بعد موته

و هذا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قد سماه النبي صلى الله عليه و سلم الرجل
الصالح أو العبد الصالح ولا شك أن العبد إذا حصل له أجر مستمر بعد موته هو أولى من
حصول أجر في حياته ثم ينقطع بالموت فإن العبد من أحوج الناس بعد موته إلى الحسنات
و بموته قد انقطع عمله إلا ما أخبر به الصادق المصدوق في هذا الحديث المتقدم فطلب
الولد و بقاءه أنفع للعبد فيما فهمت و لكن أولئك لما خالط قلوبهم قوة الإيمان و التصديق
بالقضاء و القدر و الرضى به برزوا بالقول و قل من يصبر على تحمل البلوى عند الحقيقة و
الله أعلم

الباب الثاني - في البكاء على المصيبة و ما ذكر العلماء في ذلك

البكاء أصله بكى على فعول قال الجوهري : البكاء يمد و يقصر فإذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء و إن قصرت أردت الدموع و خروجها و بكيت الرجل و بكيته إذا بكيت : عليه قال الشاعر

(بكت عيني و حق لها بكاها ... و ما يغني البكاء و لا العويل)

هذا من جهة اللغة وهو رقة و رحمة في قلوب عباد الله فالبكاء على الميت في مذهب الإمام أحمد و أبي حنيفة : جوازه قبل الميت و بعده و اختاره أبو اسحق الشيرازي و كرهه الشافعي و كثير من أصحابه بعد الموت و رخصوا فيه قبل خروج الروح و احتجوا بحديث [جابر عن عتيك - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب فصاح به رسول الله صلى الله عليه و سلم فلم يجبه فاسترجع و قال : غلبنا عليك يا أبا الربيع فصاح النسوة و بكين فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال : رسول الله صلى الله عليه و سلم : دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية قالوا : و ما الواجب يا رسول الله ؟ قال : الموت] رواه الإمام أحمد و أبو داود و هذا لفظه و النسائي و ابن ماجه

قالوا : و في الصحيحين [من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه] و هذا إنما هو بعد الموت و أما قبله فلا يسمى ميتا

و عن ابن عمر أيضا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما قدم من أحد سمع نساء من [بني عبد الأشهل على هلكاهن يبكين فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لكن حمزة لا بواكي له فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : ويحهن إنهن ههنا يبكين ؟ ما أثقلهن ! مروهن فليرجعن و لا يبكين على هالك بعد اليوم] رواه الإمام أحمد و ابن ماجه

و هذا صريح في نسخ الإباحة المتقدمة و الفرق بين ما قبل الموت و بعده أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذرا فإذا مات انقطع الرجاء و أبرم القضاء فلا ينفع البكاء احتج أصحابنا و من قال بقولهم ممن جوز البكاء قبل الموت و بعده قال [جابر بن عبد الله : أصيب أبي يوم أحد فجعلت أكشف الثوب عن وجهه و أبكي فجعلوا ينهوني و رسول الله صلى الله عليه و سلم لا ينهاني فجعلت عمتي فاطمة تبكي فقال النبي صلى الله عليه و سلم : تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه] متفق عليه

و عن ابن عمر قال : اشتكى سعد بن عباده شكوى له فأناه النبي صلى الله عليه و سلم يعوده مع عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبي وقاص و عبد الله بن مسعود فلما دخل عليه فوجده في غاشية فقال : قد قضى ؟ قالوا لا يا رسول الله فبكى النبي صلى الله عليه و سلم فلما رأى القوم بكاء رسول الله بكوا فقال : ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين و لا يحزن القلب و لكن يعذب بهذا - و أشار إلى لسانه - أو يرحم [رواه البخاري و هذا لفظه] و مسلم و عنده : وجده في غشية فقال : أقد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله [الحديث و هو من رواية يونس بن عبد الأعلى

و عن أسامة بن زيد قال : كنا عند النبي صلى الله عليه و سلم فأرسلت إليه إحدى بناته [تدعوه و تخبره أن صبيا أو ابنا لها في الموت فقال الرسول : ارجع إليها فأخبرها أن الله عز و جل ما أخذ و له ما أعطى و كل شيء عنده بأجل مسمى فمرها لتصبر و لتحتسب فعاد الرسول فقال : إنها قد أقسمت لتأتينها قال : فقام النبي صلى الله عليه و سلم و قام معه سعد بن عبادة و معاذ بن جبل و أبي بن كعب و زيد بن ثابت و انطلقت معهم فرفع إليه الصبي و نفسه تفجع كأنها في شنة ففاضت عيناه فقال له سعد بن عبادة : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده و إنما يرحم الله من عباده الرحماء [رواه البخاري و مسلم

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : شهدنا بنتا لرسول الله صلى الله عليه و سلم قال : و رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس على القبر قال : فرأيت عيناه تدمعان قال : فقال : هل منكم من رجل لم يقارف الليلة ؟ فقال أبو طلحة : أنا قال : فانزل في قبرها [رواه البخاري

و عن أنس أيضا قال : قال : رسول الله صلى الله عليه و سلم : ولد لي غلام فسميته [باسم أبي إبراهيم فذكر الحديث ثم دخلنا عليه بعد ذلك و إبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه و سلم تذرفان و في لفظ : فأخذه فوضعه في حجره و قال : يا بني لا أملك لك من الله شيئا فقال عبد الله بن عوف و أنس : يا رسول الله أتبكي و تنهى عن البكاء ؟ فقال : يا بن عوف إنها رحمة و من لا يرحم لا يرحم ثم أتبعها بأخرى فقال : إن العين تدمع و القلب يحزن و لا نقول إلا ما يرضي ربنا و إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون [رواه البخاري و مسلم بدون زيادة الألفاظ و فيه دليل على البكاء قبل الموت

و عن أنس أيضا - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أخذ الراية [زيد فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب و إن عيني رسول الله صلى الله عليه و سلم لتذرفان ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له [رواه البخاري

و [عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ماتت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده و قال : مهلا يا عمر ثم إياكن و نعيق الشيطان ثم قال : إنه مهما كان من العين و القلب فمن الله عز و جل و من الرحمة و ما كان من اليد و اللسان فمن الشيطان] رواه الإمام أحمد و عن عائشة - رضي الله عنها - أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر و عمر - رضي الله عنهما - قالت : فو الذي نفسي بيده إنني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر و أنا في حجرتي رواه الإمام أحمد و [عن أبي هريرة رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان في جنازة فرأى عمر امرأة فصاح بها فقال النبي صلى الله عليه و سلم دعها يا عمر فإن العين دامعة و النفس مصابة و العهد قريب] رواه ابن ماجه

و [عن أسماء بنت يزيد قالت : لما توفي ابن رسول الله صلى الله عليه و سلم إبراهيم بكى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : - إما أبو بكر و إما عمر - : أنت أحق من عظم لله حقه ! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : تدمع العين و يحزن القلب و لا نقول ما يسخط الرب لولا أنه وعد صادق و موعد جامع و أن الآخر تابع للأول لوحدنا عليك يا إبراهيم أفضل ما وجدنا و إنا بك لمحزونون] رواه ابن ماجه و في لفظ : [أتبكي أو ما نهيتنا عن البكاء ؟ قال : ليس عن البكاء نهيت و لكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نغمة لهو و لعب و رنة شيطان و صوت عند مصيبة لطم وجوه و شق جيوب و رنة شيطان و هذه رحمة و من لا يرحم يا إبراهيم لولا أنه أمر حق و وعد صادق و سبيل لا بد تأتيه و أن] آخرنا سوف يلحق بأولنا لحزنا عليك حزنا هو أشد من هذا و إنا بك لمحزونون

و قال الإمام أحمد : [حدثنا يزيد ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال : ماتت زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه و سلم فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده ثم قال : مهلا يا عمر ثم قال : ابكين و إياكن و نعيق الشيطان ثم إنه مهما كان من العين و القلب فمن الله عز و جل] و ذكر تمام الحديث و قد تقدم

و روى الإمام أحمد أيضا بسنده [عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ماتت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : الحقني سلفنا الخير عثمان بن مظعون و بكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه فقال النبي صلى الله عليه و سلم لعمر : دعهن يبكين و إياكن و نعيق الشيطان ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : مهما يكن من القلب و العين فمن الله و الرحمة و مهما كان من اليد و اللسان فمن الشيطان و قعد رسول الله صلى الله عليه و سلم على شفير القبر و فاطمة إلى جنبه تبكي فجعل النبي صلى الله

[عليه و سلم يمسح عين فاطمة بثوبه رحمة لها
 فقد ثبت في حديث موت زينب و رقية بنتي رسول الله صلى الله عليه و سلم البكاء بعد
 الموت
] و قد جاء في آثار جملة [أنه صلى الله عليه و سلم زار قبر أمه فبكى و أبكى من حوله
 و صح] عنه صلى الله عليه و سلم أنه قبل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على
 وجهه [و تقدم قصة جعفر و عبد الله بن رواحة و أصحابهما
 و كذلك صح عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قبل النبي صلى الله عليه و سلم
 وهو ميت و بكى و أبكى وكذلك بكى علي علي النبي صلى الله عليه و سلم
 فهذه الأحاديث كلها دالة على جواز البكاء قبل الموت و بعده من غير كراهة و ما ذكره
 أصحاب الشافعي و من قال بقولهم من الكراهة بعد الموت مستدلين بما تقدم من أحاديث
 النهي فكلها محمولة على البكاء الذي معه ندب و نياحة و يؤيد ذلك ما يأتي ذكره : [إن
] الميت ليعذب ببكاء أهله عليه [و في لفظه :] يعذب بما نيح عليه
 و أما من ادعى النسخ في حديث حمزة فلا يصح لأن معناه لا تكفين على هالك بعد اليوم
 من قتلى أحد و يدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد منها حديث
 أبي هريرة لأن إسلامه و صحبته كانا في السنة السابعة و منها البكاء على جعفر و
 أصحابه وكان استشهادهم في السنة الثامنة و كذلك البكاء على زينب بنت رسول الله
 صلى الله عليه و سلم كان في الثامنة أيضا و البكاء على قبر أمه صلى الله عليه و سلم
 كان عام الفتح
 و أما قولهم : إنما جاز قبل الموت حذرا بخلاف ما بعد الموت
 جوابه : أن كان الباكي قبل الموت يبكي حزنا و حزنه بعد الموت أشد لأنه قبل الموت ربما
 يرتجى و بعده فقد فقدت الرجوى فبكى لفراق لا عودة بعده في الدنيا و هذا معنى قوله
 صلى الله عليه و سلم : [أن العين لتدمع و إن القلب ليحزن و لا نقول ما يسخط الرب] و
 منها : قال البخاري : قال عمر : دعهن يبكين على أبي سلمان ما لم يكن نقع أو لقلقة و
 النقع : التراب على الرأس و اللقلقة : الصوت
 حدثنا إسحاق بن منصور عن أبي رجاء عبد الله بن واقد عن محمد بن مالك عن البراء بن [
 عازب قال : كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم في جنازة فلما انتهينا إلى القبر فاستدرت
 فاستقبلته فإذا هو يبكي حتى بل الثرى ثم قال : إخواني لمثل هذا اليوم فأعدوا] رواه
 الإمام أحمد

فصل - فيما روي على النبي صلى الله عليه و سلم في البكاء على الميت

و قد ذكر بعض العلماء أن البكاء الذي روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه فعله و أباحه أو أمر به للاستحباب هو البكاء الذي هو دمع العين و رقة القلب و رحمته و الذي نهى النبي صلى الله عليه و سلم عنه و هو البكاء - بالمد - الذي يستلزم الصراخ و الندب و العويل و يشهد لهذا قوله : [ما كان من العين و القلب فمن الله عز و جل و ما كان من اليد و اللسان فمن الشيطان و نهى عن رنة الشيطان] و هو رفع الصوت عند المصيبة قلت : هذا و إن كان حسنا يعكر عليه و ما حكيناه عن الجوهرى : إن البكاء يمد و يقصر فهو لغتان فلا فرق فيه بين المد و القصر و الله أعلم

فصل - في التحذير مما يتفوه به المصاب من ألفاظ التظلم و الشكوى

و ليحذر العبد كل الحذر أن يتكلم في حال مصيبته و بكائه بشيء يحبط به أجره و يسخط به ربه مما يشبه التظلم فإن الله تعالى عدل لا يجور و عالم لا يضل و لا يجهل و حكيم أفعاله كلها حكم و مصالح ما يفعل شيئاً إلا لحكمة فإنه سبحانه له ما أعطى و له ما أخذ لا يسأل عما يفعل و هم يسألون و هو الفعال لما يريد و القادر على ما يشاء له الخلق و الأمر بل إنما يتكلم بكلام يرضي به ربه و يكثر به أجره و يرفع الله به قدره و قد روى ابن أبي الدنيا بإسناده قال : حدثني يونس بن محمد المكي قال : زرع رجل من أهل الطائف زرعاً فلما بلغ أصابته آفة فاحترق فدخلنا عليه لنسليه عنه فبكى و قال : و الله ما عليه أبكى و لكن سمعت الله تعالى يقول : { كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته } فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة فذلك الذي أبكاني قال أبو العرب : لما أمر عبد الله بن زياد بالبلاء أن يمثل بها جاؤوا و معهم الحديد و الحبال فقالت : إليكم أتكلّم بكلام يحفظه عني من سمعه قال : فحمدت الله و أثنت عليه ثم قالت : هذا آخر يومي من الدنيا و هو غير مأسوف عليه و أرجو أن يكون أول أيامي من الآخرة و هو اليوم المرغوب فيه ثم قالت : و الله إن علمي بفنائها هو الذي زهدني في البقاء فيها و سهل علي بلوؤها فما أحب تعجيل ما أخر الله و لا تأخير ما عجل الله و الحمد لله على السراء و الضراء و على العافية و على البلاء ثم قالت : كنت أؤمل في الله ما هو أكثر من هذا قال : ثم إنهم قطعوا يديها و رجليها فجعل الدم لا يرقاً فقالت : حياة كريمة و ميتة طيبة لأنني نلت ما أملت - يا نفس - من جزيل ثواب الله فقد نلت سرورا دائما لا يضرك معه

كدر و هي حين قطعوا يديها و رجليها فلم تتكلم فقبل لها ذلك فقالت : شغلني هول
 المطلع عن ألم حديدكم هذا ثم أتوا بالنار لتكوى بها فلما رأتها صرخت فقبل لها : لقطع
 اليدين و الرجلين لم تنطقي فلما رأيت النار صرخت ؟ فقالت و الله ليس من ناركم صرخت و
 لا على دنياكم أسفت و لكنني ذكرت بها النار الكبرى فكان الذي رأيتم من ذلك قال : فأمر
 بها فسملت عيناها فقالت اللهم قد طال في الدنيا حزني فأقر في الآخرة عيني ثم قالت :
 لئن كنت على بصيرة من أمري إن هذا لقليل في جنب ما أطلب من ثواب الله قال : فما
 تكلمت بغيرها حتى ماتت رحمها الله تعالى
 و كانت البلجاء من شيعة علي - رضي الله عنه - و كان قد بلغ الحسن بن علي أن ابن زياد
 يتتبع شيعة علي فيقتلهم فقال : اللهم اقله و أمته حتف أنفه و الإسناد : قال أبو العرب :
 حدثنا عبد الله بن الوليد عن جابر بن خدّاش بن عجلان ثنا سالم بن عمير عن سالم
 الهلالي فذكره
 و ليحذر العبد أيضا أن يدعو على نفسه فإن النبي صلى الله عليه و سلم قال لما مات أبو
 سلمة : [لاتدعوا على أنفسكم إلا بخير
] فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون
 و ليعلم أيضا أن البكاء يضر الحي و الميت فإن الحي يخاف على عينيه كما قال الله تعالى
 في قصة يعقوب - عليه السلام - : { و ابيضت عيناه من الحزن } و الميت لا يستريح به فقد
 ذكر الحافظ أبو شجاع شيرويه الديلمي بإسناده عن علي بن الحسين قال بينا داود
 الطائي جالسا مع أصحابه يوما إذ غفا و هو معهم ثم انتبه فقال : أتدرون ما رأيت في
 نومتي هذه ؟ دخلت الجنة فرأيت فيها صبيانا يلهمون بالتفاح يناول بعضهم بعضا و صبي
 ناحية عنهم جالس حزين يرى الانكسار عليه بينا فقلت : ما بال ذلك الصبي لا يلهمو معكم
 كما تلهمون ؟ قالوا : ذاك حديث عهد بالدنيا و أمه تكثر البكاء عليه فانكساره لكثرة بكاء أمه
 عليه قال : فقلت : أين منزلهم ؟ قالوا في قبيلة آل فلان قال : فقلت من أبواه ؟ قالوا :
 فلان و فلانة قلت : فما اسمه ؟ قالوا : فلان فقال داود لأصحابه : فانطلقوا قال : فانطلقوا
 فأتوا القبيلة فسألوا عن أبويه فلقبهما أو لقي أحدهما فقال لهما ما رأى في منامه فجعلت
 الأم على نفسها أن لا تبكي عليه أبدا

فصل - في البكاء و التأسف على من فرط في جانب الله تعالى

و البكاء و الأسف على من فرط في جنب الله أو من خلط عملا صالحا و آخر سيئا و هو داخل تحت المشيئة و عنده من الندامة كامثال الجبال و من الحسرات كعدد الرمال فإن الصحة لا يعرف مقدارها على الحقيقة إلا المرضى كما أن العافية لا يعرف مقدارها إلا المبتلى فكذلك الحياة لا يعرف مقدارها إلا الموتى لأنهم قد ظهرت لهم الأمور و انكشفت لهم الحقائق و علموا مقدار الأعمال الصالحة إذ ليس ينفق هنالك إلا عمل زكي و لا يرتفع هناك إلا عبد تقي فالمقسر يود لو أنه رد فاستدرك ما فات و نظر فيما فيه فرط و المهمل العمل بالجملة يكون تمنية الرجوع أكثر و حرصه على العودة أشد فالواجب اغتنام الصحة و الفراغ المغبون فيهما كثير الناس

و إنما يحصل للشخص الحزن و البكاء على ما أصيب به لذهوله عما بين يديه من سكرات الموت و غصه و الانفراد في القبر وحيدا ذليلا مستوحشا ثم مسائلة منكر و نكير عليهما السلام و طول مكثه تحت الثرى إما منعما و إما معذبا ثم من بعد ذلك خروجه من قبره و قيامه لرب العالمين ثم وقوفه الطويل في المحشر و ما يرى من أهوال يوم القيامة ثم حسابه بين يدي الله تعالى و وزن أعماله و تطاير الصحف و المحاسبة على مثاقيل الذر و أنه وجد ما عمل محصيا عليه محررا في كتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها و أنه بين رجاء و خوف إما لذات اليمين أو لذات الشمال فلو استشعر المصاب هذه المصائب العظيمة التي بين يديه و هو غافل عنها غير مستعد لها لشغلته عن مصابه بأحبابه و لرجع إلى الصبر و الرضا بما قدره و أمضاه فإن قدر على نفع نفع ميتة به و إلا فلا يؤذيه بما نهى الشرع عنه من الندب و النياحة و لطم الخدود و شق الجيوب و غير ذلك من الأفعال و الأقوال المكروهة التي ذمها السلف و الخلف كما سنبينه بعد إن شاء الله نسأل الله تعالى العافية في الدنيا و الآخرة

فصل - في أن الحزن لم يأمر به الله تعالى و لا رسوله صلى الله عليه و سلم

و الحزن لم يأمر الله تعالى به و لا رسوله لا في المصيبة و لا في غيرها بل قد نهى الله عنه في كتابه و إن تعلق بأمر الدين لكن منه محمود و مذموم كقوله تعالى : { و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الأعلون } و قوله : { و لا تحزن عليهم } و قوله تعالى في حق نبيه محمد صلى الله عليه و سلم و أبي بكر : { إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا } و قوله تعالى : { فلا يحزنك قولهم } و نحو ذلك من الآيات كثير في القرآن و ما ذاك إلا لأن الحزن لا يجلب منفعة و لا يدفع مضرة فلا فائدة فيه و ما لا فائدة فيه لا يأمر الله به لكن لا يَأثم به صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم - كما تقدم ذكره - من قول أو فعل كما قال النبي صلى الله عليه و سلم : [إن الله لا يؤاخذ بدمع العين و لا يحزن القلب و لكن يؤاخذ بهذا - وأشار بيده إلى لسانه - أو يرحم] فدل على أنه لا يَأثم إلا إذا اقترن به ما يجلب الإثم و يؤيده أيضا قوله [صلى الله عليه و سلم : [تدمع العين و يحزن القلب و لا نقول إلا ما يرضي الرب] قال مالك بن دينار : القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن البيت إذا لم يسكن خرب و قال عبد الله بن أحمد : حدثني علي بن مسلم ثنا بشار ثنا جعفر ثنا إبراهيم بن عيسى قال : ما رأيت أطول حزنا من الحسن و لما رأيت حسبته حديث عهد بمصيبة ثم ذكر بسنده عن مالك قال : بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك و منه قوله { تعالى : } و قال يا أسفى على يوسف و ابيضت عيناه من الحزن فكل هذه الأدلة تدل على أنه لا يَأثم به صاحبه فالبكاء و الحزن على الميت على وجه الرحمة و الرقة حسن و لا ينافي الرضا و الصبر بخلاف البكاء عليه لفوت حظ الحي منه فإذا اقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه و يحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن فالحزين على مصيبة في دينه و على مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من الخير و بغض الشر و توابع ذلك و لكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر و الجهاد و جلب منفعة و دفع مضرة نهى عنه و كان حسب صاحبه الإثم عنه من جهة الحزن و أما إن أفضى إلى ضعف القلب و اشتغاله به عن فعل ما أمر الله به و رسوله كان مذموما عليه من تلك الجهة إن كان محمودا من جهة أخرى فإنه إن كان المحزون عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن فالعقل يدفعه عن نفسه و لا يضم إلى مصيئته أخرى و ليعلم أنه سيسلو بعد حين و الله أعلم

الباب الثالث - في تحريم النذب و النياحة و شق الثياب

النذب : اسم للبكاء على الميت و تعداد محاسنه قاله الجوهري و الاسم النذبة بالضم و قيل تعداد شمائل الميت فيقال : و اكريماه و اجبلاه و الهفاه و النوح : قال القاضي عياض : هو اجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات و ذكر في المغني أنه تعداد محاسن الميت بلفظ النداء إلا أنه يكون بلفظ الواو و ربما زيد فيه الألف و الهاء مثل قولهم : وا رجلاه وا جبلاه وا انقطاع ظهرها و نحوه و قال غيره : قال أهل اللغة : النياحة : اسم لاجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات كما ذكر القاضي عياض و التناوح : التقابل ثم استعمل في صفة بكائهن

بصوت و رنة و ندبة

و اعلم - رحمك الله - أن المطلوب في المصيبة السكون و الصبر و الرضا بقضاء الله تعالى و الحمد و الاسترجاع و الصدقة عن المصاب به و الدعاء له و أما النذب و النياحة و شق الجيوب و لطم الخدود و قول المنكر كل هذا ينافي ما ذكر و قد نص الإمام أحمد - رحمه الله - على تحريم النذب و النياحة قال في رواية حنبل : النياحة معصية

و قال أصحاب الشافعي وغيرهم : النوح حرام

و قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال و لا للنساء و قال أبو الخطاب - رحمه الله - في الهداية : و يكره النذب و النياحة و خمش الوجوه و شق الجيوب و التحفي و هذا قول ضعيف مصادم لما ورد من السنة و ذكر الشيخ في المغني قال : حرب عن أحمد كلاما فيه احتمال إباحة النوح و النذب قال : و اختاره الخلال و صاحبه لأن واثلة بن الأسقع و أبا وائل كانا يسمعان النوح و بيكيان ثم قال : و ظاهر الأخبار تدل على التحريم انتهى كلامه

و استنادهم في ذلك لآثار مروية عن بعض الصحابة و السلف لا ترد ما ورد في الصحيح و المسانيد فإنهم قالوا : قد روى حرب عن واثلة بن الأسقع و أبي وائل : إنما كانا يسمعان النوح و بيكيان قالوا : و قد ورد في الصحيح من [حديث أم عطية قالت : لما أنزلت هذه الآية : { يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين } إلى قوله : { ولا يعصينك في معروف } كان منه النياحة فنهانا عن النياحة فقبطت امرأة منا يدها فقالت : فلانة أسعدتني وإنما أريد أن أجزئها قال : فما قال لها شيئا فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبائعها [وفي لفظ الصحيح] قالت أم عطية : يا رسول الله إلا

[آل فلان فإنهم أسعدوني في الجاهلية فلا بد لي أن أسعدهم فقال : إلا آل فلان
: و الجواب عن ذلك : أن المرأة التي سكت عنها ذلك خاص بها لوجهين
أحدهما : أنها حديثة عهد بالإسلام فرمما كان فيه تنفير لها عنه
[الثاني : أنه قال لغيرها لما سألته ذلك قال : [لا إسعاد في الإسلام
فإطلاقه لها و حجره على غيرها يدل على الخصوص و على الرواية الأولى : أن امرأة
قبضت يدها ولم تباع إلا بعد الإسعاد فلا إشكال وقد حكى بعض المبايعات القصة ولم
تستثن أحدا فما ورد في سنن أبي داود من حديث أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من
المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم في المعروف الذي
أخذ علينا أن لا نعصيه فيه : أن لا نخمش وجهها و لا ندعو ويلا و لا نشق جيبا و لا ننبش
شعرا

فصل - فيما ورد من تحريم ذلك و ما ورد من الوعيد عليه

عن [عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس منا من ضرب الخدود و شق الجيوب و دعا بدعوى الجاهلية] رواه البخاري و مسلم و عن أبي بردة عن أبي موسى قال : [وجع أبو موسى وجعا فغشي عليه و رأسه في حجر امرأة من أهله فأقبلت تصيح برنة فلم يستطع أن يرد عليها شيئا فلما أفاق قال : إني بريء ممن برئ منه محمد صلى الله عليه و سلم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم برئ من الصالقة و الحالقة و الشاقة] رواه البخاري و مسلم عن الحكم بن موسى إلا أن البخاري لم يذكر أنه حدثه به بل قال : قال الحكم بن موسى فهو عنده معلق قوله : الصالقة يعني التي ترفع صوتها عند المصيبة و الحالقة : التي تحلق شعرها و الشاقة التي تشق ثوبها

و عن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم عند البيعة أن لا نوح [فما وقت منا امرأة غير خمس نسوة أم سليم و أم العلاء و ابنة أبي سبرة امرأة معاذ و امرأتان أو ابنة أبي سبرة و امرأة معاذ و امرأة أخرى رواه البخاري و هذا لفظه و مسلم و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : أخذ النبي صلى الله عليه و سلم على [النساء حين بايعهن أن لا ينحن فقلن : يا رسول الله إن نساء أسعدنا في الجاهلية أفنسعدهن في الإسلام ؟ فقال : لا إسعاد في الإسلام] رواه الإمام أحمد و عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : أربع [في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب و الطعن في الأنساب و الاستسقاء بالنجوم و النياحة و قال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة و عليها سربال من قطران و درع من جرب] انفراد باخراجه مسلم

وفي حديث جابر في قصة إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه و سلم وقد تقدم و فيه : ألم [تنه عن البكاء ؟ قال : لا و لكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند مصيبة خمش وجه و شق

جيوب و رنة شيطان] الحديث رواه الترمذي

و كذلك تقدمت قصة قتل زيد بن حارثة و أصحابه [من حديث عائشة قالت : لما جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم قتل زيد بن حارثة و جعفر بن أبي طالب و عبد الله بن رواحة جلس رسول الله صلى الله عليه و سلم يعرف في وجهه الحزن قالت عائشة : و أنا أنظر من صائر الباب [شق الباب] فأتى رجل فقال : يا رسول الله إن نساء جعفر و ذكر بكاءهن

فأمره أن يذهب فينهاهن فذهب فأتاه فذكر أنهن لم يطغنه فأمره الثانية أن ينهاهن فذهب
ثم أتاه فقال : و الله لقد غلبنا يا رسول الله قالت : فزعمت أن رسول الله صلى الله عليه و
سلم قال : اذهب فاحث في أفواههن التراب قالت عائشة : فقلت : أرغم أنفك و الله ما
تفعل ما أمرك رسول الله صلى الله عليه و سلم و ما تركت رسول الله صلى الله عليه و
سلم من العناء [رواه البخاري و مسلم و هذا لفظه
وعن عبيد بن عمير عن أم سلمة قالت : لما مات أبو سلمة قلت : غريب و في أرض [
غريبة لأبكيه بكاء يتحدث عنه فكنت قد تهيات للبكاء عليه إذا أقبلت امرأة من الصعيد تريد
أن تسعدني فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال : أتريدين أن يدخل
الشیطان بيتا أخرجه الله منه مرتين ؟ [فكففت عن البكاء فلم أبك انفرده بإخراجه مسلم
وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : النياحة [
على الميت من أمر الجاهلية فإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت فإنها تبعث يوم القيامة
عليها سربال من قطران ثم يعلى عليها بدرع من لهب النار [رواه ابن ماجة من رواية عمر
بن راشد اليمامي و قد ضعفه غير واحد و قد روي في صحيح مسلم بأتم من هذا وأبين
وعن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لعن الخامشة وجهها و الشاقة [
ثوبها و الداعية بالويل و الثبور [رواه ابن ماجة و الثبور : الهلاك ومنه قوله تعالى : { دعوا
هنالك ثورا } أي صاحوا : و ا هلاكاه
و عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم [
النائحة و المستمعة [رواه أبو داود من رواية عطية العوفي و قد تكلم فيه

فصل - فيما ورد من عذاب الميت بالنياحة

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الميت [يعذب في قبره بما نوح عليه] و في رواية : [يعذب بما نوح عليه] و لم يذكر في قبره رواه البخاري و مسلم

و عن المغيرة بن شعبة قال : بعث النبي صلى الله عليه و سلم يقول : إنه من ينح عليه [يعذب بما نوح عليه] رواه البخاري و مسلم

وعن أسيد بن أبي أسيد عن موسى بن أبي موسى عن أبيه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الميت يعذب ببكاء الحي إذا قالت النائحة : وا عضداه ! وا ناصراه ! وا كاسباه ! جذب الميت وقيل له : أنت عضدها ؟ أنت ناصرها ؟ أنت كاسبها ؟ [فقلت : سبحان الله ! يقول الله تعالى : { و لا تزر وازرة وزر أخرى } فقال : أحدثك عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و تقول هذا فأينا كذب ؟ فو الله ما كذبت على أبي موسى و لا كذب أبو موسى على رسول الله صلى الله عليه و سلم رواه الإمام أحمد

و عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن كذبا علي ليس ككذب على أحد من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار [سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [من ينح عليه يعذب بما نوح عليه] رواه البخاري وهذا لفظه و مسلم

و عن النعمان بن بشير قال : أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي و تقول : وا جبلاه و كذا و كذا تعدد عليه فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا و قد قيل لي : أنت كذلك ؟ ! فلما مات لم تبك عليه رواه البخاري

وروى الترمذي في جامعه [عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول وا جبلاه و سيداه أو نحو ذلك إلا و كل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت ؟] قال الترمذي : حديث حسن غريب قوله : [يلهزانه] اللهز : الدفع بجميع اليد في الصدر

فصل - في أن البكاء لا ينفع الميت بل ينفعه العمل الصالح

و ليعلم أن البكاء المجرد ليس فيه منفعة للميت البتة و إنما ينفعه عمله كما في صحيح البخاري و مسلم من حديث [أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يتبع الميت ثلاث أهله و ماله و عمله فيرجع اثنان و يبقى واحد : يرجع [أهله و ماله و يبقى عمله و في الصحيح :] إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده أو ولد صالح يدعو له [فلا منفعة للميت بالبكاء و الانزعاج قال أبو الفرج بن الجوزي : أما بعد فإنني رأيت عموم الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجا يزيد عن الحد كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت ! و هل ينتظر الصحيح إلا السقم ؟ و الكبير إلا الهرم ؟ و الموجود سوى العدم ؟ ! كما قيل ... على ذا مضى الناس اجتماع و فرقة) (و ميت و مولود و بشر و أحزان و ما أحسن ما روي عن بعض السلف أن رجلا جاءه و هو يأكل طعاما فقال له : لقد مات أخوك أعظم الله أجرك فيه فقال : اقعد و كل فقد علمت ذلك فقال : من أعلمك و ما } سبقني إليك أحد ؟ قال : قوله تعالى : { كل نفس ذائقة الموت ثم قال : و لعمرى إن أصل الانزعاج لا ينكر إذ الطبع مجبول على الجزع من حلول المنايا و إنما ينكر الإفراط فيه و التكليف كمن يخرق ثيابه و يلبس الثياب المرذولة عند موت قريبه و يلطم وجهه و يعترض على القدر و هذا و مثله و أكثر منه لا يرد فائتا لكنه يدل على خور الجازع و يوجب العقوبة مع ما يفوته من الأجر و الثواب قال بعض الحكماء : إذا كان الصبر محمودا عند المصائب و مرغوبا فيه عند حلول النوائب فالجزع مذموم بكل مقال و صاحبه ملوم في كل حال فتعجل المحمود عند العقلاء أحسن و تجنب المذموم من الخصال أزين

فصل - في بيان أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد

و في بعض ما تقدم من أحاديث النهي هذه كفاية لمن تدبرها وكيف لا تكون هذه الخصال القبيحة منها عنها وهي مشتملة على التسخط على الرب عز وجل الفعال لما يشاء الحكم بما يريد المتصرف في عبده بما يختار من موت و غرق و حرق و غير ذلك مما قضاه و قدره و أمضاه لا يسأل عما يفعل و هم يسألون ؟ ! بل فعل النوح و شق الثياب و لطم الخدود و خمش الوجوه و نبش الشعر و نتفه و التحفي و تسويد الوجه و البدن و الدعاء بالويل و الثبور و غير ذلك من الأقوال و الأفعال المنكرة التي ورد الشرع بالنهي عنها و ذم فاعلها و أن فاعلها شرع في الدين ما لم يأذن به الله و لا رسوله هو مناف للرضا و الصبر و يضر بالنفس و البدن و لا يرد من قضاء الله و قدره شيئا و قد بلغني عن أناس أعرفهم أصيبوا بمصيبة أزعجوا أنفسهم لأجل مصابهم ببعض ما ذكر فأورثهم ذلك مرض و حمى فإذا استسلم المصاب و انقاد و وكل الأمر لمن بيده الخلق و الأمر و علم أن سعادة العباد في معاشهم و معادهم باتباع الرسل فتبع الرسول صلى الله عليه و سلم فيما أمره به و فيما نهاه عنه و كان مما جاء به تحريم هذه الأفعال و الأقوال المنكرة التي تقدم ذكرها : بل [العين تدمع و القلب يحزن و لا نقول ما يسخط ربنا] فإذا سمع المصاب ذلك فأطاع و انقاد حصلت له السعادة الأبدية باتباعه الرسول في أقواله و الآيات { أفعاله لقوله تعالى : } و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا

فصل - فيما يفعله الإنسان إذا أحس بدنو أجله

و الذي ينبغي أولا لمن غاب على الظن أنه يصاب بالموت في مرضه أن يعامل بأحسن المعاملات بما ينفعه في قبره و يوم معاده فيذكره الآخرة و يأمره بالوصية و التوبة و يلقنه شهادة أن لا إله إلا الله لتكون آخر كلامه

و يكون قبل ذلك قد نهى من لطم الخدود و شق الثياب و تمزيقها و نتف الشعر و رفع الصوت بالندب و النياحة و غير ذلك من قول و فعل منكر و يكون مع ذلك في هذه الحالة رجاءه بالله أكثر من خوفه و هو كثير الحمد و الاسترجاع و الرضا عن الله عز و جل و قد روى ابن أبي الدنيا بإسناده [عن محمد بن مسلمة قال : بلغني أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله أوصني و لا تكثر علي قال : لا تتهم الله عز و جل في شيء قضاه لك] و روى أيضا بإسناده [قال لعائشة - رضي الله عنها - : ما كان أكثر كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم في بيته إذا خلا ؟ قالت : كان أكثر] كلامه إذا خلا في بيته : ما يقضى من أمر يكن

فهذا رسول رب العالمين يقول هذه المقالة و هو أعرف الخلق و أعلمهم بالله فإذا وطن العبد نفسه على أن ما يقضى من أمر يكن لا محالة فإتعب النفس و البدن في ما لا يجدي شيئا ليس من حصافة العقل و يعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر فالبناء إلى نقض و الجميع إلى تفريق و من رام بقاء ما لا يبقى كان كمن رام وجود ما لا يوجد فلا ينبغي أن يطلب من الدنيا ما لم توضع له

فصل - في قول النبي صلى الله عليه و سلم : إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه و أما قوله صلى الله عليه و سلم : [إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه] و [إن الميت يعذب بالنياحة عليه] وقد تقدمت هذه الأحاديث فاختلف السلف و الخلف في ذلك فقالت طائفة : الله يتصرف في خلقه بما يشاء و أفعال الله لا تعلق و لا فرق بين التعذيب بالنوح عليه و التعذيب بما هو منسوب إليه لأن الله تعالى خالق الجميع و الله تعالى يؤلم الأطفال و البهائم و المجانين بغير عمل عملوه و قالت طائفة اخرى : هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و قد أنكرتها عائشة - رضي الله عنها - و احتجت بقوله تعالى : { و لا تزر وازرة وزر اخرى } ثم أحاديث لم تذكرها بعد و هي مما استدلت بها عائشة رضي الله عنها و منها [عن عروة قال : ذكر عند عائشة أن ابن عمر - رضي الله عنهما - يرفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه و سلم : إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله فقالت : ذهل إنما قال النبي صلى الله عليه و سلم : إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه و إن أهله ليبكون عليه الآن] و ذلك مثل قول النبي صلى الله عليه و سلم [قام على القليب يوم بدر وفيه قتلى بعض المشركين فقال ما قال : إنهم ليسمعون ما أ قول وقد ذهل إنما قال : إنهم ليعلمون أن ما كنت أقوله لهم حق ثم قرأ : { إنك لا تسمع الموتى } { و ما أنت بمسمع من في القبور } يقول : تبوؤوا مقاعدهم من النار] رواه البخاري و مسلم و هذا لفظه هكذا ساقه بطوله الحافظ الضياء

و عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال : توفيت بنت لعثمان بمكة و جئنا لنشهدها [و حضر ابن عمر و ابن عباس إني لجالس بينهما أو قال : جلست إلى أحدهما ثم جاء الأخير فجلس إلى جنبي فقال عبد الله بن عمر لابن عباس : ألا تنهى عن البكاء فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ! فقال ابن عباس : قد كان عمر يقول بعض ذلك ثم حدث قال : صدرت مع عمر من مكة حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب حتى إذا ظل سمرة قال : اذهب فانظر من هؤلاء الركب ؟ فنظرت فإذا صهيب فأخبرته فقال : ادعه لي فرجعت إلى صهيب فقلت له : ارتحل فالحق أمير المؤمنين فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول : وا أخاه وا صاحباه فقال عمر : يا صهيب أتبكي علي و قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه ؟ ! قال ابن عباس : فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت : يرحم الله عمر و الله ما حدث رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه و لكن رسول الله

صلى الله عليه و سلم قال : إن الله ليزيد الكافر عذابا بيبكاء أهله عليه و قالت : حسبكم القرآن : { و لا تزر وازرة وزر أخرى } قال ابن عباس - رضي الله عنهما - عند ذلك : { و أنه هو أضحك و أبكى } قال ابن ملكية : و الله ما قال ابن عمر شيئا [رواه البخاري و هذا لفظه و مسلم

و في صحيح البخاري و مسلم] أن عائشة - رضي الله عنها - ذكر لها أن عمر و ابنه عبد الله يقول : إن الميت ليعذب بيبكاء الحي قالت إنكم لتحدثوني عن غير كاذبين و لا متهمين و لكن السمع يخطيء و في لفظ قالت : يغفر الله لأبي عبد الرحمن أما إنه لم يكذب و لكنة نسي و أخطأ إنما مر رسول الله صلى الله عليه و سلم على يهودية يبكي عليها فقال : [إنهم ليبكون عليها و إنها لتعذب في قبرها

و قالت طائفة أخرى : قوله : إن الميت ليعذب بنوح أهله محمول على من أوصى به أو كانت من عاداتهم ذلك ولم ينههم يعني يوصي قبل موته أن لا يحدثوا قولا و لا فعلا منكرا و هذا كان مشهورا عند العرب و هو كثير في أشعارهم كقول طرفة : إذا مت فانعني بما أنا أهله)

(و شقي علي الجيب يا ابنة معبد ...)

: و قال لبيد

... فقوموا فقولوا بالذي قد علمتما)

(و لا تخمشا وجهها و لا تحلقا شعر

وقولا : هو المرء الذي لا حليفه)

(أضع و لا خان الصديق و لا غدر ...)

و قالت طائفة أخرى : و هو محمول على سنته و سنة قومه البكاء و النوح و قد اشتهر أن هذا معروف منهم فإذا لم ينههم دخل في الوعيد لأن ترك نهيه عن البكاء دليل على رضائه به منهم و هذا قول عبد الله بن المبارك و هذا القول و الذي قبله هو قول واحد و قد حكى بعض أهل العلم : أن هذين القولين متباينان و لم يظهر لي ذلك و الله أعلم

و قال أبو البركات ابن تيمية - رحمه الله - : هذا القول هو أصح الأقوال كلها و أرجحها لأنه إذا غلب على ظنه فعلهم له و لم يوصهم بتركه فقد رضي به و صار كمن ترك النهي عن

المنكر مع القدرة عليه فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك

و قال العلامة ابن المقيم - رحمه الله - : و قد حصل بهذا القول إجراء الخبر على عمومته في

أكثر الموارد و إنكار عائشة - رضي الله عنها - لذلك بعد رواية الثقات لا يعول عليه فإنهم قد

يحضرون ما لا تحضره و يشهدون ما تغيب عنه و احتمال السهو و الغلط بعيد جدا خصوصا

بحق خمسة من أكابر الصحابة و قد تقدم ذكره عن أكثر من خمسة من الصحابة

و قوله في اليهود لا يمنع أن يكون قد قال مارواه عن هؤلاء الصحابة في أوقات آخر ثم هي
محجوجة بروايتها عنه أنه قال : [إن الله يزيد الكافر عذابا بيبكاء أهله عليه] فإذا لم يمتنع
زيادة الكافر عذابا بفعل غيره مع كونه مخالفا لظاهر الآية لم يمتنع ذلك في حق المسلم
إن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر و الله تعالى أعلم

فصل - في أن ما أورده من الأحاديث لا يخالف قواعد الشرع

و اعلم - رحمك الله - أن هذه الحاديث لا تحتاج إلى شيء من هذه التعسفات و ليس فيها بحمد الله إشكال و لا مخالفة لظاهر القرآن و لا لقاعدة من قواعد الشرع و لا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره فإن النبي صلى الله عليه و سلم لم يقل : إن الميت ليعاقب ببكاء أهله عليه أو بنوح أهله عليه و إنما قال : إنه ليعذب بذلك و لا ريب أن ذلك يؤلمه و يعذبه و العذاب هو الألم الذي يحصل له و هو أعم من العقاب و الأعم لا يستلزم الأخص و قد [قال النبي صلى الله عليه و سلم : السفر قطعة من العذاب] و هذا العذاب يحصل للمؤمن و الكافر و يحصل للميت الألم في قبره بمجاورة أهل البدع و الفسق و العصيان و يتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره و نص الإمام أحمد على أن الموتى يتأذون بفعل المصيبة عندهم فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم من لطم الخدود و تمزق الثياب و خممش الوجوه و تسويدها و قطع الشعر و نتفه و دعا بدعوى الجاهلية و كل هذا موجود في غالب جهال أهل زماننا فإذا وجدت هذه الأفعال و الأقوال على هذا الوجه حصل للميت الألم في قبره بذلك فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه و هذا معنى ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية

فصل - في وسوسة الشيطان للمريض ولأقاربه و أهله

قد يستحوذ الشيطان على المريض فيوسوس له بأنك ستفارق المحبوبات و تخرج من الدنيا إلى مكان فظيع موحش و تلقى بين أطباق الثرى و كيف يؤلمك ؟ ! فربما أسخطه على ربه و كرهه لقاء الله عز و جل و ربما أنطقه بكلام يتضمن نوع إعراض و تسخط ثم يوسوس لأقاربه بأنه لا بد أن يفوتكم من بره و إحسانه ما يزيد عن الوصف أو أنه كان قد نشأ منشأ حسنا و قد بدأ يترقى إلى المناصب العالية فيهبج هؤلاء على البكاء المحرم و فعل ما لا يجوز فعله و يهبج المريض على الحزن على فراق الدنيا

فينبغي لكلا الطائفتين أن يتداويا بالأدوية الشرعية و قد تقدم في الباب الأول ما فيه كفاية : من الأدوية الإلهية فلا حاجة إلى تكرارها و لكن يجاب عن هذا بجوابين

أحدهما : أن الأغلب فيمن يفارقه أنه يؤثر فراقه خصوصا إن كان شيخا كبيرا أو أنه شاب أو كهل يحجر على من ذكرته من قرابة أو ولد و نحوه أو له خلق شديد و أخص منه إن كان ذا مال و قد رأيت في زماننا من كان من أصحاب الأموال و هو محسن لأهله و أقاربه فمرض فأوصى بوصايا لأقاربه لمن ليس بوارث في الحال فلما مات خلف مالا جزيلا فاشتغل الوارث و غيره بالمال عن الحزن عليه فأخذوا في الخصام عليه و تفرقته فهذا و هو محسن إليهم بماله و ما أخذه فهو سريع الذهاب و أما بره إليهم لو بقي حصل لهم أضعاف ذلك فلا ينبغي للعبد أن يحزن لفراق من لا يحزن لفراقه

و ذكر أبو القاسم بن عساكر قال : أنشدني محمد بن الأشعث لنفسه في ذم الحزن من حيث هو :

قلم القضاء جرى بكل مكون (

) ! يا صاحب الأحزان ماذا تحزن ...

إن كان سخطك ليس يجلب راحة (

) فرضاك بالبلوى أحق و أحسن ...

و الثاني الرجاء لملاقة من هو أحب إليه منه و ما من مؤمن يموت فيؤثر الرجوع إلى الدنيا و لو أنها جميعها له إلا الشهيد فإنه يحب الرجوع ليقاتل مرة أخرى لما يرى من عظم أجر الشهادة كما سيأتي ذكره بعد [و قد روى الإمام أحمد في مسنده أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما من نفس مؤمنة مسلمة يقبضها ربها عز و جل تحب أن تعود إليكم و [أن لها الدنيا و ما فيها

فصل - فيما ذكر في النعي و المناداة على الميت

و هو إعلام الناس بموت الشخص على ما يفعله أهل زماننا بالكبير أو بالمشهور و يرسلون مناديا يعلم الناس به قال العلامة ابن القيم في الهدى : [و كان من هديه صلى الله عليه و سلم ترك نعي الميت بل كان ينهى عنه و يقول : و هو من عمل الجاهلية] انتهى كلامه و قال الحافظ ضياء الدين رحمه الله في أحكامه : باب كراهة النعي و ساق في الباب ثلاثة أحاديث منها : [عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إياكم و النعي فإن النعي من عمل الجاهلية قال عبد الله : أذان بالميت] رواه الترمذي و قال حديث حسن غريب

وعن حذيفة قال : إذا مت فلا تؤذنوا بي أحدا إنني أخاف أن يكون نعيًا فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم ينهى عن النعي [رواه الإمام أحمد و ابن ماجة و الترمذي وهذا لفظه و حسنه

و عند ابن ماجة : كان حذيفة إذا مات له الميت قال : لا تؤذنوا به أحدا إنني أخاف أن يكون نعيًا فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم بأذني هاتين ينهى عن النعي] و روى أحمد أيضا هذه الزيادة كما رواها ابن ماجة و لكن لم يقل بأذني هاتين و قال سعيد بن منصور : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أخبرنا ابن عون قال : قلت لإبراهيم : أكان النعي يكره ؟ قال : نعم : قال إبراهيم : إذا توفي الرجل يركب رجل دابته ثم صاح في الناس : أنعى فلانا

و بإسناده إلى ابن عون قال : سمعت بالكوفة أن شريحا كان لا يؤذن بجزاة أحد فذكرت ذلك لمحمد بن سيرين فقال : إن شريحا كان مكيا ما أعلم به بأسا أن يؤذن الرجل صديقه و يؤذن الرجل جمعه

و ذكر بإسناده حدثنا حماد عن إبراهيم أنه قال : لا بأس إذا مات الرجل أن يؤذن صديقه و أصحابه إنما يكره أن يكون في المجلس فيقال : أنعى فلانا فعل الجاهلية و قد روى الترمذي [عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ما من ميت يموت فيقوم باكيها فيقول : وا جبلاه وا سنداه أو نحو ذلك إلا وكل الله به ملكان يلهزانه أهكذا كنت ؟] قال الترمذي : حديث حسن

و المقصود أن هذه الأحاديث دالة على النهي و أنه من فعل الجاهلية لكن الأحاديث التي ذكرناها منها ما يدل على أن النعي إعلام الناس بأن فلانا قد مات و منها ما يدل على أن النعي هو تعداد صفات الميت فالظاهر أن كلاهما نعي و الله أعلم

و ما يفعله الناس اليوم في زماننا من إعلام الناس بالميت و المناداة له فهو من البدع المنهي عنها كما ورد في الحديث فإنه مفض إلى تأخير الميت لأجل اجتماع الناس له تأخيرا زائدا عن الحد و يتركون السنة التي من شأنها الإسراع بالجنزة كما [ثبت في سنن أبو داود : أن أبا طلحة بن البراء مرض فأتاه النبي صلى الله عليه و سلم يعوده فقال : إني أرى طلحة قد حدث فيه الموت فأذنوني به و عجلوا فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن [تحبس بين ظهراني أهله

و إن كان المراد النعي الذي هو تعداد صفات الميت فيقال : الذي ينبغي أن يقال : لا بأس بالكلمات اليسيرة إذا كانت صدقا لا على وجه النوح و التسخط فلا يحرم و لا ينافي الصبر و لا يكون من المنهي عنه بل قد نص الإمام أحمد - رحمه الله - أن الكلمات اليسيرة من الصدق لا تنافي الصبر الواجب يؤيد ذلك ما ثبت في صحيح البخاري [من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه و سلم جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة : وا كرب أبتاه فقال : ليس على أبيك كرب بعد اليوم فلما مات قالت : يا أبتاه أجب ربا دعاه يا أبتاه جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل أنعاه فلما دفن رسول الله صلى الله عليه و سلم قالت فاطمة : أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله [صلى الله عليه و سلم ؟

و عن أنس أيضا أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - دخل على النبي صلى الله عليه و سلم بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه و وضع يده على صدغيه و قال : وا نبياه وا خليلاه وا صفياه [رواه الإمام أحمد

و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم نعى النجاشي [في اليوم الذي مات فيه و خرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات [رواه البخاري و مسلم و في لفظ لهما قال : [استغفروا لأخيكم

[و قد تقدم قول النبي صلى الله عليه و سلم : [وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون و هذا و نحوه من الأقاويل التي تقدمت ليس تسخط على الرب تبارك و تعالى بما قضاه و قدره و لا ينافي الصبر الواجب و لا يآثم به قائله و الله أعلم

الباب الرابع - فيمن أصيب بفقد ثلاثة من الولد فأكثر و البشارة له بذلك

{ قال البخاري : باب فضل من مات له ولد فاحتسب و قوله تعالى : { وبشر الصابرين حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث ثنا عبد العزيز عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال [رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مسلم من الناس يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم] و رواه مسلم من وجه آخر عن أنس قوله : [لم يبلغوا الحنث] أي لم يبلغوا سن التكليف الذي يكتب فيه الحنث و روى البخاري من حديث [سعيد بن المسيب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم] و رواه مسلم من هذه الطريق أيضا قال العلماء : تحلة القسم ما ينحل به القسم وهو اليمين وجاء مفسرا في الحديث أن المراد به قوله تعالى { و إن منكم إلا واردة } و بهذا قال أبو عبيد و جمهور من العلماء و القسم مقدر أي : و الله إن منكم إلا واردة و قيل : المراد قوله تعالى : { فوريك } لنحشرنهم و الشياطين }

وقال ابن قتيبة : معناه تقليل مدة ورودها قال : و تحلة القسم في هذا في كلام العرب و قيل تقديره : و لا تحلة القسم أي لا تحلة أصلا ولا قدرا يسيرا تحلة القسم و المراد بقوله تعالى : { و إن منكم إلا واردة } : المرور على الصراط و هو على جهنم و قيل الوقوف عندها أعاذنا الله و إياكم منها

و روى مسلم أيضا هذا الحديث معنى تحلة القسم عن أبي بكر بن أبي شيبة و عمرو الناقد و زهير بن حرب ثلاثتهم عن سفيان بن عيينة به و رواه أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهري به و رواه أيضا [حدثنا يحيى بن يحيى قرأت على مالك عن شهاب عن ابن المسيب عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم] و رواه الترمذي من حديث مالك به و قال : حسن صحيح قال الترمذي : و في الباب : عن معاذ و عمر و كعب بن مالك و عتبة بن عبيد و أم سليم و عائشة و أنس و أبي ذر و ابن مسعود و أبي ثعلبة الأشجعي و ابن عباس و عتبة بن عامر و أبي سعد و قرّة بن إياس

و قال الإمام أحمد : [حدثنا إسحاق أخبرنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله الجنة و آباءهم بفضل رحمته قال : يقال لهم ادخلوا الجنة قال : يقولون حتى يجيء أبوانا قال : ثلاث مرات فيقولون مثل ذلك قال : فيقال

[لهم : ادخلوا الجنة أنتم و آبؤكم

و روى البخاري من [حديث ذكوان عن أبي سعيد أن النساء قلن للنبي صلى الله عليه و سلم : اجعل لنا منك يوما فوعظهن و قال : أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كن لها حجابا من النار قالت امرأة : و اثنان قال : و اثنان] و قال شريك [عن ابن الأصبهاني : ثنا أبو صالح عن أبي سعيد و أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال أبو هريرة : لم يبلغوا الحنث] و قد روى الحديث محمد بن سيرين و أبو رزين و أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة

و أخرج مسلم [حديث أبي سعيد من حديث شعبة به و عنده : فقالت امرأة : و اثنان و اثنان و اثنان يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و اثنان و اثنان و اثنان] و هذا الذي علقه البخاري عن شريك عن ابن الأصبهاني قد رواه هو و مسلم من [حديث غندر عن شعبة عن ابن الأصبهاني عن أبي حازم عن أبي هريرة و قال فيه : لم يبلغوا الحنث] و قال عثمان بن إبراهيم المؤذن : [حدثنا عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله و أبويهم الجنة قال : يكونون على باب من أبواب الجنة فيقال : ادخلوا الجنة أنتم و آبؤكم] و رواه النسائي من حديث إسحاق بن يوسف الأزرق عن عوف الأعرابي

و روى مسلم في صحيحه [عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لنسوة من الأنصار : لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحبسبه إلا دخلت الجنة] فقالت امرأة منهن : أو اثنان يا رسول الله ؟ قال : أو اثنان و روى الإمام أحمد في مسنده [عن أبي وائل عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خطب النساء فقال : ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة إلا أدخلها الله الجنة فقالت أجلهن امرأة : يا رسول الله و صاحبة الاثنان ؟ فقال : و صاحبة الاثنان في الجنة]

و روى أحمد أيضا [من حديث أم سليم بنت ملحان و هي أم أنس بن مالك قالت : قال رسول الله : ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله الجنة] بفضل رحمته قالها ثلاثا : قلت : يا رسول الله و اثنان ؟ قال : و اثنان و روى المثنى [عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب عن أم مبشر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من هلك له ثلاثة من الولد فصر و احتسب أدخل الجنة فقلت] : يا رسول الله و اثنان ؟ ! قال : و اثنان

و روى مسلم في صحيحه [من حديث طلق بن معاوية عن أبي زرعة عن أبي هريرة -

رضي الله عنه - قال : أتت امرأة بصبي لها فقالت : يا نبي الله ادع الله فلقد دفنت ثلاثة [فقال دفنت ثلاثة ؟ قالت نعم قال : لقد احتظرت بحظار شديد من النار]

وقال البخاري في تاريخه قال علي بن هاشم : [حدثني نصر بن عمر بن يزيد بن قبيصة قال : حدثني أبي عن قبيصة بن برمة قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم جالسا إذ أتته امرأة فقالت : يا رسول الله ادع الله لي فإنه ليس يعيش لي ولد قال : وكم مات لك] ؟ قالت ثلاثة قال : لقد احتظرت من النار بحظار شديد

وقال سعيد بن منصور : [حدثنا عبيد بن زياد ثنا أبي عن زهير ابن أبي علقمة قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابن لها مات و كان القوم عنفوها فقالت : يا رسول الله قد مات لي ابنان منذ دخلت في الإسلام سوى هذا قال : لقد احتظرت من النار حظارا شديدا] قال جماعة من الحفاظ : إسناده صحيح لكن لا صحبة لزهير هذا فيكون مرسلا

أما قوله صلى الله عليه وسلم : لقد احتظرت بحظار شديد من النار [أي امتنعت بمانع] وثيق وأصل الحظر : المنع وأصل الحظار بكسر الحاء وفتحها : ما يجعل حول البستان وغيره من القبضان وغيرها كالحائط

وفي هذه الأحاديث دليل على كون أطفال المسلمين في الجنة وقد نقل جماعة من العلماء إجماع المسلمين على ذلك

قال الماوردي : أما أولاد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فالإجماع محقق في الأطفال على أنهم بالجنة وأما أطفال من سواهم من المسلمين فجماهير العلماء على القطع لهم بالجنة قالوا : ويدل عليه قوله تعالى : { والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم } وتوقف بعض المتكلمين منهم وأشار أنه لا يقطع لهم كالمكلفين وهو خطأ ولكنهم مستندون إلى [حديث عائشة - رضي الله عنها - في الصحيح : توفي صبي من الأنصار فقالت عائشة : طوبى له عصفور من عصفير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال : أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم و خلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم] وفي الحديث الآخر : [إن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم القيامة كافرا] أجاب العلماء عن ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم : إنما نهى عائشة عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبي وقاص في قوله : أعطه إني لأراه مؤمنا قال : أو مسلما قال النووي : رحمه الله في شرح مسلم : فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم قال ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : [مامن مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم] و

غير ذلك انتهى كلامه

وقد تقدم عدة من الأحاديث تدل على ذلك كما سيأتي ما هو أتم من ذلك و أبين و ما ورد من الأحاديث في الثلاثة من الولد ثم سئل عن الاثنين فقال : و اثنين فمحمول على أنه أوحى إليه عند سؤال الاثنين و كذلك عند سؤال الواحد في بعض الألفاظ و الله تعالى أعلم و روى الإمام أحمد بإسناده [عن شرحبيل بن شفعة قال : سمعت عتبة بن عبد السلمي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما من رجل مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل] رواه ابن ماجة من حديث جرير بن عثمان الحمصي به

و روى أحمد [من حديث المغيرة ثنا جرير ثنا شرحبيل بن شفعة عن بعض الصحابة أنه سمع النبي صلى الله عليه و سلم يقول : يقال للولدان يوم القيامة ادخلوا الجنة فيقولون : ربنا حتى يدخل أبؤنا و أمهاتنا قال : فيقول الله تعالى : ما لي أراكم محبطين ادخلوا الجنة أنتم و آبائكم]

و روى الإمام أحمد أيضا [عن يزيد بن هارون عن هشام عن ابن سيرين : بينا امرأة كانت تأتيها يقال لها مارية كانت ترزأ في ولدها فلقيت عبد الله بن معمر القرشي و معه رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم فحدث ذلك الرجل أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه و سلم فقالت : ادع الله أن يبقيه لي فقد مات لي قبله ثلاثة فقال : مذ أسلمت ؟ قالت : نعم فقال : جنة حصينة]

و روى أيضا منفردا به لكنه من [حديث ابن لهيعة عن أبي عشانة أنه سمع عقبة بن عامر يقول عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : من أكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم] على الله و حبت له الجنة

و روى أيضا في مسنده [من حديث صعصعة بن معاوية قال : أتينا أبا ذر قلت : مالك ؟ قال لي عملي قلت : حدثني قال : نعم ! قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة من أولادهما لم يبلغوا الحنث إلا غفر لهما] ورواه النسائي عن إسماعيل بن مسعود عن بشر ابن المفضل عن يونس بن عبيد عن الحسن عن صعصعة

و ثم طريق أخرى [عن أبي ذر حدثنا عبد الملك بن عمرو ثنا قرّة عن الحسن عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذر بالربذة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله ابتدره حبة الجنة و قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا حنثا إلا] أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم

فصل - فيمن أصيب بأربعة من الأولاد

قال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه : [حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي حدثني بشر بن المفضل عن داود بن أبي هند عن عبد الله بن قيس عن الحارث بن أقيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما من مسلمين يموت بينهما أربعة أولاد إلا أدخلهم الله الجنة قالوا : يا رسول الله و ثلاثة ؟ قال : و ثلاثة قالوا : يا رسول الله و اثنان ؟ قال و اثنان و إن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها و إن من أمتي لمن يدخل بشفاعته الجنة أكثر من بمصر] و روى ابن ماجه منه [و إن أمتي إلخ] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد

الرحيم بن سلمان عن داود بن أبي هند به

و روى داود بن أبي هند [عن عبد الله بن قيس الأسدي عن الحارث ابن أقيس قال : كنا عند أبي بردة ليلة فحدث ليلته عن النبي صلى الله عليه و سلم يقول : ما من مسلمين يموت لهما أربعة أفراط إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته قالوا : يا رسول الله و ثلاثة ؟ قال : و ثلاثة قالوا و اثنان ؟ ؟ قال : و اثنان] و ذكر تمام الحديث وقد ذكر بعضهم أنه رواه الإمام أحمد و لكني لم أراه

و روى النسائي [من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن بكير بن الأشج حدثني عمران بن نافع عن حفص بن عبيد الله عن جده أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة و روى الهيثم بن جميل [عن الأحوص عن عاصم الأحول عن أنس قال توفي للزبير ولد فأتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : يا رسول الله سخ أنفسنا عن أولادنا فقال : من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجابا من النار و روى عبدالحكيم بن منصور [عن يونس عن ابن سيرين عن عبيدة السلماني عن الزبير بن العوام عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من مات له ثلاثة من الأولاد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجابا من النار

و روى الإمام أحمد [من حديث لقمان بن عامر عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة قال : قلت له : حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم ليس فيه انتقاص و لا زيادة قال : سمعته يقول : من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم و من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة و من رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له بعدل رقبة و

من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار و من أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها] وكذا رواه عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن أنس عن أبي طيبة عن عمرو بن عبسة السلمي فذكر نحوه و رواه الوضين عن عطاء عن محفوظ بن علقمة عن أبي عائد عن عمرو بن عبسة به و قال عبد الرزاق : [سمعت هشام بن حسان عن ابن سيرين عن يزيد ابن أبي بكرة حدثني حبيبة - يعني بنت سهيل ويقال بنت أبي سفيان - أنها كانت عند عائشة - رضي الله عنها - فجاء النبي صلى الله عليه و سلم فقال : ما من مسلمين يموت لهم ثلاثة من الولد إلا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم] وكذا روى محمد بن عبد الله الأنصاري [عن أبان بن صمعة عن محمد بن سيرين عن يزيد بن أبي بكرة عن حبيبة أنها كانت في بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاء فجلس فقال : ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أطفال لم يبلغوا الحنث إلا جيء بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة فيقال : ادخلوا الجنة فيقولون : حتى يدخل آباؤنا قال ابن سيرين : فلا أدري في الثانية أو الثالثة فيقال : لهم ادخلوا أنتم و آباؤكم] فقالت عائشة : أسمعتم ؟ قالت : نعم و قال الترمذي : و روى [الأبار - قلت : هو أبو حفص اسمه عمر بن عبيد الرحمن - عن الأعمش عن زر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبي أبرى عن أبيه عن محمد بن وهب أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لامرأته : هل لك من فرط ؟ قالت ثلاثة قال : جنة حصينة]

و روى عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبه [عن يزيد بن الحكم عن عثمان بن أبي العاص أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لقد استجن بجنة حصينة من النار رجل سلف بين يديه ثلاثة من صلبه في الإسلام]

و عن أم ذر قالت : لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت فقال : أبشري ولا تبكي فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [لا يموت بين امرأتين مسلمتين ولدان أو ثلاثة فيصبران و يحتسبان فيريان النار أبدا] وقد مات لنا ثلاثة من الولد رواه الحافظ أبو موسى المدني

و قال مالك في الموطأ [عن محمد بن ابي بكر عن أبيه عن أبي النصر السلمي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة منهن : يا رسول الله أو اثنان قال : أو اثنان] قال أبو عمر بن عبد البر : هكذا رواه القعنبى ويحيى بن يحيى عن مالك و قال الآخرون : عن مالك باسناده عن أبي النصر قال : و هذا مجهول في الصحابة و التابعين انتهى كلامه قلت : كذا قال ابن عبد البر وليس بمجهول كما قال فإن مسلم رحمه الله قال : في كتاب

الكنى و الأسامي : أبو النضر عبد الأعلى بن هلال السلمى عن عرياض بن سارية و روى عنه عامر بن خصيف فهو تابعي

و روى إسماعيل بن يحيى التيمي [عن موسى الجهني عن مجاهد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال النبي صلى الله عليه و سلم : من قدم ثلاثة من ولده صابرا محتسبا [حجبوه - بإذن الله - من النار

و روى البخاري في تاريخه من طريق أبان بن صمغة [عن ابن سيرين حدثنا حبيبة خادمة عائشة أنها كانت في بيت عائشة قاعدة فدخل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : [ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أطفال إلا أدخلها الله الجنة

و في الأربعين لنصر بن عبد الرزاق : ذكر [عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إني رأيت البارحة عجا رأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة فجاءه و ضوءه فاستنقذه و رأيت رجلا من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه [و هو مقتطع من حديث طويل يأتي

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من [دفن من صلبه ثلاثة من الولد كنت أنا و هو في الجنة كهاتين [رواه بسنده الحافظ ابن عساكر

قلت : و هذه الأحاديث - على اختلاف ألفاظها و اتفاق معانيها غالبا و سيأتي بعد ذلك ما هو مثلها و ما هو أتم و أبين إن شاء الله - كلها تدل على أنها وقعت من النبي صلى الله عليه و سلم في مجالس متعددة و يدل على اهتمامه و اعتناؤه و رحمته و شففته بأمته إذ كل حديث من هذه الأحاديث فيه تسلية للأمة عن أولادها بل تدل بفحوى الخطاب على أن الشارع صلى الله عليه و سلم أراد تسلية الوالدين عن أولادهما بما أعد الله لهما من الثواب الجزيل على المصيبة و الصبر عليها فإن اتفق مع ذلك الرضى بها و كتمانها على الخلق و طلبها و تلقيها بالقبول كان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم

الباب الخامس : فيمن أصيب بفقد ولدين و الاحاديث الواردة فيه

قال مسلم في صحيحه : [حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه أبي السليل بن نغير عن أبي حسان - وهو خالد بن علان - قال : قلت لأبي هريرة - رضي الله عنه - : إنه قد مات لي ابنان فما أنت محدثي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم بحديث يطيب أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم قال : صغارهم دعاميص الجنة فيلقى أحدهم أباه - أو قال : أبويه - بثوبه - أو قال : بيده - كما أخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى - أو قال ينتهي - حتى يدخله و إياه الجنة] و رواه الإمام أحمد

أما قوله صلى الله عليه و سلم : صغارهم دعاميص الجنة [هو بالذال والعين والصاد] : المهملات وأحدهم دعموص بضم الدال أي صغار أهل الجنة قال الشاعر ... إذا التقى البحرين عم الدعمو)

(ص نفى أن يسبح أو يغوص

و أصل الدعموص : دويبة تكون في الماء لا تفارقه أي هذا الصغير في الجنة لا يفارقها و أما قوله : صنفة ثوبك هي بفتح الصاد وكسر النون وهي طرفه و يقال لها أيضا : صنيفة و أما قوله : فلا يتناهى - أو قال ينتهي - حتى يدخله الله و إياه الجنة [: يتناهى و] ينتهي بمعنى واحد أي لا يتركه و الله تعالى أعلم

و قال أبو يعلى الموصلي : [حدثنا أبو هشام الرفاعي ثنا ابن فضيل ثنا بشير بن مهاجر عن ابن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يأتي الأنصار و يعودهم و يسأل عنهم فبلغه أن امرأة من الأنصار مات ابن لها فجزعت عليه فأتاها فأمرها رسول الله صلى الله عليه و سلم بتقوى الله عز وجل و الصبر قالت : يا رسول الله إني امرأة رقوب لا ألد ولم يكن لي ولد غيره فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الرقوب التي يبقى ولدها ثم قال : ما من امرئ مسلم و لا امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة من الولد إلا أدخلها الله عز وجل الجنة فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بأبي أنت و أمي يا رسول الله و [اثنان ؟ قال : و اثنان

و رواه البزار في مسنده [عن أحمد بن عمر عن جعفر بن عون عن بشير بن المهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه به و عنده : فقالت : يا رسول الله كيف لا أجزع و أنا رقوب لا يعيش لي ولد ؟ ! فقال إنما الرقوب التي يعيش ولدها و عنده : فقال عمر و هو على يمين رسول الله صلى الله عليه و سلم : و اثنان ؟ قال و اثنان] و هو على شرط مسلم و قال الإمام أحمد : [ثنا عفان ثنا وهيب ثنا عبد الله بن عثمان عن مجاهد عن إبراهيم بن

الأشتر أن أبا ذر - رضي الله عنه - حضره الموت و هو بالربذة فبكت امرأته فقال : ما يبكيك ؟ قالت أبكي أنه لا يد لي بنعشك و ليس عندي ثوب يسع لك كفنا فقال : لا تبكي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم و أنا عنده في نفر يقول : ليموتن رجل منكم مسلم بغلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين و كل من كان في ذلك المجلس مات في جماعة و قرية ولم يبق منهم غيري و قد أصبحت بالغلاة أموت فراقبي الطريق فإنك سوف ترين ما أقول فإني - و الله - ما كذبت و لا كذبت قالت و أن ذلك و قد انقطع الحاج ؟ قال : راقبي الطريق فبينما هي كذلك إذ هي بقوم تجذبهم رواحلهم كأنهم الرخم فأقبل القوم حتى وقفوا عليها فقالوا : مالك ؟ قالت : امرؤ من المسلمين تكفونه و تؤجرون فيه قالوا : من هو ؟ قالت : أبو ذر ففدوه بأبائهم و أمهاتهم و وضعوا أسياطهم في نحورها يبتدرونه فقال : أبشروا أنتم النفر الذين قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيكم ما قال أبشروا سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما من امرأين مسلمين هلك بينهما ولدان أو ثلاثة فاحتسبا و صبوا فيريان النار أبدا ثم قال : قد أصبحت اليوم و حيث ترون و لو أن ثوبا من ثيابي يسعني لم أكفن إلا فيه فأنشدكم لا يكفني رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا فكل القوم كان قد نال من ذلك شيئا إلا فتى من الأنصار كان من القوم قال : أنا صاحبك ثوبان في عييتي من غزل أمني واحد ثوبي هذين اللذين علي قال : أنت صاحبي فكفني [تفرد به أحمد

و قال أحمد : [ثنا حماد بن مسعدة ثنا جريح عن أبي الزبير عن عمرو بن نبهان عن أبي ثعلبة الأشجعي قال : قلت : مات لي - يا رسول الله - ولدان في الإسلام فقال : من مات له ولدان في الإسلام أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهما] قال فلما كان بعد ذلك لقيني أبو هريرة فقال : أنت الذي قال لرسول الله صلى الله عليه و سلم في الولدين ما قال ؟ قلت : نعم قال : لأن يكون ما قاله لي أحب إلي مما غلقت عليه حمص و فلسطين و روى الإمام أحمد أيضا في مسنده [عن ابن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خطب النساء فقال لهن : ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة إلا أدخلها الله عز و جل الجنة فقالت : أجلهن امرأة يا رسول الله و صاحبة الاثنتين في الجنة] ؟ قال : و صاحبة الاثنتين في الجنة

و عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت : يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله قال اجتمعن في يوم كذا و كذا فاجتمعن فأتاهن رسول الله صلى الله عليه و سلم يعلمهن مما علمه الله ثم قال : ما منكن من امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كانوا لها حجابا من النار فقالت امرأة : و اثنتين و اثنتين و اثنتين ؟ فقال رسول

الله صلى الله عليه و سلم : و اثنين و اثنين و اثنين [رواه البخاري و مسلم و لفظه
لمسلم

وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : أوجب [
الثلاثة قال معاذ : و ذو الاثنين يا رسول الله قال : و ذو الاثنين [رواه الإمام أحمد
عن ذكوان بن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : أن النساء قلن : غلبنا عليك الرجال [
- يا رسول الله - فاجعل لنا يوماً نأتيك فيه فواعدهن ميعادا فأمرهن و وعظهن و قال : ما
منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار فقالت امرأة : و اثنين فإنه
مات لي اثنان فقال : رسول الله صلى الله عليه و سلم : و اثنين [هذا لفظ البخاري و قد
تقدم لفظ مسلم و رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة و ابن مسعود و قد تقدم

الباب السادس - فيمن أصيب بفقد ولد واحد

قال الإمام أحمد : [حدثنا يحيى بن اسحاق ثنا حماد بن مسلم عن أبي سنان قال : دفنت ابنا لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة فأخرجني فقال : ألا أبشرك ؟ قال : قلت : بلى قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : قال الله عز و جل : يا ملك الموت قبضت ولد عبدي ؟ قبضت قرّة عينه و ثمرة فؤاده ؟ قال : نعم قال : فما قال ؟ قال : حمدك و استرجع قال : ابنوا له بيتا في الجنة و سموه بيت الحمد] و هكذا رواه الترمذي عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن أبي سنان عيسى بن سنان عن أبي طلحة الخولاني به و قال : حسن غريب و رواه ابن حبان و رواه أبو القاسم بن عساكر و لفظه : إذا مات ولد العبد قال الله عز و [جل لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ قالوا : نعم قال : فماذا قال ؟ قالوا : استرجع و حمدك قال : ابنوا له بيتا في الجنة و سموه بيت الحمد] و رواه البيهقي موقوفا على أبي موسى و لفظه : قال : [إذا قبض الله ولد الرجل قال : و الله أعلم بما قال العبد قال : فيقال للملائكة : أقبضتم ولد فلان] ؟ فذكر نحو الذي قبله و قال أحمد : [حدثنا يزيد بن هارون أنبأ العوام عن محمد بن أبي محمد مولى لعمر بن الخطاب عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من أولادهما لم يبلغوا - الحنث - إلا كانوا لهما حصنا حصينا من النار فقال أبو ذر : مضى لي اثنان يا رسول الله قال : و اثنان فقال : أبي بن كعب - أبو المنذر و سيد القراء - : مضى لي واحد يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و واحد و ذلك في الصدمة الأولى] و رواه الترمذي و قال : غريب و ابن ماجة جميعا عن نصر بن علي عن إسحاق بن يوسف عن العوام بن حوشب عن أبي محمد مولى عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود مرفوعا فذكره و أبو عبيدة لم يسمع عن أبيه و قال الإمام أحمد في مسنده : [حدثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن إبراهيم التميمي عن الحارث بن سويد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما تعدون فيكم الرقوب ؟ قلنا : الذي لا ولد له قال : لا و لكن الرقوب الذي يقدم من ولده شيئا] و رواه مسلم [من حديث الأعمش و رواه البيهقي و لفظه : أن امرأة قالت : أنا رقوب لا يعيش لي ولد فقال : إنما الرقوب التي يعيش ولدها أما تحبين أن تربنه على باب الجنة

[وهويدعوك إليها ؟ قالت : بلى ! قال : فإنه كذلك]

و قال الإمام أحمد : [حدثنا وكيع ثنا شعبة عن معاوية بن قرّة عن أبيه أن رجلا كان يأتي النبي صلى الله عليه و سلم و معه ابن له فقال له النبي صلى الله عليه و سلم : أتحبه ؟ فقال : يا رسول الله أحبك الله كما أحبه ففقده النبي صلى الله عليه و سلم فقال : ما فعل ابن فلان ؟ قالوا : يا رسول الله مات فقال النبي صلى الله عليه و سلم لأبيه : أما تحب أن لا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك ؟ فقال رجل : يا رسول الله أله خاصة أو لكلنا ؟ قال : بل لكلكم] و رواه النسائي من حديث شعبة بمثله

و في رواية أخرى [من حديث هلال بن زيد بن أبي الزرقاء عن أبيه عن خالد بن ميسرة عن معاوية بن قرّة عن أبيه قال : كان نبي الله صلى الله عليه و سلم إذا جلس جلس إليه نفر من أصحابه و منهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه فهلك فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة بذكر ابنه فحزن عليه ففقده النبي صلى الله عليه و سلم فقال : ما لي لا أرى فلانا ؟ فقالوا : يا رسول الله بنيه الذي رأيت هلك فلقية النبي صلى الله عليه و سلم فسأله عن بنيه فأخبره أنه هلك فعزاه عليه ثم قال : يا فلان أيما كان أحب إليك أن تمتع به عمرك أو لا تأتي غدا إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك ؟ قال : يا رسول الله بل يسبقني إلى باب الجنة يفتحها لي أحب إلي قال : فذلك لك] رواه النسائي و هذا لفظه و رواه الإمام أحمد و البيهقي و هذا لفظه [و رواه الإمام أحمد و البيهقي و زادا : فقال رجل : يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا ؟ قال : بل لكلكم] فذكر مثل الذي قبله

و رواه البيهقي من طرق أخرى وفيه : فقام رجل من الأنصار فقال : يا نبي الله جعلني [الله فداك أهذا لهذا خاصة أو من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له ؟ قال : بل من [هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له]

و قال الإمام أحمد : [حدثنا يحيى بن إسحاق من كتابه أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن حسان بن كريب أن غلاما منهم توفي فوجد عليه أبوه أشد الوجد فقال : حوشب صاحب النبي صلى الله عليه و سلم : ألا أخبرك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في مثل ابنك ؟ إن رجلا من الصحابة كان له ابن قد دب أو أدرك و كان يأتي مع أبيه إلى النبي صلى الله عليه و سلم ثم توفي فوجد عليه أبوه قريبا من ستة أيام لا يأتي النبي صلى الله عليه و سلم فقال النبي صلى الله عليه و سلم : لا أرى فلانا ! فقالوا : يا رسول الله إن ابنه توفي فوجد عليه فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يا فلان أتحب لو أن ابنك عندك الآن كأنشط الصبيان نشاطا ؟ أتحب أن ابنك عندك أجرى الغلمان جرية ؟ أتحب أن ابنك عندك كهلا كأفضل الكهول أو يقال لك : ادخل الجنة

ثواب ما أخذ منك ؟] و قد ورد هذا الحديث بعدة طرق عن أنس بن مالك و بريدة بن الحصيب الأسلمي و غيرهما

و روى الطبراني في معجمه [من حديث إبراهيم بن عبيد بن رفاعة الزرقني عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رجلا من الأنصار كان له ابن يروح إذا راح إلى النبي صلى الله عليه و سلم فسأل عنه فقال : أتعبه ؟ فقال : يا نبي الله نعم أحبك الله كما أحبه فقال : إن الله أشد لي حبا منك له فلم يلبث أن مات ابنه ذلك فراح إلى نبي الله و قد أقبل بته فقال له نبي الله : أجزعت ؟ قال : نعم ! قال : أو ما ترضى أن يكون ابنك مع ابني إبراهيم يلاعبه تحت ظل العرش ؟ قال : بلى يا رسول الله] هذا حديث غريب

و روى أبو يعلى الموصلي في مسنده [من حديث ابن بريدة عن أبيه - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يتعاهد الأنصار و يعودهم و يسأل عنهم فبلغه أن امرأة من الأنصار مات ابن لها فجزعت عليه فأتاها فأمرها صلى الله عليه و سلم بتقوى الله عز و جل و الصبر فقالت : يا رسول الله إني امرأة رقوب لا ألد ولم يكن لي ولد غيره فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الرقوب التي يبقى ولدها ثم قال : ما من امرئ مسلم و لا امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة من الولد إلا أدخلهما الله عز و جل الجنة فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : بأبي أنت و أمي يا رسول الله و اثنان ؟ قال : و اثنان] و رواه البزار في مسنده و لفظه : فقالت : يا رسول الله كيف لا أجزع و أنا رقوب لا يعيش لي ولد فقال : إنما الرقوب التي يعيش ولدها فقال : إنما الرقوب التي يعيش و لدها] و ذكر تمام الحديث

و رواه أحمد [عن حديث معاذ بن جبل و فيه قال : و اثنان ؟ قال : و اثنان قالوا : و واحد ؟ قال : و واحد] و قد تقدم و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : قال الله عز و جل : ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من المال و الولد فصبر إلا أن أدخله الجنة] رواه ابن عساکر و إسناده فيه ابن لهيعة و الكلام فيه معروف و روى أيضا [من حديث المنهال بن خليفة عن ثابت عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رجلا من أهل الأساطين معروفا بذلك ففقدته النبي صلى الله عليه و سلم فقال : ما فعل فلان ؟ فقالوا : ابنه شكا و هو يمرضه فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم يسأله عن ابنه فوجده قد مضى و جاء الرجل مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما حسبك عنا ؟ قال : إني كنت أمرضه حتى مضى فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أتعبه ؟ قال : نعم قال : أجزعت عليه قال : نعم شديدا قال : فما يسرك أن يكون باركا على باب

من أبواب الجنة يقول : يا أبة أنا ذا فأنتي ؟ ! قال بلى يا نبي الله فقال المسلمون عند ذلك [: يا رسول الله فمن أصابه منا مصيبة كان ذلك له قال : نعم إذا صبر واحتسب
وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الأمراض و الكفارات [عن محمد بن خالد بن السلمي عن
أبيه عن جده - و كانت لجده صحبة - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول
: إذ أسبقت للعبد من الله عز و جل منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ولده
[أو في ماله ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز و جل
وروى أيضا بإسناده [عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه
و سلم : ما يزال البلاء بالمؤمن و المؤمنة في جسده و ماله و ولده حتى يلقي الله و ما
عليه خفيفة [و رواه الترمذي و مالك في الموطأ
و عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : قال الله تعالى : إذا [
وجهت إلى عدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت
منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديونا [رواه ابن عدي في الكامل

فصل - في بشارة من مات ولده و صبر

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن الحسين ثنا داود بن المحبر ثنا سواده بن الأسود قال سمعت أبا خليفة العبيدي قال مات ابن لي صغير فوجدت عليه وحدا شديدا و ارتفع عني النوم فو الله إنني لذات ليلة في بيتي على سريري و ليس في البيت أحد غيري و إنني لمفكر في ابني إذ ناداني مناد من ناحية الباب : السلام عليكم ورحمة الله و بركاته يا أبا خليفة فقلت : و عليكم السلام ورحمة الله قال : - ورعبت رعبا شديدا - قال : فتعوذ ثم قرأ آيات من آخر سورة آل عمران حتى انتهى إلى هذه الآية : { و ما عند الله خير للأبرار } قال يا أبا خليفة قلت : لبيك قال : ماذا تريد ؟ تريد أن تخص بالحياة في ولدك دون الناس ؟ ! أنت أكرم على الله أم محمد صلى الله عليه و سلم و قد مات ابنه إبراهيم ؟ و [قال : تدمع العين و يحزن القلب و لا نقول ما يسخط الرب] أم ماذا تريد ؟ تريد أن يرتفع الموت عن ولدك و قد كتب على جميع الخلق ؟ أم ماذا تريد ؟ تريد أن تسخط على الله في تدبير خلقه ؟ و الله لولا الموت ما وسعتهم الأرض و لولا التأسى ما انتفع المخلوقون بعيش ثم قال : ألك حاجة ؟ قلت : من أنت رحمك الله ؟ قال : امرؤ من جيرانك من الجن قال الحافظ أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ثنا محمد بن عبدوس ثنا أبو هاشم ثنا محمد بن كاسة قال : لما مات ذر بن عمر بن ذر و كان موته فجأة أتاه أهل بيته يبكونه فقال : ما لكم ؟ إنا - و الله - ماظلمناه و لا قهرنا و لا ذهب لنا بحق و لا أخطىء بنا و لا أريد غيرنا و مالنا على الله متعب فلما وضعه أبوه في قبره قال : رحمك الله يا بني لقد كنت بي بارا و لقد كنت عليك حدبا و ما بي إليك من وحشة ولا إلى أحد بعد الله فاقفة و لا ذهبت لنا بعز و لا أبقيت علينا من ذل و قد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك يا ذر لولا هول المطمع و محشره لتمنيت ما صرت إليه فليت شعري - يا ذر - ماذا قيل لك ؟ و ماذا قلت ؟ ثم قال : اللهم وعدتني الثواب بالصبر على ذر اللهم فعلى ذر صلواتك و رحمتك اللهم إنني قد وهبت ما جعلت لي من أجر على ذر صلة مني فلا تعرنه قبيحا و تجاوز عنه فإنك أرحم به مني اللهم قد وهبت له إساءته إلي فأنت أجود مني و أكرم فلما ذهب لينصرف قال انصرفنا و تركناك و لو أقمنا ما نفعناك

و رواها من وجه : أن ذرا لما مات قال أصحابه : الآن يضيع الشيخ - يعني والده - فإنه كان بارا به فسمعها الشيخ فبقي متعجبا ثم التفت إليهم و قال : أضيع و الله حي لا يموت ؟ ! ثم سكت حتى دفن فلما واروه في التراب وقف على قبره ليسمعهم فقال : رحمك الله يا ذر ما علينا بعدك من خصاصة و ما بنا إلى أحد مع الله حاجة و ما يسرنني أن أكون المقدم

قلبك و لولا هول المطلع لتمنيت أن أكون مكانك ثم رفع رأسه و قال اللهم قد وهبت حقي فيما بيني و بينه له اللهم فهب حقي فيما بينك و بينه له و ساق نحواً من القصة الأولى فبقي القوم متعجبين مما جاء منهم و مما جاء منه من الرضا و التسليم و عن الحسن البصري رحمه الله - أن رجلاً جزع على و لده و شكاً ذلك إلى الحسن فقال له : كان ابنك يغيب عنك ؟ قال : نعم ! كانت غيبته أكثر من حضوره ؟ قال : نعم قال فأنزله غائباً فإنه لم يرغب عنك غيبة خير لك فيها نفعاً أعظم من هذه قال : يا أبا سعيد هونت علي و جدي علي ابني

و عن سلمة قال : لما مات ابن عمر بن عبد العزيز كشف أبوه عن وجهه و قال : رحمك الله يا بني فقد سررت بك يوم بشرت بك و لقد عمرت مسروراً بك و ما أتت علي ساعة أنا فيها أسر من ساعتني هذه أما و الله إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة و قال أبو الفرج بن الجوزي : قال أبو الوفاء بن عقيل : مات ولدي عقيل و كان قد تفقه و ناظر و جمع أدباً حسناً فتعزيت بقصة عمرو بن عبد ود الذي قتله علي بن أبي طالب : فقالت أمه ترثيه

... لو كان قاتل عمرو غير قاتله (

) ما زلت أبكي عليه دائماً الأبد

(لكن قاتله من لا يقاد به ... من كان يدعى أبوه بيضة البلد)

فأسلاها و عزاها جلاله القاتل فنظرت إلى قاتل ولدي الحكيم المالك فهان القتل و المقتول لجلالة القاتل و عظمه

فصل - في الثواب على الولد الصغير و الشيخ البالغ

و في الأحاديث و الآثار أكثر و رودها في الولد الذي لم يبلغ الحنث و لكن الولد الصالح البالغ أشد مصيبة من والديه و أكثر حزنا و جزعا منهما على الولد الصغير خصوصا إذا كان قد برز في العلم أو له بر و إحسان إلى والديه و أقاربه و أصحابه أو له صفات جميلة و أفعال حميدة و أين يقع الولد الصغير موقع الكبير في النفع لوالديه و لغيرهما إذا كان متصفا بما ذكر ؟ فهل يستريب عاقل أن الحزن عليه أشد ؟ فكذلك أجره أعظم و أكثر فإن قيل : البالغ قد جرى عليه القلم و هو من المكلفين فنهايته يخلص نفسه يعتقها أو يوبقها

قيل : الجزء على الكبير إنما يحصل على الصبر على المصيبة و الاسترجاع و الحمدلة بل [هو داخل في] قول النبي صلى الله عليه و سلم : ادخل الجنة ثواب ما أخذ منك و روى ابن منده [من حديث ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة النسائي عن حسان بن كريب أن غلاما منهم توفي بحمص فوجد عليه أبوه فقال له حوشب صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم : ألا أخبرك ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في مثل ابنك : إن رجلا من الصحابة كان له ابن قد أدرك و كان يأتي مع أبيه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم توفي فوجد عليه قريبا من ستة أيام] الحديث و هذا الحديث ذكر فيه أنه أدرك و ذكر فيه دخول الجنة ثواب ما أخذ منه و قد تقدم من رواية الإمام أحمد لكن لم يذكر في روايته أنه أدرك

و قد روى الحافظ أبو القاسم بن عساكر بإسناده [عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من مات له ابن أو ولد سلم أو لم يسلم رضي أو لم يرض لم يكن له ثواب دون الجنة و في لفظ آخر : من مات له ابن صبر أو لم يصبر احتسب أو لم يحتسب لم يكن له ثواب إلا الجنة] و قد روى ابن عساكر هذا الحديث بعدة طرق و إن كان قد تكلم في بعضها أو في أكثرها ففيها بشارة عظيمة لأكثر الناس في زماننا هذا لأن بموت الولد في غالب أهل زماننا يحصل لوالديه جزع و هلع و عدم تصبر و ما ذاك إلا لقلّة الزواجر الشرعية فإن الوعد و الوعيد يحصل للعبد به تسليّة عظيمة فنسأل الله تعالى أن لا يمتحننا و إن امتحننا أن يثبتنا

و قال أبو القاسم بن عساكر : [أخبرنا أبو العز أحمد بن عبد الله العكبري ببغداد أنبأنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد الوراق أنبأ أبو حفص عمر بن أيوب السقطي ثنا أبو الوليد بشر ابن الوليد القاضي ثنا الفرّج بن فضالة ثنا هلال أبو

جبله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما و نحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال : إني رأيت البارحة عجا رأيت رجلا من أمتي أتاه ملك الموت لقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه و رأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك و رأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله عز و جل فطرد الشياطين عنه و رأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم و رأيت رجلا من أمتي يلهب عطشا كلما دنا من حوض منع منه و طرد فجاءه صيامه شهر رمضان فأسقاها و أرواه و رأيت رجلا من أمتي و رأيت النبيين حلقا حلقا كلما دنا إلى حلقة طرد فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي و رأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمة و عن يمينه ظلمة و عن شماله ظلمة و من فوقه ظلمة و هو متحير فجاءه حجته و عمرته فاستخرجاه من الظلمة و أدخلاه في النور و رأيت رجلا من أمتي يتقي بيده وهج النار و شررها فجاءته صدقته فصارت سترة بينه و بين النار و ظلا على رأسه و رأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين و لا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المؤمنين إنه كان وصولا لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنين و صافحوه و صار فيهم و رأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف و نهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم و أدخله في ملائكة الرحمة و رأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه و بينه و بين الله عز و جل حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز و جل و رأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز و جل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه و رأيت رجلا من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه و رأيت رجلا من أمتي قائم على شفيع جهنم فجاءه رجأؤه من الله عز و جل فاستنقذه من ذلك و مضى و رأيت رجلا من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله عز و جل فاستنقذته من ذلك و رأيت رجلا من أمتي قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز و جل فسكن رعدته و مضى و رأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط و يحبو أحيانا و يتعلق أحيانا فجاءته صلاته علي فأنقذته وأقامته على قدميه و رأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن [لا إله إلا الله ففتحت له أبواب الجنة و أدخلته الجنة

هذا الحديث قد ذكر جماعة من الحفاظ أن لوائح الصحة ظاهرة عليه و أن القلب يركن إلى متنه و قد أومأت إليه فيما تقدم و بكل حال في هذا الحديث بشارة عظيمة للأمة عامة و فيه تطيب خاطر الوالدين على الأطفال خاصة سواء كان الطفل ولد قبل إسلام والده أو بعده فإنه صلى الله عليه و سلم قال : [رأيت رجلا من أمتي خف ميزانه فجاءته أفراطه

فتقلوا ميزانه [و يؤيد ذلك ما ثبت [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : كل مولود يولد على الفطرة] قال تعالى : { فطرة الله التي فطر الناس عليها } فالولدان الذين يتوفون على ما فطرهم الله عليه من التوحيد هم من السعداء الذين يدخلون الجنة بلا عمل عملوه و لا خير قدموه بل برحمة الله لهم ومنته عليهم بل أعظم من هذا أنهم يشفعون في آبائهم و لهذا يكونون في البرزخ في كفالة أبيهم إبراهيم الخليل - عليه السلام - كما ثبت في الصحيح في حديث المنام الطويل من حديث [سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه و سلم جاءه جبريل وميكائيل فانطلقا به فأرياه عجائب وفيه : والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم والصبيان حوله أولاد الناس] و في لفظ البخاري : [والولدان حوله فكل] مولود يولد على الفطرة فليل : يا رسول الله و أولاد المشركين ؟ قال : و أولاد المشركين قال شيخ الإسلام ابن تيمية : و فطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة يبين ذلك : { فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها } و لهذا نصب على المصدر الذي دل عليه الفعل الأول عند سيبويه و أصحابه فدل على إقامة الوجه للدين حنيفا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها كما في نظائره مثل قوله تعالى : { كتاب الله عليكم } و { سنة الله التي قد خلت } فهو عندهم مصدر منصوب بفعل مضمير لازم إضماره دل عليه الفعل المتقدم كأنه قال : كتب الله عليكم ذلك و سن الله ذلك لكم انتهى كلامه

و قد تكلمنا عن الأطفال و أشبعنا الكلام فيهم في كتاب مفرد فمن رام كشفه فليطلبه و لكن لا يليق التطويل بل ليس نحن بصدده بأكثر من هذا فهذا تنبيه على الأطفال أنهم ولدوا على الفطرة و قد ذكرنا في الفطرة نحوًا من عشرة أقوال في الصنف المشار إليه و الله أعلم

فصل - في التأسى ببعض ما كان يفعله الصحابة و التابعون إذا نزلت بهم المصائب

فقد ثبت في صحيح البخاري [عن أنس قال : اشتكى ابن لأبي طلحة قال : فمات و أبوه أبوظلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا و جعلت ابنها في جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه و أرجو أن يكون قد استراح و ظن أبو طلحة أنها صادقة قال : فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبي صلى الله عليه و سلم ثم أخبره بما كان منها فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لعل الله أن يبارك لهما في ليلتهما [فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن] و في لفظ أنها قالت لأهلها لما مات ولدها : لا يكلم لأبي طلحة أحد قبلي فلما دخل سألت عن الصبي فقالت : إنه قد هدأ مما كان و قدمت له طعاما فأكل ثم تصنت له حتى واقعها ثم قالت : يا أبا طلحة أ رأيت قوما أودعوا قوما وديعة ثم طلبوها منهم أفما يجب أن يؤدوها إليهم ؟ قال بلى قالت : فاحتسب ابنك فغضب لما صنعت به فلما كان الصباح ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يشكوها إليه فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال : بارك الله لكما في غابر ليلتكما فجاءت بغلام حنكه رسول الله صلى الله عليه و سلم و سماه عبد الله و هو الذي كان من سلالاته الإخوة القراء و الأول هو أبو عمير الذي كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يداعبه و يقول له : يا أبا عمير ما فعل النغير [أي ما فعل عصفورك فهذه امرأة قد تصبرت و رضيت و تثبتت و احتسبت فأخلف الله لها خيرا من الذي أصيبت به فإذا نظر من أصيب بمصيبة إلى امرأة قد فعلت عند المصيبة أمرا لا يكون إلا عند السرور و الأفراح فليتأس الشخص و ليتعلم أوصاف السابقين الأولين و يعلم الرجال أولى بهذا الصنيع و الصبر من النساء و لم تصب امرأة في الوجود بما أصيبت به فاطمة - رضي الله عنها - التي هي سيدة نساء أهل الجنة فإنها أصيبت بموت أبيها رسول الله صلى الله عليه و سلم ولم تقل في هذه ! الحال العظيمة إلا قولا صدقا محفوظا عنها فإنها قالت : يا أبتاه من ربه ما أدناه يا أبتاه إلى جبريل أنعاه ! يا أبتاه أجاب ربا دعاه ! يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ! فالذي ينبغي لنا التأسى بسادات المسلمين من الرجال و النساء مات لرجل من السلف ولدا فعزاه سفيان بن عيينة و مسلم بن خالد و آخرون و هو في حزن شديد حتى جاءه الفضيل بن عياض فقال : يا هذا أ رأيت لو كنت في سجن و ابنك فأفرج عن ابنك قبلك أما كنت تفرح ؟ قال : بلى ! قال : فإن ابنك خرج من سجن الدنيا

قبلك قال فسري عن الرجل و قال تعزيت رواه الحافظ ابن عساكر
و قال مالك : إنه بلغه [عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله
صلى الله عليه و سلم قال : ما يزال المؤمن يصاب في ولده و خاصته حتى يلقي الله و
ليست عليه خطيئة]

و قد تقدم ما رواه الإمام أحمد و الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري و المقصود أن
من سمع بهذا الحديث و كان قد أصيب بمصيبة حصل له تسلية
و من التأسى بمن أصيب في نفسه فصر و عزى نفسه و تكلم بما حفظ عنه : لما حضرت
معاوية الوفاة قال : أفعدونني فأقعدوه فجعل يذكر الله و يسبحه ثم قال : الآن تذكر ربك يا
معاوية بعد الانحطام و الانهزام ؟ ألا كان ذلك و غصن الشباب ريان ؟ ! و بكى حتى علا
: بكاؤه ثم قال منشدا

هو الموت لا منجا من الموت و الذي ()
(أحاذر بعد الموت أدهى و أفظع)

ثم قال اللهم يا رب ارحم الشيخ العاصي و القلب القاسي اللهم أقل العثرة و اغفر الزلة و
جد بحلمك على من لا يرجو غيرك و لا يثق بأحد سواك ثم قال لابنه : يا بني إذا وافاني
أجلي فاعمد إلى المنديل الذي في الخزانة فإن فيها ثوبا من أثواب رسول الله صلى الله
عليه و سلم و قراصة من شعره و أظفاره فاجعل الثوب مما يلي جسدي و اجعل أكفاني
فوقه و اجعل القراصة في فمي و أنفي و عيني فإن نفعني شيء فهذا فإذا و ضعتموني
في قبري فخلوا معاوية و أرحم الراحمين
و لما حضرت أبا هريرة - رضي الله عنه - الوفاة بكى فقل له : ما يبكيك ؟ فقال : يبكيني
بعد السفر و قلة الزاد و ضعف اليقين و العقبة الكؤود التي المهبط منها إما إلى الجنة و إما
إلى النار

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال : أجلسوني فأجلسوه فقال : اللهم أنا الذي
أمرتني فقصرت و نهيتني فعصيت فإن غفرت فقد مننت و إن عاقبت فما ظلمت لا إله إلا
أنت

و قال سليمان التيمي : دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع فرأيت من جزعه ما
ساءني فقلت له : هذا الجزع كله لماذا و قد كنت بحمد الله على حالة صالحة ؟ ! فقال : و
مالي لا أجزع ؟ و من أحق مني بالجزع ؟ و الله لو أتتني المغفرة من الله عز و جل لأهمني
الحياء منه فما أفضيت به إليه

و لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جعل يقول : و الله لوددت أني عبد لرجل من تهامة
أرعى غنيمات في جبالها ولم أل

و ذكر محمد الطائي الهمداني في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين ذكر بإسناده إلى
المزني قال : دخلت على الشافعي - رحمه الله - في مرضه الذي مات فيه فقلت : كيف
أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا و لإخواني مفارقا و لسوء فعلي ملاقيا و بكأس
المنية شاربا و على الله عز وجل واردا فو الله ما أدري أروحي تسير إلى الجنة فأهنيها أم
: إلى النار فأعزيها ؟ ! ثم بكى و أنشد
(فلما قسا قلبي و ضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما)
(تعاطمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما)
... فما زلت ذا عفومن الذنب لم تزل)
(تجود و تعفو منة وتكرما
فلولاك لم يقو إبليس عالم)
(وكيف و قد أغوى ضعيفك أدما ؟ ...)
و قال بعض الصالحين لخدمه و قد حضرته الوفاة : يا غلام شد كتافي و عفر خدي في
التراب ففعل الغلام به ذلك ثم قال : دنا الرحيل ثم قال : اللهم لا براءة لي من ذنب و لا
عذر أعتذر به و لا قوة فأنتصر بها ثم قال : أنت لي أنت لي ثم صاح صيحة فمات فسمعوا
صوتا يقول : اشتكى العبد لمولاه فقبله

فصل - في البشارات الهائلة لمن أصيب بمصيبة و إن لم تكن في ولده

و من المطالب العالية و البشارات الهائلة لمن أصيب بمصيبة و قد تقدم غالبه ثم نذكر من لم يقدم من ولده شيئاً

قال الإمام أحمد : [ثنا بهز ثنا حماد بن سلمة ثنا يعلى بن عطاء عن شيخ من أهل دمشق عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : خمس بخ بخ : و سبحان الله والحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و الولد الصالح يموت للرجل فيحتسبه] و قد روي هذا الحديث بعدة طرق [عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الحشاش العنبري و هو صحابي بنحو من هذا لكن بلفظ : بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان] و رواه ابن سعد في الطبقات من [حديث سلام الاسود و لفظه كما تقدم و فيه و الولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه] و رواه ابن أبي عاصم و قال أبو القاسم بن عساكر : قرأت على أبي محمد عبد الكريم بن حمزة السلمى [عن أبي بكر أحمد بن علي الحافظ أنبأ الحسن بن أبي بكر أنبأ أبو الحسين أحمد بن عثمان ثنا ابن أبي العوام ثنا أبي ثنا إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل حدثني أبي عن أبيه كهيل عن هانئ ابن بنت الحضرمي ثنا عبد الله بن عباس قال : توفي ابن لصفية بنت عبد المطلب فبكت عليه فقال لها رسول الله صلى الله عليه و سلم : تبكين يا عمّة ؟ ! من توفي له ولد في الإسلام كان له بيت في الجنة] فسكت و في صحيح البخاري [عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يقول الله عز و جل : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفة من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة]

و قال الترمذي في جامعه : [حدثنا نصر بن علي الجهضمي وأبو الخطاب زياد بن يحيى البصري قالا : ثنا عبد ربه بن بارق قال : سمعت جدي أبا سماك بن الوليد يحدث أنه سمع عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : من كان له فرطان من أمّتي أدخله الله بهما الجنة فقالت عائشة - رضي الله عنها - : فمن كان له فرط من أمّتك قال : ومن كان له فرط يا موفقة قالت : فمن لم يكن له فرط من أمّتك ؟ قال : فأنا فرط أمّتي لن يصابوا بمثلي] قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد ربه بن بارق

و قد روى عنه غير واحد من الأئمة قال الحافظ الضياء : عبد ربه ابن بارق تكلم فيه يحيى بن معين و قال الإمام أحمد : ما به بأس

و قد روينا في جزاء ابن عرفة مرفوعا : الموت كفارة لكل مسلم
و المقصود أن من لم يصب في أولاده أو لم يكن له أولاد فالنبي صلى الله عليه و سلم
فرطه لكن أهل المصائب أيضا يشاركونهم في النبي صلى الله عليه و سلم فيحصل لهم
أجر من جهتين و قد يحصل للشخص أجر من جهات عديدة من موت و حريق و نهب و غير
ذلك مما يكفر الله به السيئات و يرفع به الدرجات

الباب السابع : في ذكر السقط و ثوابه و زيارة القبور

قال الإمام أحمد : [حدثنا عفان ثنا خالد الطحان ثنا يحيى التميمي عن عبد الله بن مسلم عن معاذ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و الذي نفسي بيده إن السقط ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا احتسبته] و رواه ابن ماجه أيضا و الدرامي من حديث يحيى بن عبد الله التميمي به

و عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله : إن السقط ليراغم ربه [عز وجل إذا أدخل أبويه النار فيقال : أيها السقط المرغام ربه ادخل أبويك الجنة] رواه ابن ماجه

و روى ابن ماجه أيضا [من حديث يزيد بن رومان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لسقط أقدامه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خلفي] و رواه عبد الله بن الإمام أحمد

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا [كان يوم القيامة نودي في أطفال المسلمين أن اخرجوا من قبوركم فيخرجون من قبورهم ثم ينادي أن امضوا إلى الجنة زمرا فيقولون : يا ربنا و والدنا معنا فينادي فيهم الثانية أن امضوا إلى الجنة زمرا فيقولون : يا ربنا و والدنا معنا قال : فيتبسم الرب جل و علا في الرابعة فيقول : و والداكم معكم فيثب كل طفل إلى أبويه فيأخذون بأيديهم فيدخلونهم الجنة لهم أعرف بأبائهم و أمهاتهم يومئذ من أولادكم الذين في بيوتكم] رواه ابن شاهين و الحافظ ابن عساكر في ذكر ثواب السقط

و روي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم ثنا محمد بن أبي الوزير ثنا خلاد بن منصور الواسطي ثنا داود بن أبي هند قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت و كأن الناس يدعون إلى الحساب قال : فقربت إلى الميزان فوضعت حسناتي في كفة و سيئاتي في كفة فرجحت السيئات على الحسنات فينا أنا كذلك مغموم إذ أتيت بشيء كالمنديل أو كالخرقة البيضاء فوضعت مع حسناتي فرجحت على السيئات فقيل : تدري ما هذه ؟ قلت : لا قال : سقط كان لك قلت : فإنه قد مات لي صبية ابنة لي : تيك ليست لك لأنك كنت تتمنى موتها و روى يزيد بن أبي مريم عن أبيه عن سهل الحنظلية الأنصاري - و كان ممن بايع تحت الشجرة - و كان لا يولد له أنه قال : لأن يولد لي و لو سقط فأحتسبه أحب إلي من الدنيا جميعا

فصل - في زيارة القبور و حكمها

زيارتها مستحبة و هي تذكر الآخرة و تفرح الموتى بما يحصل لهم من الأحياء من قراءة و استغفار و دعاء و صدقة و نحو ذلك فزيارة القبور فيها نفع للأحياء و الأموات فالحي يذكر الآخرة و الموت الذي ما ذكر في قليل من متاع الآخرة إلا كثره و لا في كثير من متاع الدنيا إلا قلله و يقرأ على نفسه آيات الصبر و قصر الأمل مثل قوله تعالى : { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق } و قوله تعالى : { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون

و في صحيح البخاري [من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل] و كان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح و إذا أصبحت فلا تنتظر المساء و خذ من صحتك لمرضك و من حياتك لموتك

فإذا تذكر ذلك حصل له الخشوع و الإقلاع و تذكر من سلف من الأهل و الأقارب هذا في الزيارة النافعة لا كما يفعل في زماننا هذا من البدع في الزيارة يوم الخميس و السبت فتتزين النساء و يتبهرجن و يجلسن على القبور و قد نهى في سنن أبو داود [من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص على جلده خير له من أن يجلس على قبر و قال : لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها

لكن اختلف العلماء في الجلوس ما هو ؟ فأكثر العلماء على أنه الجلوس المعروف و قال مالك : هو التغوط عليها

و روي في الموطأ : أن عليا كان يتوسد القبور و يضطجع عليها و أن ابن عمر كان يجلس على القبور و أن عثمان بن حكيم قال : أخذ خارجة ابن زيد بيدي فأجلسني على قبر و أخبرني عن عمه يزيد بن ثابت أنه قال : إنما كره ذلك لمن أحدث عليها

و المقصود أن النساء يخرجن إلى المقابر و تحضر الشباب الفسقة فيجلسون على سكك المقابر و يختلطون بهم في الغالب و ربما تصعد السوق بملاذ المأكل و غيرها للبيع و الشراء و ربما تحدثوا بما لا يليق فهؤلاء قبحهم الله تعالى و أبعدهم عن بابه و ختم على قلوبهم و أبصارهم لأنهم يشاهدون منازل الآخرة - يعني المقابر - و هم معرضون عما يراد بهم

و قد نص الإمام أحمد - رحمه الله - على أن الموتى يتأذون بفعل المعصية عندهم و في

زماننا هذا تفعل المعاصي في التراب فيحصل للموتى الأذى بذلك كما نص أحمد على ذلك
لأنهم - رحمهم الله تعالى - قد تيقنوا شؤم عاقبة الذنب و عاينوا عين اليقين نسأل الله
العافية في الدنيا و الآخرة
ونص الإمام أحمد : على أن الزيارة للقبور يوم الجمعة قبل طلوع الشمس فإن الاموات يرون
زائرهم

و قال الغزالي في إحياء علوم الدين : الزيارة تكون يوم الجمعة و يوم السبت قبل طلوع
الشمس

و يستحب الإكثار من ذكر الموت كما ثبت في الترمذي وحسنه [من حديث أبي هريرة -
رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أكثروا ذكر هادم اللذات] -
يعني الموت -

ويستحب للشخص إذا دخل المقابر أن يسلم على أهل المقابر كما ثبت في صحيح
مسلم [عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يخرج
من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين أتاكم ما توعدون غدا
مؤجلون و إنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد] و في صحيح مسلم [
من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعلمهم
إذا خرجوا من المقابر فكان قائلهم يقول : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين و
المسلمين و إنا إن شاء الله بكم لاحقون] نسأل الله لنا ولكم العافية

و في صحيح مسلم أيضا [من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله
عليه و سلم خرج إلى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين] الحديث
و روى الإمام أحمد [عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : مر رسول الله صلى الله عليه
و سلم بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : السلام عليكم أهل القبور يغفر الله لنا
ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر] و رواه الترمذي و هذا لفظه و قال : حديث حسن غريب
و رواه ابن ماجة [من حديث عائشة - رضي الله عنها - و لفظه : السلام عليكم دار قوم
[مؤمنين أنتم لنا فرط و إنا بكم لاحقون اللهم لا تحرمنا أجرهم و لا تفتنا بعدهم
و عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : نهيتكم]
عن زيارة القبور فزوروها و نهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم و
نهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها و لا تشربوا مسكرا] رواه
مسلم

و للإمام أحمد و النسائي : نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد فليزر و لا يقول هجرا
و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم استأذنت [

ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي و استأذنته أن أزور قبرها فأذن لي [رواه مسلم و في لفظ له : [زار قبرها فبكى وأبكى من حوله فقال : استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي و استأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكرك الموت]
و عن علي - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : كنت نهيتكم عن [زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة] رواه الإمام أحمد و رواه ابن ماجة [من حديث ابن مسعود و فيه : فزوروها فإنها تزهد في الدنيا و تذكر الآخرة] و رواه أحمد أيضا [من حديث أبي سعد مرفوعا و فيه : فزوروها فإن فيها عبرة] و فيه دليل لمن جوز زيارة القبور للنساء

: وللعلماء فيها ثلاثة أقوال

أحدها : تحريمها عليهن لحديث لعن الله زوارات القبور
الثاني : يكره

والثالث : يباح لما تقدم فالنساء يدخلن في خطاب الرجال على الصحيح عند الأصوليين و عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : ألا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه و سلم [و عني ؟ قلنا : بلى قالت : لما كانت ليلتي التي كان رسول الله صلى الله عليه و سلم فيها عندي و ضع رداءه و خلع نعليه فوضعهما عند رجليه و بسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت فأخذ رداءه رويدا و انتعل رويدا و فتح الباب فخرج ثم أجافه رويدا و جعلت درعي في رأسي و اختمرت و تقنعت إزاري ثم انطلقت على أثره حتى أتى البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت فأسرع فأسرعت فهرول فهرولت فأحضر فأحضرت فسبقته فدخلت فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال : مالك يا عائش حشياء رابية ؟ قلت : لا شيء قال : لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأممي فأخبرته قال : فأنت السواد الذي رأيت أمامي ؟ ! قلت : نعم ! فلهزني في صدري لهزة أوجعتني ثم قال : أظننت أن يحيى الله عليك و رسوله ؟ قالت : مهما يكرم الناس يعلمه الله نعم ! قال : فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك فأجبتة فأخفيتة منك ولم يكن يدخل عليك و قد وضعت ثيابك و ظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك و خشيت أن تستوحشي فقال : إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قالت : قلت : كيف أقول يا رسول الله ؟ قال قولي : السلام على أهل الديار من المسلمين و المؤمنين يرحم الله المستقدمين منا و المستأخرين و إنا إن شاء الله للاحقون] رواه مسلم

الباب الثامن : في تطيب خاطر الوالدين على الأولاد

قال الله تعالى : { و الذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم } و قد ذكر البغوي في تفسيره بإسناده [عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : أن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته و إن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ النبي صلى الله عليه و آله و سلم : { والذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم

ففي هذه الآية و الحديث دليل على تطيب خاطر الوالدين على أطفالهم و هذا الذي ينبغي أن يطيبوا أنفسهم و يقرأوا أعينهم فإنهم و إن كانوا كبارا فهم من أهل التوحيد و الإسلام و إن كانوا صغارا فهم ممن : { لا خوف عليهم و لا هم يحزنون } لأنهم ماتوا على الفطرة السليمة و هم من السعداء الذين يدخلون الجنة بلا عمل عملوه و لا خير قدموه بل رحمة الله و منته عليهم و لهذا يكونون في برزخهم في كفالة أبيهم إبراهيم الخليل - عليه السلام إمام الحنفاء - كما في دعاء الميت إذا كان صغيرا : و اجعله في كفالة إبراهيم و كما ثبت في صحيح البخاري [من حديث سمرة بن جندب - وقد تقدم - عن النبي صلى الله عليه و سلم في حديث المنام قال فيه : فأما الرجل الطويل الذي في الروضة بإبراهيم عليه السلام و أما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فليل : يا رسول الله و أولاد المشركين ؟ قال و أولاد المشركين] و [في رواية للبخاري أيضا و الشيخ في أصل [الشجرة إبراهيم - عليه السلام - و الصبيان حوله أولاد الناس

و عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من [مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جزع ؟ ! ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : { فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم } [الحديث : رواه البخاري و مسلم و لفظه للبخاري

و قال أبو بكر القطيعي : [حدثنا بشر بن موسى ثنا ابن خليفة ثنا عون عن خنساء قالت حدثتني عمتي قالت : قلت : يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة و الشهيد في الجنة و المولود في الجنة و الوئيد في الجنة] و كذلك رواه بن دار عن غندر عن عوف فذكر مثله

و قال الفراء في كتاب معاني القرآن : عند قوله تعالى : { كل نفس بما كسبت رهينة * } إلا أصحاب اليمين { قال علي رضي الله عنه : هم الولدان قال الفراء : و هو شبيه بالصواب لأن

الولدان لم يكتسبوا ما يرتنون به و في قوله تعالى : { يتساءلون * عن المجرمين } ما
{ يقوي أنهم الولدان لأنهم لم يعرفوا الذنوب فلماذا يقولون : { ما سلككم في سقر
و لكن روى العقيلي بإسناده عن علي - رضي الله عنه - في قوله تعالى { إلا أصحاب
اليمين } قال هم أطفال المسلمين فظاهر هذه الرواية التخصيص بهذه الأمة و الرواية
الأولى عامة في كل مولود
و قال البغوي في تفسيره { إلا أصحاب اليمين } : اختلفوا فيهم فعن علي أنهم أطفال
المسلمين و هذا يوافق ما رواه العقيلي عنه و لم يحك عنه خلافة ثم قال : و عن ابن
عباس - رضي الله عنهما - أنهم الملائكة و قال مقاتل : هم الذين كانوا على يمين آدم يوم
الميثاق و عنه أيضا : هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم و عنه أيضا : هم الذين كانوا ميامين
على أنفسهم و قال الحسن : هم المسلمون المخلصون
و حكى القرطبي في تفسيره في هذه الآية الكريمة أقوالا كثيرة ولم يذكر أنهم لا أطفال
المسلمين و لا المشركين إلا أنه ذكر في آخر كلامه عن الغراء أنه قال : هم الولدان لأنهم
لا يعرفون الذنوب و قد حكيت قول الغراء قريبا و أنه أسنده إلى علي - رضي الله عنه - لكن
حكى القرطبي في غير هذا الموضع : أن الأطفال إن ماتوا صغارا فهم في الجنة أعني
جميع الأطفال لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذر أقرأ له بالربوبية و
هو قوله تعالى : { وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا } ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقرأ له بالربوبية ثم
يكتب العبد في بطن أمه شقيا أو سعيدا على الكتاب الأول

فصل - في معنى الفطرة التي نشأ عليها كل مولود من بني آدم من ذكر و أنثى
قال الله تعالى : { فطرة الله التي فطر الناس عليها } و قال صلى الله عليه و سلم : [كل مولود يولد على الفطرة] و قد قدمنا في ذلك كلاما مختصرا و لكن نبين معنى الفطرة لغة و إعرابا قال أبو البقاء في إعرابه : فطرة الله أي : الزموا و اتبعوا دين الله التي خلق الناس عليها انتهى كلامه
و قال الطبري : فطرة الله مصدر المعنى : فأقم و جهك لأن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك
و قال النحاس : سميت الفطرة دينا لأن الناس يخلقون له و فطر الناس عليها أي لها و كذلك معنى قول الزجاج
و قال شيخ الإسلام ابن تيمية : فطرة الله أضافها إليه على الوجه الممدوح و لهذا نصبت على المصدر الذي دل عليه الفعل عند سيبويه و قد تقدم كلامه - رحمه الله - قريبا
و قال أبو عمر بن عبد البرفي التمهيد : الفطرة في كلام العرب البداءة انتهى

فصل - في اختلاف العلماء في معنى الفطرة

: و قد اختلف بعض العلماء و المفسرون في المعنى المراد بالفطرة على أقوال أحدهما : أن المراد بالفطرة : الإسلام قاله أبو هريرة و ابن شهاب و غيرهما و هي إحدى الروايات عن الإمام أحمد و لما ذكر ابن عبد البر النزاع في هذه المسألة في التمهيد قال : و قال آخرون : الفطرة ها هنا الإسلام قال : و هو المعروف عند عامة الناس و أهل التأويل ثم قال : و أما قوله تعالى : { فطرة الله التي فطر الناس عليها } فقد أجمعوا على أن قالوا : دين الإسلام و ليس كما قال : فإن القرطبي و غيره من المفسرين ذكروا في الآية أقوالا كثيرة :

قال القرطبي : و في معنى الفطرة أقوال متعددة منها دين الإسلام و هو المعروف عند عامة السلف ثم قال : و معنى هذا أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه و أنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا فهم في الجنة أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار و قال النقاش في تفسيره : و قد اختلف أهل التأويل و الأخبار في الفطرة فقيل : على ملة إبراهيم ثم ذكر قريبا مما ذكره القرطبي و قد احتج من نصر هذا القول [بحديث أبي هريرة مرفوعا ما من مولود يولد إلا على الفطرة] و استدلال أبي هريرة بالآية في تمام الحديث و [بحديث عياض بن حمار بن المجاشعي مرفوعا يقول : خلقت عبادي حنفاء] و في بعض ألفاظه [حنفاء المسلمين] و يؤيد هذا [ما في الصحيحين : خمس من الفطرة] و [في صحيح مسلم : عشر من الفطرة] و رواه الإمام أحمد و أبو داود [من حديث عمار بن ياسر] : خمس من سنن الإسلام] و [في لفظ عشر من سنن الإسلام الثاني : أن المراد بالفطرة : البداءة التي بدأهم الله عليها من أنهم ابتدأهم للحياة و الموت و السعادة و الشقاوة و تقدم حكاية هذا القول و أنه حكاة أبو عمر بن عبد البر الثالث - ليس المراد بالفطرة عموم الناس و إنما المراد بقوله : فطر الناس : المؤمنون إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد و قد ثبت أنه خلق أقواما للنار كقوله تعالى { و لقد } ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن و الإنس

الرابع - أن المراد بالفطرة الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه فكأنه قال : كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم و احتج من قال بهذا القول بقوله تعالى : { وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون } و تقدم في بسط هذا الكلام له موضع آخر و أنه في كتاب مفرد على الكلام في أطفال

المشركين

والمقصود أن الولدان يتوفون على ما فطرهم الله عليه من التوحيد و الإسلام فهم من
سعداء الآخرة الذين استحقوا دخول الجنة بلا عمل عملوه و لا خير قدموه بل برحمة الله
{ عليهم و لطفه بهم : } ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم

الباب التاسع : فيمن مات له طفل رضيع أنه يكمل رضاعه في الجنة

قال الإمام أحمد : [ثنا أسود بن عامر ثنا إسرائيل عن جابر الجعفي عن عامر عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال : صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم على ابنه إبراهيم و مات و هو ابن ستة عشر شهرا و قال : إن له في الجنة من يتم رضاعه وهو صديق] ورواه أبو يعلى الموصلي و جابر الجعفي : ضعيف

و قال البخاري : [حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة حدثنا عدي بن ثابت أنه سمع البراء أنه قال : لما توفي إبراهيم - يعني ابن النبي صلى الله عليه و سلم - قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن له مرضعا في الجنة] انفرد به البخاري و إنما كان كذلك لأنه مات و هو مرضع ابن سبعة عشر شهرا أو ستة عشر و قيل : أكثر من ذلك و قيل : أقل فالله تعالى أعلم بالصواب

و في بعض الروايات : [إن ابني مات في الثدي و إن له مرضعا في الجنة] فإذا كان هذا خاصا به عليه السلام فلا كلام و الأصل عدم الاختصاص إلا أن يقوم دليل عليه و لم نجده و إن كان عاما في حق أولاد المؤمنين - كما ذكر في بعض الآثار و لا يحضرني الآن و لكن متنه : [إن في الجنة شجرة تحمل الثدي يرتضع منها الولدان] - فهي بشارة عظيمة للمؤمنين في ولدانهم و فيه تطيب خاطر الوالدين و الله تعالى أعلم

فصل - في شفاعة الأطفال الرضع لوالديهم

و قد روى المعافى بن الحسين في كتاب أنس المنقطعين له في الأطفال الرضع أن [النبي صلى الله عليه و سلم قال : يجيء أطفال المسلمين يوم القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقول الله عز و جل لجبريل : اذهب بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على أبواب الجنة و يسألون عن آبائهم و أمهاتهم فيقال إن آباؤكم و أمهاتكم ليسوا بأمثالكم لهم ذنوب و سيئات يطالبون بها فيصيحون صيحة واحدة عظيمة باكين فيقول الله سبحانه و تعالى و هو أعلم : يا جبريل ما هذه الصيحة ؟ فيقول : إلهي أنت أعلم بهم هؤلاء أطفال المسلمين يقولون : لا ندخل الجنة حتى يدخل آباؤنا فيقول الله عز و جل : يا جبريل تخلل الجمع و خذ [آباءهم و أمهاتهم واجعلهم معهم في الجنة

الباب العاشر : في أنه يصلى على كل مولود مسلم و يدعى لوالديه

و هذا الباب عظيم لأن فيه بشارة عظيمة لكل من أصيب في أولاده أو في واحد منهم لأنه أمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن نصلّي عليهم و أن ندعو لوالديهم كما سنذكره إن شاء الله تعالى

و جمهور العلماء على أنه يصلى على الطفل الصغير و إن سقطا قد نفخ فيه الروح و ذهب بعض السلف إلى أنه لا يصلى على الصغير ما لم يحتلم و سنذكر ما يدفع هذا القول و

يضعفه :

قال البخاري : [حدثنا أبو اليمان ثنا شعبة قال ابن شهاب : يصلى على كل مولود يتوفى و إن لغية من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام يدعي أبواه الإسلام أو أبوه خاصة و إن كانت أمه على غير دين الإسلام إذا استهل صارخا صلي عليه و لا يصلى على من لم يستهل من أجل أنه سقط و أبو هريرة كان يحدث عن رسول الله قال : ما من مولود إلا يولد على الفطرة] الحديث

و روى أبو داود [عن عائشة - رضي الله عنها - قال : مات إبراهيم بن النبي صلى الله عليه و سلم - و هو ابن ثمانية عشر شهرا - فلم يصلي عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم [في إسناده محمد بن إسحاق و الكلام فيه معروف و هو يعضد من قال من السلف بعدم الصلاة على الأطفال لكن الحديث فيه كلام و قد روى أبو داود أيضا ضد هذه الرواية] من حديث البهي قال : لما مات إبراهيم بن النبي صلى الله عليه و سلم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم في المقاعد [هذا مرسل - والبهى - هذا اسمه عبد الله بن يسار مولى مصعب بن الزبير تابعي يعد من الكوفيين و قد تقدم ما رواه الإمام أحمد] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى على ابنه إبراهيم [الحديث

و قال الإمام أحمد أيضا : [حدثنا هاشم بن القاسم ثنا المبارك أخبرني زياد بن خير عن المغيرة بن شعبة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الراكب خلف الجنابة و الماشي أمامها قريبا منها عن يمينها أو عن يسارها و السقط يصلى عليه و يدعى لوالديه بالمغفرة و الرحمة] و رواه أبو داود و النسائي و الترمذي و قال : حسن صحيح

و رواه ابن ماجة مرفوعا و لفظه : قال : الراكب يسير خلف الجنابة و الماشي يمشي [خلفها و أمامها و عن يمينها و عن يسارها و الطفل يصلى عليه و يدعى لوالديه بالمغفرة و الرحمة] فذكر ابن ماجة بدل السقط : الطفل

و روى ابن ماجة [من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله

[عليه و سلم : صلوا على أطفالكم فإنهم من أفراطكم
و عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الطفل لا يصلى عليه و لا [يورث و لا يرث حتى يستهل] رواه الترمذي من رواية إسماعيل بن مسلم المكي قال الترمذي هذا حديث قد اضطرب الناس فيه فروي مرفوعا و روي موقوفا و هو أصح من المرفوع قال الحافظ الضياء : إسماعيل بن مسلم المكي قد تكلم فيه غير واحد من الأئمة و روى ابن ماجة [عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا استهل الصبي صلي عليه و ورث] الاستهلال : هو رفع الصوت حين خروجه من الأحشاء و الله أعلم و هو من رواية الربيع بن يزيد و قد ضعفه غير واحد من الأئمة قال الحافظ الضياء : و قيل : يصلى على الطفل إذا نفخ فيه الروح استهل أو لم يستهل قلت : و هو ظاهر مذهب الإمام أحمد أنه يصلى عليه إذا نفخ فيه الروح وهو أن يستكمل أربعة أشهر قال الشيخ مجد الدين : و إن أسقط لدون أربعة أشهر فلا يصلى عليه لأنه ليس بميت إذ لم ينفخ فيه الروح و قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الصلاة على السقط مالم ينفخ فيه الروح مبنية على بعته و للعلماء فيه قولان فإن قلنا : إنه يبعث صلي عليه و إلا لم يصلى عليه و الله أعلم انتهى كلامه قال أحمد بن عبدة : سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل : متى يصلى على السقط ؟ قال : إذا أتى عليه أربعة أشهر لأنه قد نفخ فيه الروح و لكن [حديث المغيرة بن شعبة المتقدم الذي رواه أحمد و النسائي و الترمذي و صححه : و السقط يصلى عليه] و [في رواية ابن ماجة و الطفل يصلى عليه] و لم يفرق بين أن يكون له أربعة أشهر أو أقل أو أكثر لكن لم أعلم أن أحدا ذهب إلى الصلاة على السقط مطلقا إلا سعيد بن المسيب و هو ظاهر الحديث لكن قيل : إن السقط ليس بميت لأنه لم ينفخ فيه الروح يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين [من حديث ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو الصادق المصدوق : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح] الحديث فإذا نفخ فيه الروح وجبت الصلاة عليه و بعث يوم القيامة و قد اختلف الناس في هذه الآثار فمنهم من أثبت الصلاة عليه و منع صحة حديث عائشة و غيره من الأحاديث كما قال الإمام أحمد و غيره و هذه المراسيل من حديث البراء يشد بعضها بعضا و منهم من ضعف حديث البراء لأجل جابر الجعفي و ضعف هذه المراسيل قال : حديث ابن اسحاق أصح منها قال أبو يعلى الموصلي : [حدثنا عقبة بن مكرم ثنا بشر بن

أبي بكر ثنا محمد بن عبيد الله الفزاري عن عطاء عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و
[سلم صلى على ابنه إبراهيم فكبر عليه أربعاً]

و قال محمد بن سعد كاتب الواقدي : [حدثنا محمد بن عمر - يعني الواقدي - قال :
حدثني أسامة بن زيد الليثي عن المنذر بن عبيد عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن
أمه سيرين قالت : حضرت موت إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما صحت
أنا و أختي ما نهانا فلما مات نهانا عن الصياح و غسله الفضل بن عباس و رسول الله صلى
الله عليه و سلم كإنسان ثم حمل فرأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم على شفة
القبر و العباس إلى جنبه و ترك في حفرة الفضل و أسامة بن زيد و أنا أبكي عند قبره ما
ينهاني أحد و خسفت الشمس ذلك اليوم فقال الناس : لموت إبراهيم فقال النبي صلى
الله عليه و سلم : إنها لا تخسف لموت أحد و لا لحياته و رأى رسول الله فرجة في اللب
فأمر بها أن تسد فليل لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : أما إنها لا تضرو و لا تنفع و
لكن تقر عين الحي و إن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه [و مات يوم الثلاثاء لعشر
ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر و هكذا رواه الحافظ بن عساكر في ترجمة عبد
الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه ثم قال : هذا حديث غريب ثم ساقه من طرق أخرى
من حديث الزبير بن بكار حدثني محمد بن طلحة عن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله بن
حارثة عن عبد الرحمن بن حسان فذكر نحوه و فيه مدرج يوم و فاته و شهره و سنته و
الظاهر - و الله أعلم - أنه من كلام الواقدي و لكن قيل : إن في بعض طرق هذا الحديث أنه
صلى عليه و لكن لم أره في هذين الطريقتين فالله تعالى أعلم بذلك
و قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : [حدثنا إبراهيم الشامي ثنا حماد عن ثمامة بن عبد الله
عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم صلى على صبي
[أو صببة و قال : لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي]

و قد روى أبو داود مراسلاً [عن عطاء بن أبي رباح أن النبي صلى الله عليه و سلم صلى
على ابنه إبراهيم و هو ابن سبعين ليلة] قال البيهقي - بعد أن ذكر مرسل البهي و قد
تقدم ذكره و مرسل عطاء هذا و غيرهما من أحاديث الصلاة على الأطفال قال : فهذه الآثار
و إن كانت مراسيل فبعضها يشد بعضاً و قد أثبتوا صلاة رسول الله صلى الله عليه و سلم
على ابنه إبراهيم و ذلك أولى من رواية من روى أنه لم يصل - يعني حديث عائشة
المتقدم المتصل و قد روي متصلاً أنه صلى عليه من حديث البراء بن عازب - وقد تقدم -
لكنه حديث لا يثبت لأنه من رواية الجعد و لا يحتج بحديثه و قال الخطابي و غيره : اختلف
في السبب الذي لأجله لم يصل قال بعضهم : إنما ترك الصلاة على ابنه لأنه استغنى
ببنوة رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الصلاة عليه التي هي شفاعة له كما استغنى

الشهيد بشهادته عن الصلاة عليه و قال غيره : إنما لم يصل عليه لأنه يوم مات إبراهيم - عليه السلام - كسفت الشمس فاشتغل بصلاة الكسوف عن الصلاة عليه و الله أعلم رجعنا إلى كلام الخطابي : ثم إنه ذكر مرسل عطاء و قال هذا أولى الأمرين و إن كان حديث عائشة أحسن اتصالا و قد اعتل من لم ير الصلاة على الأطفال بترك صلاة رسول الله صلى الله عليه و سلم الصلاة على ابنه و اشتغاله بنفل صلاة الكسوف و الجواب - و الله أعلم - عن ذلك : أن صلاة الكسوف كانت واجبة في حقه لأنه لو لم يصلها لم نعلمها نحن و أيضا و لو لم يقع ذلك لم نعلم كيفية صلاة الكسوف فصلاته كصلاة الكسوف على هذه الصفة دليل على أن الله أوحى إليه أن يشرعها لنا على هذه الصفة و يجب أن يبين كل ما { أنزل إليه من ربه لقوله تعالى : { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك

الباب الحادي عشر : في استحباب اصطناع الطعام لأهل المصيبة

و هذا الفعل من محاسن الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه و سلم : إن أهل الميت لا يتكلفون طبخ طعام لأحد من الناس [بل أمره صلى الله عليه و سلم للناس أن يصنعوا طعاما لأهل الميت و يرسلونه إليهم] هذا من أعظم مكارم الأخلاق و الشيم و الحمل عن أهل الميت إعانة لهم و جبرا لقلوبهم لأنهم في شغل بمصابهم عن إصلاح طعام لأنفسهم فكيف للناس و الاهتمام بأمرهم ؟ فإذا صنع الناس لهم الطعام المعروف و حملوه إليهم حصلت الراحة لأهل الميت من وجهين :

أحدهما : - شغلهم بمصابهم ثم بتجهيزه و غسله و تكفينه و الصلاة عليه و حمله و مواراته في حفرته ثم بعد ذلك إذا تفرغوا من هذه الأمور و حصل لهم سكون و دعة فإن هذه كفاية لهم عن شغلهم بالناس

الثاني : - عدم الخسارة فإن عدمها فيها تسلية لأهل الميت فإن في زماننا هذا ما يتواري الميت في حفرته حتى يخسر عليه دراهم كثيرة فلأن لا يجتمع عليه خسارتان أولى و قد وردت السنة بصنع الطعام لأهل الميت سواء فقد ميتهم في السفر أو في الحضر و سواء حصلت عليه خسارة أم لم تحصل فقد حصلت البشارة لمن صنع لهم طعاما و حمله إليهم أنه اتبع سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم و امتثل أمره فقد روى الإمام أحمد في مسنده [عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - قال جاء نعي جعفر - رضي الله عنه - حين قتل قال النبي صلى الله عليه و سلم : اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد أتاهم ما يشغلهم] و رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه

و عن أسماء بنت عميس قالت : لما أصيب جعفر - رضي الله عنه - رجع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أهله فقال : إن آل جعفر قد شغلوا بشأن ميتهم فاصنعوا لهم طعاما [رواه الإمام أحمد و ابن ماجه و هذا لفظه و يروى عن عبد الله بن أبي بكر أنه قال : ما زالت السنة فينا حتى تركها من تركها

الباب الثاني عشر : في الذبح عند القبور و كراهة صنع الطعام من أهل المصيبة

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا عقر [في الإسلام] رواه الإمام أحمد في حديث طويل هذا منه و أبو داود و روى الترمذي نحوه و قال حديث حسن صحيح غريب و رواه ابن حبان البستي و في رواية عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شيئا أما العقر عند القبور : هو الذبح عندها و هذا الفعل عندها فإنه من فعل الجاهلية وهو فعل محرم على هذه الأمة

و قوله عليه الصلاة و السلام : لا عقر في الإسلام [قال الخطابي : هو ما كان عليه أهل الجاهلية من عقر الإبل على قبور الموتى كانوا إذا مات الشريف الجواد عقروا عند قبره و كانوا يقولون : إن صاحب القبر كان يعقرها للأضياف يقرهم أيام حياته فيكافأ عليه بمثل صنيعه انتهى كلامه

و قال قوم : كانوا يعقرون الإبل عند القبور لتطعمها السباع و الطير عند قبر الميت فيدعى مطعما حيا و ميتا و قيل بل كان مذهبهم أن صدى الميت يصيب من ذلك الطعام فجاء الإسلام فمحا ذلك كله

و أما هذه البدعة الخبيثة فهي موجود قريب منها في غالب قرى البر و هو أن الشخص الذي توفي في بلده فإن أهل القرى التي حوله يأتون لأجل العزاء فيذبحون لهم من مال الميت المنتقل إلى ورثته من أيتام و صغار و غيرهما بل قد يذبحون البقرة أو نحوها من بهيمة الأنعام لا يكون للأيتام غيرها على ماشأهته و بلغني فنسأل الله أن يقبض لهذه البدعة من ولاة أمور المسلمين من يبطلها

حدثنا ابن هاشم ثنا الدبري عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس - رضي الله عنه [- أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا إسعاد ولا عقر في الإسلام] قد تقدم الكلام على العقر في الإسلام و قوله : لا إسعاد : فهو من إسعاد النساء في المناحات و هو أن تقوم المرأة في المأتم و تقوم معها أخرى فيقال قد أسعدتها و هو مسعد و [يروى في حديث آخر أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه و سلم فقالت : يا رسول الله إن فلانة أسعدتني أ فأسعدها ؟ فقال : لا و نهى عن النياحة بالإسعاد] و قال : إنها مأخوذة من وضع الرجل يده على ساعد صاحبه إذا تماشيا في حاجة

و أما صنع أهل الميت طعاما للناس فمكروه لأن فيه زيادة على مصيبتهم و شغلا لهم إلى شغلهم و تشبيها بصنع أهل الجاهلية فإنهم يتكلفون طبخ الطعام كما يفعل أهل البر في زماننا و قد تقدم فهذا من النياحة التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم لما

ثبت في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال : كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة رواه ابن ماجة و رواه سعيد بن منصور في سننه و لفظه : أن جريرا وفد على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : هل يباح على ميتكم ؟ قال : لا قال : فهل تتجمعون عند أهل الميت وتجعلون الطعام ؟ قال : نعم قال : ذاك النوح

و قال الشيخ موفق الدين - رحمه الله - في المغني : و إن دعت الحاجة إلى ذلك جاز فإنهم ربما جاءهم من يحضر ميتهم من القرى و الأماكن البعيدة و يبيت عندهم فلا يمكنهم إلا أن يضيفوه انتهى كلامه

قلت : و إذا دعت الحاجة إلى صنع الطعام من أهل الميت لمن يفد من القرى و نحوها إنما ذاك بشرط أن لا يكون من مال الأيتام خصوصا إذا لم يكن لليتيم سوى ذاك الحيوان فأما وفود أهل البادية على أهل الميت في قريتهم فالضيافة على أهل القرية إما واجبة أو مستحبة و ليست على أيتام الميت و الله تعالى أعلم

الباب الثالث عشر : في الثناء الحسن على الميت و ذكر محاسنه و السكوت عن مساويه
و اعلم أن من أطلق الله السنة الناس فيه بالخير و الثناء الحسن و الذكر الصالح و غير ذلك
من الأقوال الصالحة غلب على الظن أنه من أهل الخير و غير مستنكر إذا أحب عبدا أن
يلقي على السنة المسلمين الثناء الحسن عليه و في قلوبهم المحبة له قال الله تعالى :
{ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا

و ثبت أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : إن [الله يحب فلانا فأحبه قال : فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء : إن الله يحب فلانا فأحبه
قال : فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض] و ذكر في البغضاء مثل ذلك رواه
البخاري و مسلم

و قد شاهدنا في عصرنا هذا و بلغنا عن عصر غيرنا أن أقواما من العلماء و أهل الحديث و
التجار و السوقة كثر الثناء عليهم و صرفت قلوب الناس إليهم و حصلت الحفلة العظيمة في
جنائزهم من كثرة المشيعين لها و حضرها الألوف من الناس و ربما كثر الخلق في تشييع
هؤلاء من الجن و الملائكة و ربما سمع ضجة عظيمة من جهة السماء في حال حضور
الناس في الجنزة و لقد أخبرني شيخنا العلامة شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن
محمد الخطيب المقدسي بالجامع المظفري تغمده الله تعالى برحمته قال لي : سمعت
هذه الضجة من السماء مرارا لبعض الأموات كهيئة البشائر ثم قال : و حدثني بها جماعة
من أصحابنا أنهم سمعوا ذلك في بعض جنائز المتهمين بالصلاح و الله تعالى أعلم بذلك
و ذكر قاسم بن أصبغ قال : حدثنا أحمد بن زهير ثنا محمد بن يزيد الرفاعي قال : مات
عمرو بن قيس الملائي في ناحية فارس فاجتمع لجنائزته من الخلق ما لا يحصى كثرة فلما
دفن نظروا فلم يروا أحدا

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : مر بجنزة فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله [صلى الله عليه و سلم : و جبت و مر بجنزة فأتوا عليها شرا فقال نبي الله صلى الله عليه و سلم : و جبت فقال عمر - رضي الله عنه - : فذاك أبي وأمي يا رسول الله مر بجنزة فأتوا عليها خيرا فقلت : و جبت و مر بجنزة أثنوا عليها شرا فقلت : و جبت ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من أثنيتم عليه خيرا و جبت له الجنة و من أثنتم عليه شرا و جبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض أنتم شهداء الله في الأرض ثلاثا] و في لفظ
و جبت و جبت ثلاثا : رواه البخاري و مسلم [وفي رواية للبخاري فليل : يا رسول الله قلت
لهذا : و جبت ولهذا و جبت ؟ قال : شهادة القوم المؤمنين شهداء الله في الأرض

و لما مات الإمام أحمد بن حنبل قال الهيثم بن خلف : دفنا أحمد بن حنبل يوم الجمعة بعد العصر سنة إحدى وأربعين و مائتين و ما رأيت جمعا قط أكثر من ذلك و قال ابن أبي صالح القنطري : شهدت أربعين عالما ما رأيت جمعا قط مثل هذا ثم قال عبد الوهاب الوراق : ما بلغنا أن جمعا في جاهلية و لا إسلام مثل الجمع في جنازة أحمد حتى بلغنا أن الموضوع مسح و حزر على الصحيح فإذا هو نحو من ألف ألف و أما النساء فهو من ستين ألف امرأة و كلهم يشهدون له بالصلاح و الولاية و يرجون بالصلاة عليه البركة و يثنون عليه بأنواع الخير رحمة الله عليه

بشارة للمؤمن بعمله الصالح: فصل

و في الصحيح [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال : تلك عاجل بشرى المؤمن] و في رواية و يحبه الناس عليه قال العلماء : معناه : هذه البشرى المعجلة له بالخير هي دليل للبشرى المؤخرة إلى الآخرة لقوله تعالى : { بشراكم اليوم جنات } و هذه البشرى المعجلة دليل على رضى الله تعالى عنه و محبته له و محبته إلى الخلق و عن أبي سعيد - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا رأيتم [الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان] و في لفظ : فاشهدوا له بالخير قال الله تعالى : { إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك } الآية رواه الترمذي وقال : حديث حسن و شهادة الناس له بعد الموت بالخير هي الشهادة التي كانوا يشهدون له بها في حال الحياة و الله تعالى أعلم

في الكف عن ذكر مساوي الأموات: فصل

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تسبوا [الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا] رواه الإمام أحمد و البخاري و النسائي و عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا تسبوا [موتانا فتؤذوا أحياءنا] رواه أحمد و عن أبي رافع - أسلم مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم - قال : من غسل ميتا [فكتم عليه غفر الله له أربعين مرة] رواه الحاكم و قال : صحيح على شرط مسلم قال ابن السماك : إنما سيفك بين لحبيك تأكل به كل من مر عليك قد آذيت أهل الدور حتى تعاطيت أهل القبور أما أهل القبور فما ترى لهم و قد جرى البلاء على وجوههم و أنت هاهنا تنبشهم ويحك ! ما عندك من نبشهم إلا أخذ الخرق عنهم إذا ذكرت مساويهم فقد نبشتهم إنه لينبغي لك أن تترك القول في أخيك لخلال ثلاث : أما الأولى : فلعلك تذكره لأمر هو فيك و الثانية لعلك تذكره لأمر قد عافاك الله منه فهذا جزاؤه إذ عافاك ! أما تسمع ! إذ يقال : ارحم أخاك و احمد الذي عافاك ؟ و في أبي داود في الأدب و الترمذي في الجنائز [من حديث معاوية ابن هشام عن عمران بن أنس المكي عن عطاء عن ابن عمر - رضي الله عنهما - مرفوعا : اذكروا محاسن موتاكم] و كفوا عن مساويهم و قد [روى أبو داود مرفوعا أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من عير أخاه بذنب قد] تاب منه لم يمت حتى يفعله و أما من جهة الأموات فقد [روى ابن أبي الدنيا بإسناده أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا تذكروا موتاكم إلا بخير إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا و إن يكونوا من أهل النار] فحسبهم ما هم فيه

الباب الرابع عشر : في فرح العبد و تسليته بكونه من أمة محمد صلى الله عليه و سلم
أن لله علينا من النعم ما لا يحصيها إلا الله تعالى الذي هدانا للإسلام و جعلنا من أمة خير
الأنام فإن كل نبي من الأنبياء - صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين - فضل بشيء فنبينا
فضل به و زاد عليه و هو أول من تنشق عنده الأرض و أول شافع و أول مشفع و أول من
يقرع باب الجنة و قد ثبت في صحيح مسلم [عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال :
قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أنا أول الناس يشفع في الجنة و أنا أكثر الأنبياء
تبعا]

و عن أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يأتي معي من
أمتي يوم القيامة مثل السيل و الليل فيحطم الناس فتقول الملائكة : لما جاء مع محمد
أكثر مما جاء مع سائر الأنبياء [رواه البزار

و عن بريدة بن الحصيب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
أهل الجنة عشرون و مائة صف ثمانون منها من هذه الأمة و أربعون من سائر الأمم [رواه
الترمذي

و عن الطفيل بن أبي عن أبيه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا كان يوم القيامة [
كنت إمام النبيين و خطيبهم و صاحب شفاعتهم غير فخر] و رواه الترمذي

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [
يدخل الجنة من أممي سبعون ألفا بغير حساب مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا
[رواه مسلم

و عن الحذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال : غاب عنا رسول الله صلى الله عليه و [
سلم يوما فلم يخرج حتى ظننا أنه لن يخرج فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد
قبضت فلما رفع قال : إن ربي عز و جل استشارني في أممي ماذا أفعل بهم ؟ قلت : ما
شئت يا رب هم خلقك و عبادك فاستشارني الثانية فقلت له : كذلك ثم استشار في
الثالثة فقلت له : كذلك فقال : إني لم أخزك في أمتك و بشرني أن أول من يدخل الجنة
زمرا من أممي سبعون ألفا مع كل ألف في سبعون ألفا ليس عليهم حساب ثم أرسل إلي
ربي عز و جل : ادع تجب و سل تعطه فقلت لرسوله : أو معطني ربي عز و جل سؤلي ؟
قال : ما أرسل إليك إلا ليعطيك و قد أعطاني ربي غير فخر أنه غفر لي من ذنبي ما تقدم و
تأخر و شرح صدري و أعطاني أن لا تجوع أممي و لا تغلب و أنه أعطاني الكوثر و نهر في
الجنة يسيل من حوضي و أنه أعطاني العزة و النصر و الرعب و أنه أعطاني بأني أول

الأنبياء دخولا إلى الجنة و طيب لي و لأمتي الغنيمة و أحل لنا كثيرا مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج فلم أجد شكرا إلا هذه السجدة [رواه أبو بكر الشافعي

و قوله : [و لا تجوع أمتي] أي لا تجوع كلها فإن جاعت في أرض شبعت في أخرى و كذلك : [لا تغلب] أي كلها فإن غلبت في موضع غلبت في موضع آخر و الله أعلم

الباب الخامس عشر : في استحباب التعزية لأهل المصيبة والدعاء لميتهم

يقال : عزى الرجل عزاء : إذا صبره على ما نابه و التعزية : التصبر و عزيته : أمرته بالصبر و العزاء - بالمد - اسم أقيم مقام التعزية ذكره النووي و قال الأزهري : أصل التعزية : التصبر لمن أصيب بمن يعزى عليه و قال غيره : التعزية التسلية وهو أن يقال له : تعزى بعزاء الله و عزاء الله قوله تعالى : { الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون } و معنى قوله : تعزى بعزاء الله أي : تصبر بالتعزية التي عزاك الله تعالى بها كما في كتابه أو يقال : لك أسوة في فلان فقد مضى حميمه و أليفه فحسن صبره و أصل العزاء : الصبر و الله أعلم عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده عن النبي صلى [الله عليه و سلم قال : ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا كساه الله عز و جل من حلل الكرامة يوم القيامة] رواه ابن ماجة و صححه الشيخ و قال : رواه كلهم ثقات و عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من عزى [مصابا فله مثل أجره] و رواه ابن ماجة و الترمذي و قال : لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث علي بن عاصم و ذكر أنه روي موقوفا و علي بن عاصم ضعف و عن أبي برزة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من عزى [تكلى كسي بردا في الجنة] قال الترمذي : إسناد هذا الحديث ليس بالقوي و المقصود من التعزية : تسلية أهل المصيبة و قضاء حقوقهم و التقرب إليهم بقضائها قبيل الدفن و بعده لشغلهم بمصائبهم

فصل - في استحباب تعزية أهل الميت و وقتها

و يستحب تعزية أهل الميت و هي مسألة متفق عليها و لم أعلم أن أحدا خالف فيها إلا سفيان الثوري - رحمه الله - قال : لا تستحب التعزية بعد الدفن لأنها خاتمة أمره و المعروف المستقر عند أهل العلم استحباب التعزية قبل الدفن وبعده لما تقدم من الأحاديث قريبا مثل [عموم قوله عليه السلام : من عزى مصابا فله مثل أجره من عزى ثكلى كسي بردا في الجنة] فكل هذه عمومات تدل على الاستحباب مطلقا

فيمن يكره تعزيتهم من أهل الميت وخاصة من النساء: فصل

و يستحب تعزية جميع أهل المصيبة كبارهم و صغارهم و يخص خيارهم و المنظور إليه من بينهم ليستن به غيره و ذا الضعف منهم عن تحمل المصيبة لحاجته إليها و لا يعزي الرجل الأجنبي شواب النساء مخافة الفتنة و يجوز للمرأة البرزة و نحوها و ثبت أن عائشة - رضي الله عنها - نهت على الضحك في المصيبة لأن فيه إشماتة بالمسلم و كسرا لقلبه و لهذا رأى الإمام أحمد رجلا يضحك في جنازة فهجره و قال : أي موعظة اتعظ هذا ؟ ! أو نحوه

فيما يفعله بعض الناس من الجلوس عند القبر يوم الدفن و بعده: فصل

و ما يفعله غالب أهل زماننا من الجلوس عند القبر يوم الدفن للتعزية و كذلك في اليوم الثاني و الثالث

قال أبو الخطاب : يكره الجلوس للتعزية و قال : ابن عقيل : يكره الإجتماع بعد خروج الروح لأن فيها تهييجا للحزن و قال الإمام أحمد : - رحمه الله - : يكره التعزية عند القبر إلا لمن لم يعز فيعزي إذا دفن الميت أو قبل أن يدفن و قال أحمد : إن شئت أخذت بيد الرجل في التعزية و إن شئت لم تأخذ و إذا رأى الرجل قد شق ثوبه على المصيبة عزاه ولم يترك حقا لباطل و إن نهاه فحسن

قلت : إن كان الإجتماع فيه موعظة للمعزى بالصبر و الرضى و حصل له من الهيئة الإجتماعية تسلية بتذكريهم آيات الصبر و أحاديث الصبر و الرضى فلا بأس بالإجتماع على هذه الصفة فإن التعزية سنة سنها رسول الله صلى الله عليه و سلم لكن على غير الصفة التي تفعل في زماننا من الجلوس على الهيئة المعروفة اليوم لقراءة القرآن تارة عند القبر في الغالب و تارة في بيت الميت و تارة في المجامع الكبار فهذا بدعة محدثة كرهه السلف كما تقدم لكن فيه تسلية لهم وإشغال لهم عن الحزن و الله أعلم

فيما يجوز أن يلبسه المصاب وزيه: فصل

و أما قول أصحابنا و غيرهم من الفقهاء ففي غالب كتبهم يذكرون أنه لا بأس أن يجعل المصاب على رأسه ثوبا يعرف به و بعض أصحابنا المقادسة يرخي عذبة من غير عادة قالوا : لأن التعزية سنة و في ذلك تيسير لمعرفة حال التعزية و أنكر هذا الفعل شيخ الإسلام ابن تيمية و قال : لا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيء من ذلك و لا نقل في هذا عن أحد من الصحابة و التابعين و ثم آثار صريحة تأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى تقوي هذا القول و قد كره إسحاق بي راهوية أن يترك لبس ما عادته لبسه و الله أعلم

في أن التعزية قبل الدفن أو بعده: فصل

و قد ذكر الشيخ موفق الدين و غيره من أصحابنا في غالب الكتب : أن التعزية تجوز قبل الدفن و بعده و أنه يقول في تعزية المسلم بالمسلم : أعظم الله أجرك و أحسن عزاءك و رحم ميتك و في تعزيتة بكافر : أعظم الله أجرك و أحسن عزاءك و توقف أحمد - رحمه الله - عن تعزية أهل الذمة و هي تخرج على عيادتهم في أمراضهم و فيها روايتان :

إحداهما - يعودههم لأنه [روي أن غلاما من اليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه و سلم فأتاه النبي صلى الله عليه و سلم يعوده ففعد عند رأسه فقال له : أسلم فنظر إلى أبيه و هو عند رأسه فقال : أطع أبا القاسم فأسلم فقام النبي صلى الله عليه و سلم و هو يقول : الحمد لله الذي أنقذه من النار] رواه البخاري و لكن الحكمة في العيادة منتفية في التعزية و هو رجاء إسلامه و الله تعالى أعلم

و الرواية الثانية - لا يجوز [لأن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا تبدؤوهم بالسلام] قال بجواز تعزيتهم عن مسلم يقال له : أحسن الله عزاءك و غفر لميتك و عن كافر : أخلف الله عليك و لا نقص عددك و يقصد زيارة عددهم لتكثر جزيتهم و قال أبو عبد الله بن بطة : لا بأس أن يقول في تعزية الكافر : أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطي أحد من أهل ملتك و قد روى أبو عبد الله المرزباني بإسناده عن الحسن نحو ما قال ابن بطة و لكن لفظه : أجزاك الله على مصيبتك بأعظم مما جازى به أحد من أهل ملتك

و روى أبو موسى المدني بإسناده [عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا دعوتهم لأحد من اليهود أو النصارى فقولوا : أكثر الله مالك و ولدك]

في الألفاظ التي وردت في التعزية عن النبي: فصل

ولم يرد في التعزية شيء محدود إلا أنه يروى [أن النبي صلى الله عليه و سلم عزى رجلا فقال : رحمك الله وأجرك] رواه الإمام أحمد و عزى أحمد أبا طالب فتوقف على باب المسجد فقال : أعظم الله أجرك و أحسن عزاءك
و عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم [وجاءت التعزية سمعوا قائلا يقول : إن في الله عزاء من كل مصيبة و خلفا من كل هالك و دركا من كل ما فات فبالله فثقوا و إياه فارجعوا فإن المصاب من حرم الثواب] و رواه الشافعي في مسنده

و روى الحاكم في مستدرکه و قال : صحيح الإسناد [من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم أحدق به أصحابه فبكوا حوله فاجتمعوا فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : إن في الله عزاء من كل مصيبة و عوضا من كل فائت و خلفا من كل هالك فإلى الله فأنبيوا و إليه فارغبوا و نظره إليكم في البلاء فانظروا فإنما المصاب من لم يجبر و انصرف فقال بعضهم لبعض : تعرفون الرجل ؟ قال : أبو بكر وعلي : نعم هذا أخو رسول الله صلى الله عليه و سلم الخضر عليه السلام
و روى الحاكم [من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - لما توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم جاءتهم الملائكة يسمعون الحس و لا يرون الشخص قالت : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته إن في الله عزاء من كل مصيبة و خلفا من كل فائت فبالله فثقوا و إياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب و السلام عليكم ورحمة الله و بركاته] وحسنه الحاكم

و سيأتي كلام السلف - رحمهم الله في التعازي بألفاظ مختلفة فتارة مطولة و تارة وجيزة بليغة كما سأذكره قريبا إن شاء الله

فيما يقال عند العلم بوفاة أحد المؤمنين: فصل

و من بلغه وفاة أحد من المؤمنين فليحسن الاسترجاع و التثبيت فقد روى الطبراني بإسناده [عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال النبي صلى الله عليه و سلم : إن للموت فرعا فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فليقل : إنا لله و إنا إليه راجعون و إنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه في المحسنين و اجعل كتابه في عليين و اخلف عقبه [في الآخرين اللهم لا تحرمنا أجره و لا تفتنا بعده] و في حديث أبي سلمة : لما مات شق بصره فأغمضه النبي صلى الله عليه و سلم ثم [قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر فصاح ناس من أهله فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة و ارفع درجته في المهديين و اخلفه في عقبه في الغابرين و اغفر لنا و له يا رب العالمين و افسح له في قبره و نور له فيه] رواه مسلم و روي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما بلغه وفاة أبي بكر - رضي الله عنه - قال : رضينا من الله قضاة و سلمنا له أمره إنا لله و إنا إليه راجعون قال سعيد بن منصور في سننه : [حدثنا يوسف بن عطية الصفار قال جلست إلى عطاء بن ميمونة و هو يعزي رجلا فقال : حدثنا أنس بن مالك أن رجلا كان يجيء بصبي له معه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أن الغلام مات فاحتبس أبوه عن النبي صلى الله عليه و سلم فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا : مات صبيه الذي رأيت معه فقال : أفلا أذنتموني ؟ ! فقوموا إلى أخينا نعزيه فلما دخل عليه إذا الرجل حزين و به كآبة فعزاه فقال : يا رسول الله كنت أرجوه لكبر سني و ضعفي فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أما يسرك أن يكون يوم القيامة بإزاتك ؟ يقال له : ادخل الجنة فيقول رب و ! أبواي ؟ و لا يزال يشفع حتى يشفعه الله عز و جل فيكم و يدخلكم جميعا الجنة ؟]

فصل - فيما نقل إلينا من ألفاظ التعزية عن السلف و الخلف

فقد روى الطبراني في كتاب الدعاء بإسناده [عن محمود بن لبيد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه - أنه مات ابن له فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم يعزيه بابنه فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فأعظم الله لك الأجر و ألهمك الصبر و رزقنا و إياك الشكر فإن أنفسنا و أموالنا و أهلينا و أولادنا من مواهب الله الهنية و عواريه المستودعة متعك الله به في غبطة و سرور و قبضه منك بأجر كثير الصلاة و الرحمة و الهدى إن احتسبته بالصبر و لا يحبط جزعك أجرك فتندم على ما فاتك من ثواب مصيبتك فإنك لو اطلعت على ثواب مصيبتك لعرفت أن المصيبة قد قصرت عن الثواب - و هذه الزيادة في بعض طرقه - ثم قال : و ما هو نازل بك فكأن قد و السلام] و رواه الحاكم في المستدرک و قال : غريب حسن و رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في كتاب الأدعية [و عنده : فليذهب أسفك ما هو نازل بك] و [لفظ الحاكم : فإن أنفسنا و أموالنا و أهلينا و أولادنا من مواهب الله الهنية و عواريه المستودعة نتمتع به إلى أجل معدود و يقبضها لوقت معلوم ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى و الصبر إذا ابتلى] و باقي الحديث كما ساقه الطبراني و الله أعلم و رأيت في جزء لا أعرف مؤلفه و ليس له أول : قال زيد بن أسلم : مات ابن لداود عليه السلام فجزع عليه فعزوه فيه فقيل له : ما كان يعدل عندك ؟ قال : كان أحب إلي من ملء الأرض ذهباً فقيل له : فإن لك من الأجر على قدر ذلك و في اسرائيليات : أن سليمان بن داود - عليهما السلام - مات له ولد فجزع عليه حتى عرف ذلك في مصابه فتحاكم إليه ملكان في صورة رجلين فقال أحدهما : إن هذا بذر بذرا في طريق الناس فمررت فأفسدته فقال سليمان للآخر : لم بذرت في الطريق ؟ أما علمت ! أنه لا بد من ممر ؟ فقال : و لم تحزن أنت على ابنك و هذا طريق الناس إلى الآخرة ؟ و عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال : أرسلت ابنة النبي صلى الله عليه و سلم [إليه أن ابنا لي قد قبض فأتنا فأرسل يقرأ السلام و يقول : إن لله ما أخذ و له ما أعطى و كل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر و لتحتسب] رواه مسلم و أبو داود و النسائي و ابن ماجه

و قال وهب بن منبه : قرأت في بعض كتب الله تعالى يقول : لولا أني جعلت الميت ينتن [على أهله ما دفن ميت و لولا أني جعلت الطعام يفسد لاحتجبه الملوك و لولا أني أتى [بالعزاء بعد المصيبة ما عمرت الدنيا

و قال الحسن البصري - رحمه الله - : ما من جزعتين أحب إلى الله من جزعة مصيبة موجعة محرقة ردها صاحبها بحسن عزاء و صبر و جزعة غيظ ردها صاحبها بحلم و قد روي عن شمر أنه كان إذا عزی مصابا قال : اصبر لما حكم ربك و قال ابن أبي الدنيا : حدثني عبد الله بن محمد بن إسماعيل التيمي أن رجلا عزی رجلا على ابنه فقال : إنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجیعة بالأجر فإنها أعظم مصيبتين عليك و السلام و عزی ابن السماك رجلا فقال : عليك بالصبر فيه يعمل من احتسب و إليه يصير من جزع و قال عمرو بن دينار : قال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين و يحزن القلب و لكن الجزع : القول السيئ و الظن السيئ

و قال خالد بن أبي عثمان القرشي : كان سعيد بن جبیر يعزيني على أبي فرآني أطوف بالبيت متقنعا فكشف القناع عن رأسي و قال : الاستتار من الجزع و روى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي - رحمه الله - : أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا فبعث إليه الشافعي يقول له : يا أخي عز نفسك بما تعزي به غيرك و استقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك و اعلم أن أمض المصائب فقد سرور و حرمان أجر فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب و زر ؟ فتناول حظك - يا أخي - إذا قرب منك قبل أن تطلبه و قد تناءى عنك ألهمك الله عند المصائب صبرا و أحرز لنا بالصبر أجرا ثم أنشده :

(إنني معزيك لا أني على ثقة ... من الخلود و لكن سنة الدين)

(فلا المعزى بباقي بعد ميته ... ولا المعزى ولو عاشا إلى حين)

: و مات ابن للشافعي - رحمه الله - فجأؤوا يعزونه فأنشد

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له)

(رزية مال أو فراق حبيب ...)

دخل بعض الأعراب على بعض ملوك بني العباس و قد توفي له ولد اسمه العباس فعزاه : فيه فقال :

(اصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية عند صبر الراس)

(وخير من العباس أجرك بعده ... و الله خير منك للعباس)

: و ذكر أبو علي الحسن بن أحمد بن البنا بإسباده أن شخصا من الحكماء أنشده

... إذا دام ذا الدهر لم يحزن على أحد)

(ممن يموت و لم يفرح بمولود)

و قال ابن أبي الدنيا : حدثنا الحسين حدثنا عبد الله حدثنا محمد بن مسلمة القاسمي - و

كان قد قارب المائة - قال : وعظ عابد جبارا فأمر به فقطعت يداه ورجلاه و حمل إلى متعبده فجاءه إخوانه يعزونه فقال : لا تعزوني و لكن هنتوني بما ساق الله إلي ثم قال : إلهي أصبحت في منزلة الرغائب أنظر إلى العجائب إلهي أنت تتودد بنعمتك إلي من يؤذيك ! فكيف لا تتودد إلي من يؤذى فيك ؟

و ذكر عن سليمان بن حبيب قال : لما مات عبد الله بن عمر بن عبد العزيز دخل عليه هشام فعزاه عنه فقال عمر : و أنا أعوذ بالله أن يكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله عز و جل فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي و إحسانه إلي و في رواية أخرى قال : لما مات ابنه عبد الملك و أخوه سهل و مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز في أيام متتابعة دخل عليه الربيع بن سبرة فقال : أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين فما رأيت أحدا أصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة و الله ما رأيت مثل ابنك ابنا و لا مثل أخيك أخا و لا مثل مولاك مولى قط فطأطأ رأسه فقال لي رجل معه على الوساد : لقد هيجت عليه قال : ثم رفع رأسه فقال : كيف قلت ؟ ! فأعدت عليه ما قلت فقال : لا و الذي قضى عليهم بالموت ما أحب أن شيئا من ذلك لم يكن

و عن بشر بن عبد الله قال : قام عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال : رحمك ! الله يا بني فقد كنت سارا مولودا و بارا ناشئا و ما أحب أني دعوتك فأجبتني و لما توفيت الياقوتة بنت المهدي جزع عليها جزعا لم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه و أمر أن لا يحجب عنه أحد فأكثر الناس في التعازي و اجتهدوا في البلاغة فأجمعوا أنهم لم يسمعو تعزية أوجز و لا أبلغ من تعزية شبيب بن شبة فإنه قال : أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرا و أعقبك خيرا و لا أجهد بلاءك بنقمة و لا نزع منك نعمة ثواب الله خير لك منها و رحمة الله خير لها منك و أحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده و في رواية قال : يا أمير المؤمنين الله خير لك منها و أنا أسأل الله أن لا يحزنك و لا يفتنك و قد روى مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد عن القاسم قال : هلكت امرأة لي فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني بها فقال : إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد و كانت له امرأة و كان بها معجبا و كان لها محبا فماتت فوجد عليها وجدا شديدا و تأسف عليها تأسفا شديدا حتى خلا في بيت و أغلق على نفسه و احتجب و إن امرأة سمعت به فجاءته فقالت : إن لي إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزيني إلا مشافهته فذهب الناس و لزمت بابه و قالت : ما لي منه بد فقال له قائل : إن ها هنا امرأة أرادت أن تستفتيك قال : ائذنوا لها فدخلت فقالت : إني استعرت من جارة لي حليا و كنت ألبسه و أعيره فلبث عندي زمانا ثم إنهم أرسلوا إلي فيه فأرده إليهم ؟ قال : نعم و الإله قالت : إنه مكث عندي زمانا ؟ ! قال : فذاك أحق لردك إياه إليهم قالت : أفتتأسف على ما أعارك الله

ثم أخذه منك و هو أحق به منك ؟ فأبصر ما هو فيه و نفعه الله تعالى بقولها
و عزى عمرو بن عبيد يونس بن عبيد على ولد له مات فقال : إن أباك كان أصلك و إن ابنك
كان فرعك و إن امرءا ذهب أصله و فرعه لحري أن يقل بقاؤه
و عزى صالح المري رجلا قد مات ولده فقال : إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة في نفسك
فنعم المصيبة مصيبتك و إن كانت لم تحدث لك عظة في نفسك فمصيبتك بنفسك أعظم
من مصيبتك بابنك

و عزى رجل رجلا فقال : يا أخي العاقل يصنع في أول يوم ما يفعله الجاهل بعد عام
و عزى رجل رجلا فقال : عليك بتقوى الله و الصبر فيه فإنه يأخذ المحتسب و إليه يرجع
الجازع

و عزى رجل رجلا فقال : إن من كان لك في الآخرة أجرا خير ممن كان لك في الدنيا سرورا
وعن ابن جريح قال : من لم يتعز عند مصيبتة بالأجر و الاحتساب سلا كما تسلو البهائم
قال بعض السلف و قد عزى مصابا : إن صبرت فهي مصيبة واحدة و إن لم تصبر فهما
مصيبتان

و ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن ميمون بن مهران قال عزى رجل عمر بن عبد العزيز -
رحمة الله عليه - على ابنه عبد الملك فقال عمر : الأمر الذي نزل بعبد الملك أمر كنا نعرفه
فلما وقع لم ننكره

و روى ابن أبي الدنيا بإسناده قال : مات ابن رجل فحضره عمر بن عبد العزيز فكان رجل
حسن العزاء فقال رجل من القوم : هذا و الله الرضا فقال عمر بن عبد العزيز : أو الصبر قال
سليمان : الصبر دون الرضا الرضا : أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضيا بأي ذلك كان و
الصبر : أن يكون بعد نزول المصيبة فيصبر

و ذكر الحافظ بن عساكر : قال إبراهيم بن خالد : كتب محمد بن إدريس الشافعي إلى رجل
من إخوانه من قريش يعزيه بآبى أصيب به : اعلم يا أخي أن كل مصيبة لا يجبر صاحبها
ثوابها فهي المصيبة العظمى فكيف رضيت يا أخي بابنك فتنة ولم ترض به نعمة ؟ و كيف
رضيت به مفارقا و لم ترضى به خالدا ؟ و كيف رضيت على التعريض من الفساد ولم ترضى
به على اليقين من الصلاح ؟ بل كيف لك بمقت منعم ولم تعرف له نعمة ؟ يريك ماتحب و
يرى منك ما يكره ؟ ارجع إلى الله عز و جل و تعز برسول الله صلى الله عليه و سلم و
تمسك بدينك و السلام

و ذكر أيضا بإسناده قال : كتب رجل إلى أخ له يعزيه بابنه : أما بعد فإن الله تعالى وهب لك
موهبة جعل عليك رزقه و مؤنته و أن تخشى فتنته فاشتد لذلك فرحك فلما قبض موهبته و
كفأك مؤنته اشتد لذلك حزنك أقسم بالله إن كنت تقيا لهنتت على ما عزيت عليه و لعزيت

على ما هنتت عليه فإذا أتاك كتابي هذا فاصبر نفسك عن الأمر الذي لا صبر لك على عقباه و اصبر نفسك عن الأمر الذي لا غنى بك عن ثوابه و اعلم أن كل مصيبة لم يذهب فرح ثوابها حزنها فذلك الحزن الدائم و السلام

عن عبد الله بن صالح العجلي قال : كتب ابن السماك إلى رجل يعزيه عن مولود له مات : أما بعد فإن استطعت أن يكون شكرك حين قبضه الله عز و جل منك أكثر منه حين وهبه لك فافعل فقد أحرز لك هبته حيث قبضه و لو بقي لم تسلم من فتنته رأيت حزنك على فراقه و تلهفك على ذهابه ! أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك أما هو فقد خلس من الكدر و بقيت أنت معلقا بالخطر و المصيبة إن جزعت فهي واحدة إن صبرت و مصيبتان إن لم تصبر فلا تجمع الأمرين على نفسك و السلام

و كتب رجل إلى بعض إخوانه يعزيه بابنه : أما بعد فإن الولد على والده ما عاش حزن و فتنة فإذا قدمه فصلاة و رحمة فلا تجزع على ما فاتك من حزنه و فتنه و لا تضع ما عوضك الله من صلواته و رحمته

و قال موسى بن المهدي لإبراهيم بن مسلم و عزاه بابنه : أسرك و هو بلية و فتنة ؟ و ! أحزنك و هو صلوات و رحمة ؟

و قد روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه دفن ابنا له فضحك عند قبره فقيل له : أتضحك عند قبر ؟ ! قال : أردت أن أرغم الشيطان

و مات للحافظ بن عساكر ولد لم يحتلم - و كان ولدا حسنا - قال الحافظ : فحمدت الله و لم أظهر لموته جزعا و لا قلقا و لم أحالف لذهابه هلعا و لا أرقا ولم أترك لحزنه مجلس التحديث و لم أمتنع لأجله من الانبساط و الحديث و ما كان ذلك إلا بتوفيق الله و إعانتة و حسن عصمته من الجزع و صيانتة فله الحمد إذ لم يحبط أجري فيه بجزعي ولم يذهب صبري عنه بهلعي لأن المحروم من حرم عظيم الثواب و الملووم من جزع لأليم المصاب و أعجب من تصبري : لما عزاني بعض إخواني حضني على الصبر و قال لي : مررت بك يوم ثانية و أنت تحدث الجماعة فتعجبت من انشراح صدرك للتحديث تلك الساعة فقلت له : إن الجزع لا يرد فائتا و لا ذاهبا و الحزن لا يرجع هالكا و لا عاطبا و البكاء لا يجدي صرفا لمسلم و لا نفعا و القلق لا يفيد دركا لخطب و لا دفعا و الاحتيال لا يوجب لهالك ضرا و لا نفعا و إذا كان الأمر بهذه الصفة و الحال هكذا عند أهل المعرفة فالصبر أحرى بذوي الحجى و أليق بأولي الدين و النهى

الباب السادس عشر : في وجوب الصبر على المصيبة

قال الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وابطوا و اتقوا الله لعلكم تفلحون } و قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة إن الله مع الصابرين } و قال تعالى : { ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم } و الآيات التي فيها الأمر بالصبر كثيرة جدا معروفة

قال الإمام أحمد : ذكر الله سبحانه و تعالى الصبر في القرآن في تسعين موضعا اعلم أن حقيقة الصبر عند أرباب التصوف : خلق فاضل من أخلاق النفس يمنع به من فعل مالا يحسن و لا يجمل و هو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها و قوام أمرها قال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه و احتسابه عند الله و رجاء ثوابه و قد يجزع الرجل و هو متجلد لا يرى منه إلا الصبر و قد تقدم [حديث أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم و إرسال بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن ابني قد احتضر فاشهد فأرسل يقرأ السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر وتحتسب] الحديث أمرها بالصبر

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : مر النبي صلى الله عليه و سلم بامرأة تبكي [عند قبر فقال : اتقي الله واصبري فقالت : إليك عني فإنك لم تصب بمصيبي - ولم تعرفه - فقبل لها : إنه النبي صلى الله عليه و سلم فأتت باب النبي صلى الله عليه و سلم فلم تجد عنده بوابين فقالت : لم أعرفك فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى] رواه البخاري و مسلم و [في رواية : تبكي على صبي لها فقال : إنما الصبر عند أول صدمة] و هذا يشبه [قوله عليه الصلاة والسلام : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب] فإن مفاجئة المصيبة بغته لها روعة تززع القلب و تزعجه بصدمة فإن صبر للصدمة الأولى انكسرت حدتها و ضعفت قوتها فهان عليه استدامه الصبر كذلك الغضب و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يقول الله [عز وجل : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة] رواه البخاري

و عن عائشة - رضي الله عنها - أنها سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الطاعون [فأخبرها : أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له

إلا كان له مثل أجر الشهيد [رواه البخاري و رواه الإمام أحمد من حديث عائشة أيضا بلفظه

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين وإنما اختلفوا في وجوب الرضا انتهى كلامه فالصبر واجب من حيث الجملة و لكنه يتأكد بحسب الأوقات فهو في زمن الطاعون أكد منه في غيره فإنه إذا صبر على الإقامة في البلد الذي وقع فيه الطاعون و صبر عند موت أولاده أو أفراره أو أصحابه و صبر أيضا عند مصيبته بنفسه و علم يقينا أن الآجال لا تقديم فيها و لا تأخير و أن الله تعالى كتب الآجال في بطون الأمهات كما ثبت في الصحاح : كتب رزقه و أجله و شقي هو أم سعيد فلا زيادة ولا نقص إلا في صلة الأرحام ففيها خلاف معروف بين أهل العلم فإذا صبر واحتسب لم يكن له ثواب دون الجنة و إذا جزع ولم يصبر أثم و أتعب نفسه ولم يرد من قضاء الله شيئا و لقد ضمن الوافي الصادق الناطق في محكم كتابه حيث قال عن الصابرين : أنهم يوفون أجرهم بغير حساب و أخبر أنه معهم بهدايته و نصره العزيز و فتحه المبين فقال تعالى : { إن الله مع الصابرين } فذهب الصابرون بهذه المعية التي هي خير الدنيا و الآخرة و شارك بعض الأنبياء في قوله : { إنني معكما أسمع و أرى } و أخبر تعالى أن الصبر خير لأهله خيرا مؤكدا فقال تعالى : { و لئن صبرتم لهو خير للصابرين } و أخبر أن الصبر مع التقوى لا يضر معه كيد الأعداء أبدا فقال : { و إن تصبروا و تتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط

الباب السابع : فيما ورد بالصبر على المصيبة

قال الله تعالى : { وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون } و قال تعالى : { و لمن صبر و غفر إن ذلك لمن عزم الأمور } و قال تعالى : { ونبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم } والصابرين ونبلو أخباركم

و هذا باب متسع جدا في الآيات و الأحاديث و إنما نذكر منه ما يوقظ الساهي و ينبه الغافل و قد تقدم حديث أم سلمة من غير وجه من رواية الإمام أحمد و مسلم و غيرهما [و عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الطهور شطر الإيمان و الحمد لله تملأ الميزان و سبحان الله و الحمد لله تملآن ما بين السموات و الأرض و الصلاة نور و الصدقة برهان و الصبر ضياء و القرآن حجة لك أو عليك] الحديث رواه مسلم

و رواه أبو داود من طريق أخرى بلفظ غريب : [أن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقل : إنا لله و إنا إليه راجعون اللهم عندك احتسبت مصيبتني فأجرني بها و أبدلني خيرا منها فلما احتضر أبو سلمة قال : اللهم أخلصني في أهلي خيرا مني فلما قبض قالت أم سلمة : إنا لله و إنا إليه راجعون عند الله احتسبت مصيبتني فأجرني فيها] فانظر رحمك الله إلى ما آلت إليه حين احتسبت و صبرت و رضيت و ركنت و اتبعت السنة و قد تقدم نحو ذلك

و عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم فاعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم و من يستعف يعفه الله و من يستغن يغنه الله و من يتصبر يصبره الله و ما أعطي أحد عطاء خيرا و أوسع من الصبر] رواه البخاري و مسلم

و عن صهيب بن سنان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [عجبا لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له] رواه مسلم

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم [يقول : إن الله عز و جل قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة] - يريد عينيه - رواه البخاري

و عن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس - رضي الله عنهما - ألا أريك امرأة من [أهل الجنة ؟ فقلت : بلى قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه و سلم فقالت : إني أصرع و إني أتكشف فادع الله تعالى لي فقال : إن شئت صبرت و لك الجنة و إن شئت دعوت الله أن يعافيك فقالت أصبر ثم قالت : إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها] رواه البخاري و مسلم

و عن أبي سعيد و أبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [ما يصيب المسلم من نصب و لا وصب و لا هم و لا حزن و لا أذى و لا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها] رواه البخاري و مسلم اللهم : على المستقبل و الحزن : على الماضي و النصب : التعب و الوصب : المرض

و روي في حديث أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لا يصيب [العبد نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب و ما يعفو الله عنه أكثر قال : و قرأ { و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير }] و روي [من حديث عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : المسلم الذي يخالط الناس و يصبر على أذاهم خير من [المؤمن الذي لا يخالط الناس و لا يصبر على أذاهم

و عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من يرد [الله به خيرا يصب منه] رواه البخاري قوله يصب بفتح الصاد و كسرهما و في الصحيح [أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قسم مالا فقال بعض الناس : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : رحم الله [أخي موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر

و قال عبد الرزاق : حدثنا الثوري عن سفیان العصفري عن سعيد بن جبیر أنه قال : في قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة إن الله مع الصابرين } قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الصبر ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام : { يا أسفى [على يوسف

و روى سعيد بن منصور في سننه : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس - رضي الله عنهما - نعي إليه أخوه قثم و هو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ ثم صلى ركعتين فأطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته و هو يقول : { و استعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة إلا على [الخاشعين

و قال هشيم : حدثنا خالد بن صفوان قال : حدثني زيد بن علي أن ابن عباس كان في مسير له فنعي إليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع و قال : فعلنا كما أمرنا الله : {

{ و استعينوا بالصبر و الصلاة }

و قال أبو الفرج بن الجوزي : روي عن أم كلثوم - و كانت من المهاجرات أنه لما غشي على زوجها عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - خرجت إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر و الصلاة

و حكى سعيد بن منصور عن الحجاج عن ابن جريح { و استعينوا بالصبر و الصلاة } قال :
إنهما معونتان على رحمة الله

و عن - ابن مسعود - رضي الله عنه قال : دخلت على النبي صلى الله عليه و سلم و هو [يوعك فقلت يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا قال : أجل إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم قلت : ذلك أن لك أجرين ؟ قال : أجل ذلك مامن مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقه إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها] رواه البخاري و مسلم و الوعك : مغث الحمى و قيل : الحمى

و عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه و [سلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين و يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه و عظمه ما يصدده ذلك عن دينه و الله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه و لكنكم تستعجلون] رواه البخاري

و في الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء و [إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمنرضي فله الرضى و من سخط فله السخط] قال الترمذي : حديث حسن

و عن أنس - رضي الله عنه - قال : كان ابن لأبي طلحة - رضي الله عنه - يشتكي فخرج [أبو طلحة فقبض الصبي فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم - و هي أم الصبي - : هو أسكن ما كان فقدمت له العشاء فتعشى ثم أصاب منها فلما فرغ منها قالت : واروا الصبي فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخبره فقال :

أعرستم الليلة ؟ قال : نعم ! قال : اللهم بارك لهما فولدت غلاما فقال لي أبو طلحة :
احمله حتى تأتي به النبي صلى الله عليه و سلم و بعث معه تمرات فقال : أمعه شيء ؟
قال : نعم تمرات فأخذها النبي صلى الله عليه و سلم فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي و حنكه و سماه عبد الله [رواه البخاري و مسلم و في رواية البخاري : قال ابن عيينة : فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن - يعني من أولاد عبد الله -

وفي رواية لمسلم : مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا [طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه فجاء فقربت إليه عشاء فأكل و شرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها فلما رأت أنه قد شبع و أصاب منها قالت : يا أبا طلحة أ رأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا فقالت احتسب ابنك فغضب ثم قال : تركتيني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتيني ؟ ! فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخبره بما كان فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بارك الله في ليلتكما قال : فحملت [و ذكر تمام الحديث و قد تقدم و عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما يزال [البلاء بالمؤمن و المؤمنة في نفسه وولده و ماله حتى يلقي الله تعالى و ما عليه خطيئة [رواه الترمذي و قال : حديث حسن صحيح

و عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين و يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان و لا ينشر لهم ديوان و يصب عليهم الأجر صبا بغير حساب ثم قرأ { إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب } حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل [رواه ابن منجويه في تفسيره و روى مالك بن أنس في الموطأ [من حديث عطاء بن يسار أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين فقال : انظرا ماذا يقول لعواده ؟ فإن هو إذا جاؤوه حمد الله و أثنى عليه رفعا ذلك إلى الله - و الله أعلم - فيقول : لعبدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه و دما خيرا من دمه و أن [أكفر عنه سيئاته

فصل - في كلام السلف في الصبر

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة و صبر على الطاعة و صبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب له ثلثمائة درجة و من صبر على الطاعة كتب له ستمائة درجة و من صبر عن المعصية كتب له تسعمائة درجة

و قال ميمون بن مهران : الصبر صبران : فالصبر على المصيبة حسن و أفضل منه الصبر عن المعصية

و قال الجنيد و قد سئل عن الصبر فقال : هو تجرع المرارة من غير تعبس

و قال الفضيل بن عياض : في قوله تعالى : { سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار } ثم قال : صبروا على ما أمروا به و صبروا عما نهوا عنه انتهى كلامه فكأنه - رحمه الله - جعل الصبر عن المعصية داخلا في قسم المأمور به

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن أبي السفر قال : مرض أبو بكر فعادوه فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب ؟ فقال : قد رأني الطبيب قالوا : فأى شيء قال لك ؟ قال : إني فعال لما أريد

قال أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب : وجدنا خير عيشنا بالصبر و في رواية : أفضل عيش أدركناه بالصبر و لو أن الصبر كان من الرجال كان كريما

و قال علي بن أبي طالب : ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسد ثم رفع صوته فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له

و قال الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده

و قال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضاها مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرا مما انتزعه منه

و قال بعض العارفين في رقعة يخرجها كل وقت فينظر فيها و فيها مكتوب { و اصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا

و قال مجاهد في قوله تعالى : { فصبر جميل } : في غير جزع

و قال عمرو بن قيس { فصبر جميل } قال : الرضا بالمصيبة و التسليم

و قال حسان : { فصبر جميل } : لا شكوى فيه و قال همام عن قتادة في قول الله تعالى : { و ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم } قال : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيرا و قال

الحسن : الكظيم : الصبور و قال الضحاك : كظيم الحزن
و قال عبد الله بن المبارك : أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء ابن دينار أن سعيد بن جبير
قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منهو احتسابه عند الله
قال يونس بن زيد : سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن : ما منتهى الصبر ؟ قال : أن يكون
يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه
و قال قيس بن الحجاج في قوله تعالى : { فاصبر صبرا جميلا } قال : أن يكون صاحب
المصيبة في القوم لا يعرف من هو
و ذكر أبو الفرج بن الجوزي في عيون الحكايات : قال الأصمعي : خرجت أنا و صديق لي
إلى البادية فزللنا الطريق فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها فسلمنا فإذا امرأة
ترد علينا السلام قالت : ما أنتم ؟ قلنا : قوم ضالون عن الطريق أتيناكم فأنسنا بكم فقالت
: يا هؤلاء و لو وجوهكم عني حتى أفضي من حقكم ما أنتم له أهل ففعلنا فألقت لنا
مسحا فقالت : اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني ثم جعلت ترفع طرف الخيمة و تردها إلى
أن رفعتها فقالت : أسأل الله بركة المقبل أما البعير فبعير ابني و أما الراكب فليس بابني
فوقف الراكب عليها فقال : يا أم عقيل أعظم الله أجرك في عقيل قالت : ويحك ! مات ابني
؟ قال : نعم قالت : و ما سبب موته ؟ قال : ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر فقالت :
انزل فاقض ذمام القوم و دفعت إليه كبشا فذبحه و أصلحه و قرب إلينا الطعام فجعلنا نأكل و
نتعجب من صبرها فلما فرغنا خرجت إلينا و قد تكورت فقالت : يا هؤلاء هل فيكم من أحد
يحسن من كتاب الله شيئا ؟ قلت : نعم قالت : اقرأ من كتاب الله آيات أتعزى بها قلت :
يقول الله عز وجل في كتابه : { وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا
إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون } قالت : آله إنها
لفي كتاب الله هكذا ؟ قلت : آله إنها لفي كتاب الله هكذا ! قالت : السلام عليكم ثم
صفت قدميها وصلت ركعات ثم قالت : { إنا لله و إنا إليه راجعون } عند الله أحاسب عقिला
تقول ذلك ثلاثا اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني

الباب الثامن عشر : في أن الشخص لا يستغني عن الصبر لا في المصيبة و لا في غيرها
اعلم - رحمك الله - أن الشخص البالغ العاقل المسلم ما دام في دار التكليف و الأقلام
جارية عليه لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله و
الصبر لا بد منه قولاً و فعلاً و بين نهى يجب عليه اجتنابه و تركه و بين قضاء و قدر يجب
عليه الصبر فيهما و بين نعمة يجب عليه شكر المنعم عليها و الصبر عليه و إذا كانت هذه
الأحوال لا تفارقه فالصبر لا زم له إلى الممات
فإن قيل : النعم يجب الصبر عليه ؟
قيل : نعم لأنها من الابتلاء كما قال تعالى : { فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه و نعمه
فيقول ربي أكرمن } و قال تعالى : { ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين
ونبلو أخباركم } و في الآية الأخرى : { وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن *
كلا } أي ليس الأمر كذلك و إنما الله تعالى يبتلي عباده بالغنى و الفقر فينظر من هو
المجاهد الشاكر الصابر على ما ابتلاه به كما يبتلي عباده بالمصائب و الأسقام تطهيراً لهم
من الذنوب و الآثام

في الحالات التي يحتاج فيها العبد إلى الصبر: فصل

: و يحتاج العبد إلى الصبر في ثلاثة أحوال
أحدهما : قبل الشروع في العبادات بتصحيح النية و الإخلاص و عقد العزم على توفية
المأمور به و تجنب دواعي الرياء و السمعة
و الحالة الثانية : الصبر حال العمل فيلازم الصبر عند دواعي التقصير فيه و التفريط و يلازم
على استصحاب ذكر النية و حضور القلب بين يدي المعبود و هو محتاج إلى الصبر توفية
أركانها و شروطها و واجباتها و سننها
و الحالة الثالثة : الصبر بعد الفراغ من العمل فيحذر من الإتيان بما يبطله كما قال تعالى
: { لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى } فالصبر على محافظتها بعد الفراغ أنفع ما للعبد هذا
معنى ما ذكره الشيخ الإسلام ابن تيمية
: و قال العلامة ابن القيم : و كل ما يلقي العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين
أحدهما - موافق هواه و مراده
و الثاني - يخالفه و هو محتاج إلى الصبر في كل منهما
أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة و السلامة و الجاه و المال و أنواع الملاذ المباحة و هو
: أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه
أحدهما - أن لا يركن إليها و لا يغتر بها و لا يحملها عليه البطر و الأشر و الفرح المذموم
الذي لا يحب الله أهله
الثاني - أن لا ينهمك في نيلها و لا يبالغ في استقصائها فإنها تنقلب إلى أضدادها فمن
يبالغ في الأكل و الشرب و الجماع انقلب ذلك ضده و حرم الأكل و الشرب و الجماع
الثالث أن يصبر على أداء حق الله فيها و لا يضيعه فيسلبها
الرابع - أن يصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها فإنها توقعه
في الحرام فإذا احترز أوقعته في المكروه و لا يصبر على السراء إلا الصديقون
قال بعض السلف : البلاء يصبر عليه المؤمن و الكافر و لا يصبر على العافية إلا صديق
و أما النوع الثاني : فأما الطاعة فالعبد يحتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن
كثير من العبادات إلا من وفقه الله و تبين ذلك بالصلاة طبع النفس فيها الكسل و إثارة
الراحة و الزكاة طبع النفس فيها الشح و البخل و أما الصوم فطبع النفس بمحبة الفطر و
عدم الجوع و على هذا فقس فهو محتاج إلى الصبر في جميع ذلك و الله أعلم
و من هذا الباب قول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا

بالسراء فلم نصبر

في مشقة الصبر على السراء أيضا: فصل

وإنما كان الصبر على السراء شديدا مشقا على النفس لأنه مقرون بالقدرة على ما تشتهي النفس و تميل إليه لأن الجائع عند عدم الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره و كذلك الشبق عند غير المرأة أصبر منه عند حضورها و كذلك العطشان الشديد العطش عند عدم الماء أصبر منه عند وجوده

فصل - في التحذير من فتنة المال و الأزواج و الأولاد

و قد حذر الله سبحانه و تعالى عباده المؤمنين في كتابه العزيز من فتنة المال و من فتنة الأزواج و من فتنة الأولاد فقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم عن ذكر الله } و قال تعالى : { إنما أموالكم و أولادكم فتنة } و قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم فاحذروهم } و ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء و المجادلة بل عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة و الجهاد و تعليم العلم و غير ذلك من أعمال البر هذا معنى ما ذكره العلامة ابن القيم

فالمقصود : أنه من صبر في السراء عن المعصية فقد أمن فتنة المال فإنه قادر على فعل المعصية و بذل المال فلهذا كان له الثواب الجزيل و الفضل العظيم و كذلك من صبر على تربية الأولاد و أذى بعض الزوجات كان له الدرجات العاليات فإنه ليس كل زوجة و ولد منهم أذى

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم فاحذروهم } فإن : من هنا للتبويض باتفاق الناس و المعنى : إن من الأزواج و الأولاد عدوا ليس المراد أن كل زوج و ولد عدو فإن هذا ليس هو مدلول اللفظ و هو باطل في نفسه فإنه سبحانه و تعالى قد قال عن عباد الرحمن : إنهم يقولون : { ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قررة أعين } فسألوا الله أن يهب لهم من أزواجهم و أولادهم قررة أعين فلو كان كل زوج و ولد عدوا لم يكن فيهم قررة أعين فإن العدو لا يكون قررة عين بل سخنة عين و أيضا فإنه من المعلوم أن إسماعيل و إسحاق ابني إبراهيم و يحيى بن زكريا و أمثالهم ليسوا أعداء

: و قول من قال : إنها زائدة غلط لوجوه

أحدهما - أن مذهب سيبويه و جمهور أئمة النحاة : أنها لا تزداد في الإثبات و إنما تزداد في النفي تحقيقا لعموم النفي لقوله تعالى : { و ما من إله إلا الله } { و ما من إله إلا إله واحد } { و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها } و نحو ذلك فإنه لولا : من لكان الكلام ظاهرا في العموم فإنه يجوز أن يقول ما رأيت رجلا بل رأيت رجلين : فإذا أدخلت من فقلت : ما رأيت من رجل كان نعتا في العموم فلا يجوز أن يقال : ما رأيت من رجل بل رجلين مع أن النكرة في سياق النفي العموم مطلقا لكن قد يكون نسا و قد يكون ظاهرا فإذا كانت ظاهرا احتملت نفي الواحد من الجنس بخلاف النص و هذا الموضوع إثبات لا نفي فلا تزداد فيه

الثاني - أن من جوز زيادتها في الإثبات - كالأخفش - لا يجوزه إلا إذا كان في الكلام ما يدل عليه و إلا فلو قال قائل : إن من هؤلاء القوم مسلمين و أراد أن جميعهم مسلمون لم يجز ذلك بالاتفاق

الثالث إذا قيل بزيادتها كان المعنى باطلا

الرابع - الزيادة على خلاف الأصل فلا يجوز ادعاؤها بغير دليل انتهى كلامه

و هذه فائدة عارضة ذكرتها على سبيل التنبيه لوقوع ناس كثر فيها و المقصود : أن العبد لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال و يكفي من فضل الصبر أن الله تعالى وصف نفسه به كما في

حديث أبي موسى أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ليس أحد - أو ليس شيء - [أصبر على أذى سمعه من الله تعالى إنهم يدعون له ولدا و إنه ليعافيههم و يرزقهم] رواه البخاري

قال القرطبي في تفسيره : وصف الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحلم و معنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها و وصفه تعالى بالصبر لم يرد في التنزيل و إنما ورد في الحديث و تأوله أهل السنة على تأويل الحلم قاله : ابن فورك انتهى كلامه و ذكر عند قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة } قلت : و قد جاء في أسمائه الحسنى الصبور و جاء في أسمائه الحلیم فلو كان الصبور بمعنى الحلیم كان الاسمان الشريفان مترادفين و الأصل في الأسماء التغابر و الله أعلم

الباب التاسع : في أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس

: و هذا الباب ينقسم فيه الصبر إلى قسمين

أحدهما - بحسب قوة الداعي إلى الفعل

الثاني - بسهولة على العبد

فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق و إن فقدنا - معا - يعني قوة الداعي و سهولته - سهل الصبر عنه و إن وجد أحدهما و فقد الآخر سهل الصبر من وجه دون آخر فمن لا داعي له إلى قتل النفس و السرقة و شرب الخمر و أكل الحشيشة و أنواع الفواحش و لا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شيء و أسهله و من اشتد داعيه إلى ذلك و سهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه و لهذا كان صبر السلطان عن الظلم و صبر الشباب عن الفاحشة و صبر الغني عن تناول اللذات و الشهوات منزلتهم عند الله منزلة عظيمة عالية منيعة لا يصل إليها إلا من صبر مثل صبرهم و كذلك من صبر على موت أولاده و أبويه و أقاربه و أصحابه و نحوهم و هو مع ذلك صابر محتسب يأمر أهله بالصبر و ينهاهم عن لطم الخدود و شق الجيوب و عن كلام ما لا يجوز لهم شرعا هذا له من الثواب الجزيل و الأجر العظيم ما لا يعلمه إلا الله فالعبد إذا ذاق لذة المعصية ثم تاب و صبر عنها كانت توبته توبة صادقة

و لقد بلغني عن أعرفه أنه تاب عن الخمر و حلف بالطلاق لا يشربه ثم إنه خالغ و شرب و لقد رأيت جماعة منهم ممن حلف بالطلاق الثلاث لا يلعب بالشنطرنج و تاب منه و مع ذلك يعلم أن أكثر العلماء قالوا بتحريمه و إنه يصد عن ذكر الله و عن الصلاة و أنه يحصل عليه من الحلف الكاذب و الفحش ما هو معروف مشهور و مع ذلك منهم من خالغ و لعب و منهم من لعب و وقع عليه الطلاق الثلاث بعد التوبة و الحلف فالصبر المستمر مع القدرة من غير خوف على جاهه أو ماله أو عرضه صبر على المعاصي و مواظبته على ما أمره الله تعالى به صبر على الطاعات فإذا فعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ثوابه أن يوفى أجره بغير حساب

ولهذا روى الإمام أحمد في مسنده أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : عجب ربك من [شاب ليست له صبوة

وفي الصحيح] من أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : سبعة يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل و شاب نشأ في عبادة الله و رجل قلبه معلق بالمساجد و رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه و تفرقا عليه و رجل دعت امرأته ذات منصب و

جمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين و رجل تصدق بصدق فأخفاه حتى لا تعلم شماله
[ما أنفقت يمينه و رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه
و لذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم في ظله لكمال صبرهم و مشقته على نفوسهم
فصبر الملك على العدل مع قدرته على الظلم و الانتقام من رعيته و صبر الشاب على
عبادة الله و مخالفة هواه و صبر الرجل على ملازمة المسجد و صبر المتصدق على إخفاء
الصدقة حتى عن شماله مع قدرته على الرياء و صبر المدعو إلى الفاحشة مع جمال
الداعي و صبر المتحابين في الله في اجتماعهما و انفرادهما و صبر الباكي من خشية الله
على كتمان ذلك عن الناس فهذه الأمور فيها مشقة على النفوس فالصبر عليها بتوفيق الله
و فضله و إحسانه إلى عبده صبر عظيم جميل

في عقوبة من لم يصبر مع تمكنه من الصبر: فصل

و لما كان الداعي في حق بعض الناس ضعيفا ولم يصبروا مع تمكنهم من الصبر كان عقوبتهم عند الله تعالى أشد من عقوبة غيرهم كالشيخ الزاني و الملك الكذاب و الفقير المختال و إنما كانوا أشد عقوبة من غيرهم لسهولة التصبر عن هذه المحرمات عليهم و لضعف دواعيها في حقهم فكان تركهم الصبر عنها دليلا على تمردهم على الله تعالى و عتوهم عليه و لهذا كان الصبر على معاصي اللسان و الفرج من أشق أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما و سهولتهما فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان لسرعة حركته و سهولة إطلاقه

و ثبت [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : و هل يكب الناس في النار على وجوههم -] ! أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم ؟

فيجب لجامه بلجام الشرع [لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم : من كان يؤمن بالله و] اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت

فإن اللسان رحب الميدان في الخير و الشر فمن أطلقه و لم يضبطه بالشرع سلك به الشيطان في المهالك و كبه في النار عند مالك فالكمال إمساكه مطلقا عن فضول الكلام إلا في خير و ما لا بد منه فإن اللسان لا تؤمن غائلته و خطره عظيم و لسهولة حركته و سرعة إطلاقه قد بلي أكثر الناس في زماننا بأفاته التي هي فاكهة و سرور مجالسهم : كالغيبة و النميمة و الكذب و المرء و الجدال و الخوض في الباطل و الخصومات و فضول الكلام و التحريف و الزيادة و النقصان و تزكية النفس تفريحا و تعرضا و حكاية كلام الناس و الطعن على ما يبغضه و تزكية من يحبه و هتك المستورات و نحو ذلك فيتفق قوة الداعي و سرعة حركة اللسان فيضعف الصبر و [لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم لمعاد :

أمسك عليك لسانك] و قد تقدم الحديث

فإذا صارت هذه الآفات التي ذكرناها للسان عادة و سجية فإنه يشق على العبد الصبر عنها إلا من عصمه الله فآفات اللسان مهلكة و لها حلاوة في القلب و عليها بواعث من الطبع نسأل الله السلامة منها

لهذا نجد كثيرا من المتفقهة و غيرهم ممن ينتسب إلى الورع يتورع من استناده إلى مخدة من الحرير أو من قعوده على بساط حرير أو من شربه من قدح زجاج مموه بالذهب أو الجلوس لحظة واحدة في فرح و غيره مع ما فيه من الخلاف و لا يتورع من إطلاق لسانه في الكبائر من الذنوب كالغيبة و النميمة و التفكك في أعراض الخلق

و كذا إذا وقع الكلام في تفسير كلام الله أو في مسند رسول الله أطلق لسانه فيهما بغير علم مع علمه بقوله تعالى : { ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع و البصر و الفؤاد كل } أولئك كان عنه مسؤولا

ثم أيضا ممن يتورع عن الحبة من الحرام بل عن الفليس المحرم و عن القطرة من الخمر و يتحرز عن مثل رأس الإبرة من النجاسة و لا يبالي بارتكاب الفرج المحرم سواء كان صبيا أو امرأة كما يحكى : أن رجلا خلا بامرأة أجنبية فلما أراد جماعها قال : يا هذه غطي وجهك فإن النظر إلى وجه الأجنبية حرام

و المقصود : أن الصبر على الأشياء الذي اعتادها الإنسان و ورد الشرع بدمها من أشق الأشياء على النفوس إلا من وفقه الله لذلك

في علامات الصبر و رضا النفس عن قضاء الله تعالى: فصل

ومن علامات الصبر عدم مشقته على النفس عند ورود المصائب وكف الكف عن تمزيق الثياب و لطم الخدود و حبس اللسان عن الاعتراض على المقادير و التسخط و الامتناع من كل شيء يوجب إظهاره حتى إن السلف كرهوا الأئين قال الحكماء : العاقل يفعل أول يوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام و قد قال عليه الصلاة والسلام للأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيماناً و احتساباً و إلا سلوت كما تسلو البهائم

الباب العشرون : في الرضا بالمصيبة

اعلم - رحمك الله - أن الرضا بالمصائب أشق على النفوس من الصبر و قد تقدم أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس و في جامع الترمذي [أن النبي صلى الله عليه و سلم] قال : إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا و من سخط فله السخط و قد تنازع العلماء و المشايخ من أصحاب الإمام أحمد و غيرهم في الرضا بالقضاء هل هو واجب ؟ أو مستحب ؟ على قولين فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدین و على الثاني يكون من أعمال المقربين ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية فالعبد قد يصبر على المصيبة و لا يرضى بها فالرضا أعلى من مقام الصبر لكن الصبر اتفقوا على وجوبه و الرضا اختلفوا على وجوبه و الشكر أعلى من مقام الرضا فإنه يشهد المصيبة نعمة فيشكر المبلي عليها قال عمر بن عبد العزيز : أما الرضا فمنزلة عزيزة أو منيعة و لكن قد جعل الله في الصبر معولا حسنا

و قال محمد بن إدريس الشافعي : حدثنا زهير بن عباد عن السري ابن حيان قال : قال عبد الواحد بن زيد : الرضا باب الله الأعظم و جنة الدنيا و سراج العابدين و روى ابن أبي الدنيا بإسناده [عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : الصبر رضا] فهذا الحديث فيه بشارة عظيمة لأهل المصائب إذ سمي الصبر رضا و بإسناده أيضا إلى أبي مسلم قال أبو مسلم : دخلت على أبي الدرداء في اليوم الذي قبض فيه و كان عندهم في العز كأنفسهم فجعل أبو مسلم يكبر فقال أبو الدرداء : أجل فهكذا فقولوا فإن الله إذا قضى بقضاء أحب أن يرضى به

و ذكر ابن الدنيا في قوله تعالى : { و من يؤمن بالله يهد قلبه } قال علقمة بن أبي وقاص : هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله و يسلم لها و يرضى و قال : حدثنا الحسين حدثنا عبد الله حدثنا علي بن الحسن العامري حدثنا أبوه بدر حدثنا عمر بن ذر قال : بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول : إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى الله لهم رضوا به لهم في الجنة منازل يغطهم بها الشهداء يوم القيامة و بهذا الإسناد عن سليمان بن المغيرة قال : كان فيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك و لا أحط لوزرك من الرضا بقضائي و لن تلقاني بعمل هو أعظم لوزرك و لا أشد لسخطي عليك من البطر فإياك يا داود و البطر و قال الشافعي : سمعت ابن أبي الحواري يقول : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : أرجو أن أكون رزقت من الرضا طرفا لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيا و قال ابن زيد : نظر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى عدي بن حاتم كئيبا فقال : يا عدي مالي أراك كئيبا حزينا ؟ قال : و ما يمنعني و قد قتل أبنائي و فقئت عيني ؟ ! فقال يا عدي من رضي بقضاء الله كان له أجر و من لم يرض بقضاء الله حبط عمله ذكره ابن أبي الدنيا

و قال أبو عبد الله البراثي : من وهب له الرضا فقد بلغ أقصى الدرجات فإن قيل : غالب الناس يصبرون و لا يرضون فكيف يتصور الرضى بالمكروه ؟ يقال : إن نفور ! الطبع عن المصائب لا ينافي رضا القلب بالمقدور فإننا نرضى القضاء و إن كرهنا المقتضى قيل لبعض الصالحين : قتل و لدك في سبيل الله ! فيكى فقيل له : أتبكي و قد استشهد ؟ ! فقال : إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله عز و جل حين أخذته السيوف و ذكر أبو الفرج بن الجوزي بسنده عن عمار بن ياسر - رضي الله عنه - أنه قال : اللهم لو أعلم أنه أرضى لك أن أوقد نارا عظيمة فأقع فيها لفعلت و لو أعلم أنه أرضى لك عني أن ألقى نفسي في الماء فأغرق لفعلت و عن مصعب بن ماهان عن سفيان الثوري قال : في قوله تعالى : { و بشر المخبتين } قال : المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له

في أقوال السلف و الخلف في الرضا: فصل

و قد أطنب الناس - من السلف و الخلف - في الرضا و بسطوا القول فيه و اعتنوا به و هذا يدل على علو منزلته

قال عمرو بن أسلم العابد : سمعت أبا معاوية الأسود يقول : في قوله تعالى : { فلنحيينه حياة طيبة } قال : الرضا و القناعة

و ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده [رفعه إلى النبي صلى الله عليه و سلم قال : جلساء [الرحمن تبارك و تعالى يوم القيامة : الخائفون الراضون المتواضعون الشاكرون الذاكرون و بإسناده إلى محمد بن كعب رفعه أنه قال : أي رب أي خلقك أعظم ذنبا ؟ قال : الذي يتهمني قال : رب و هل يتهمك أحد ؟ ! قال : نعم الذي يستجيرني و لا يرضى بقضائي قال مالك بن أنس : بلغني أن أبا الدراء دخل على رجل و هو يموت و هو يحمد الله تعالى فقال أبو الدراء : أصبت إن الله تعالى إذا قضى أحب أن يرضى به

و روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن عون أنه قال : أرض بقضاء الله على ما كان من عسر و يسر فإن ذلك أقل لغمك و أبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك و اعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر و البلاء كرضاه عند الغنى و الرخاء كيف تستقضي الله في أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفا لهواك ؟ ! و لعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلكك و ترضى قضاءه إذا وافق هواك و ذلك لقله علمك بالغيب وكيف ! ! تستقضيه ؟ إن كنت كذلك ما أنصفت من نفسك و لا أصبت باب الرضا

و روى أبو بكر بن أبي الدنيا أيضا قال : حدثنا الحسين ثنا عبد الله حدثني المروزي قال : قال حفص بن حميد : كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة حين ماتت امرأته فسألته ما الرضا ؟ قال : الرضا أن لا يتمنى خلاف حاله فجاء أبو بكر بن عياش فعزى ابن المبارك - قال حفص : ولم أعرفه - فقال عبد الله : سله عما كنا فيه فسألته فقال : من لم يتكلم بغير الرضا فهو راض قال حفص : و سألت الفضيل بن عياض فقال : ذاك للخواص ثم قال قادم الديلمي العابد قال : قلت للفضيل بن عياش : من الراضي عن الله ؟ قال : الذي لا يحب أن يكون على غير منزلته التي جعل فيها

و قال أبو عبد الله البراثي : لم يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله عز وجل على كل حال

و قال سيار : دخلت على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه فقال : إن أحبه إلي أحبه إلى الله عز وجل

و قال عمرو بن أسلم العابد : سمعت أبا معاوية الأسود يقول : في قوله تعالى : { فلنجيئنه حياة طيبة } قال : الرضا و القناعة

ذكرهن ابن أبي الدنيا في كتاب الرضا ثم ذكر عن مصعب بن ماهان عن سفیان الثوري قال في قوله تعالى : { وبشر المخبتين } قال : المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له و عن وهب بن منبه قال : وجدت في زيور داود عليه السلام : يا داود هل تدري أي الفقراء أفضل ؟ الذين يرضون بحلمي و بقسمي و يحمدوني على ما أنعمت عليهم هل تدري يا داود أي المؤمنين أعظم عندي منزلة ؟ الذي هو بما أعطي أشد فرحا بما حبس و روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن زياد ابن أبي حسان أنه شهد عمر بن عبد العزيز - رحمة الله عليه - حين دفن ابنه عبد الملك استوى قائما و أحاط به الناس فقال : و الله يا بني لقد كنت بارا بأبيك و الله ما زلت منذ وهبك الله لي مسرورا بك و لا و الله ما كنت قط أشد سرورا و لا أرحى لحظي من الله فيك منذ وضعك الله في المنزل الذي صيرك إليه فرحمك الله و غفر لك ذنبك و جزاك بأحسن عملك و رحم كل شافع يشفع لك بخير شاهد و غائب رضينا بقضاء الله و سلمنا لأمره و الحمد لله رب العالمين ثم انصرف

و قال سفیان الثوري : قال عمر بن عبد العزيز لابنه : كيف تجدك ؟ قال : في الموت قال : لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك فقال و الله يا أبه لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب

و روى الإمام أحمد في الزهد بإسناده عن الحسن قال : حدثني الأحوص قال : دخلنا على ابن مسعود - رضي الله عنه - و عنده بنون له ثلاثة كأنهم الدنانير حسنا فجعلنا نتعجب من حسنهم فقال لنا كأنكم يغبطونني بهم ؟ قلنا : أي و الله لمثل هؤلاء يغبط المسلم فرفع رأسه إلى سقف بيت له صغير قد عشش فيه خطاف و باض فقال : و الذي نفسي بيده لأن أكون نفضت يدي عن تراب قبورهم أحب إلي من أن يسقط عش هذا الخطاف و ينكسر بيضه

و بإسناده عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال يوم مات أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : رضينا عن الله قضاءه و سلمنا له أمره إنا لله و إنا إليه راجعون

فصل - فيما سنه رسول الله صلى الله عليه و سلم لأهل المصيبة و ما نهى عنه

قد تقدم ما سنه رسول الله صلى الله عليه و سلم لأهل المصيبة و ما نهى عنه و مما سنه الخشوع و البكاء الذي لا صوت معه و حزن القلب [و كان يفعل ذلك و يقول : تدمع العين و يحزن القلب و لا نقول إلا ما يرضي الرب] و كذلك الحمد و الاسترجاع و قد تقدم و من سنته : الرضا عن الله في المصيبة و غيرها و لم يكن ذلك منافيا لدمع العين و حزن القلب

و أشد الناس حرصا على رضى مولاهم الأنبياء فقد روى ابن أبي الدنيا بإسناده [عن أبي هريرة رضى الله عنه - أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إنا معشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفا قال : فقلنا سبحان الله ! قال : أفعجبتكم ؟ إن أشد الناس بلاء الأنبياء و الصالحون الأمثل فالأمثل قلنا سبحان الله ! قال : أفعجبتكم ؟ إن كان النبي من الأنبياء ليتدرع العباءة من الحاجة لا يجد غيرها قلنا : سبحان الله ! قال : أفعجبتكم ؟ إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء] و لهذا كان أرضاهم و أرضى الخلق عن الله نبينا محمد صلى الله عليه و سلم في قضائه و قدره و أعظمهم له حمدا و لم يمكنني حصر ما وقع له في ذلك لكثرتة و شهرته و مع ذلك بكى يوم مات ابنه إبراهيم - عليه السلام - رافة و رحمة منه للولد و رقة عليه و قلبه صلى الله عليه و سلم ممتلئ بالرضا عن الله تعالى و شكره له و اللسان مشغول بحمده و ذكره

و لما ضاق هذا المشهد و الجمع بين الأمرين - يعني رحمة الولد و الرقة عليه و الرضا عن الله تعالى - على أن بعض العارفين من السلف يوم مات ولده جعل يضحك ف قيل له : تضحك في مثل هذه الحال ؟ فقال : إن الله تعالى قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه فأشكل هذا على جماعة من العلماء و أرباب الأحوال و التصوف و قالوا : كيف يبكي رسول رب العالمين صلى الله عليه و سلم يوم مات ولده و هو أرضى الخلق عن الله و يبلغ الرضا ! بهذا العارف إلى أن ضحك يوم مات ولده ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : هدي نبينا صلى الله عليه و سلم أكمل من هدي هذا العارف فإنه أعطى صلى الله عليه و سلم العبودية حقها فاتسع قلبه للرضا عن الله و رحمة الولد و الرقة عليه فحمد الله و رضى عنه في قضائه و بكى رحمة و رقة فحملته الرحمة على البكاء و عبوديته لله و محبته له على الرضا و الحمد و هذا العارف ضاق قلبه عن اجتماع الأمرين و لم يتسع باطنه لشهودهما و القيام بهما فشغلته عبودية الرضا عن عبودية الرحمة و الرقة و الله تعالى أعلم انتهى

قلت و ما يؤيد ما ذكره الشيخ - رحمه الله - قصة نبي الله يعقوب إسرائيل عليه السلام إذ حكى الله تعالى عنه أنه ابيضت عيناه من الحزن و قال : { فصبر جميل } و { إنما أشكو بني و حزني إلى الله } فمشهده أوسع من مشهد هذا العارف بل نبي الله يعقوب أبلغ من هذا العارف فإن يعقوب كان له عدة من الولد و مع هذا فهذه الرقة و الرحمة التي عنده مع الرضا الكامل و استعمل الرضا و التفويض في قوله : { إنما أشكو بني و حزني إلى الله } و استعمل الرقة و الرحمة عند { و ابيضت عيناه من الحزن } فطريقة يعقوب عليه السلام أفضل من طريقة هذا العارف مع كثرة أولاد يعقوب و هذه رحمته و رفته و أما هذا العارف - على ما قيل - لم يكن له ولد سواه و روى الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده عن ثابت البناني : أن صلة بن أشيم كان في مغزى له و معه ابنه فقال له : أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك فجاء فقاتل حتى قتل ثم تقدم أبوه فقتل فاجتمعت النساء عند أمه معاذة العدوية فقالت : مرحبا إن كنتن جئتن لتهنئني مرحبا بكن و إن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن و ذكر أبو الفرج بن الجوزي : قال أبو جحيفة : إنا لمتوجهون إلى همدان و معنا رجل من الأزدي فجعل يبكي فقلت : أجزع هذا ؟ قال : لا ولكن تركت ابني في الرحل فلوددت أنه كان معي فدخلنا الجنة جميعا

فصل - في تحقيق الرضا وأنه من عمل القلب

الرضا من أعمال القلوب لكن وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا و لهذا جاء في الكتاب و السنة : حمد لله على كل حال و ذلك يتضمن الرضا بقضائه

و في الحديث : أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء و [الضراء]

و في الحديث مرفوعا أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا أتاه أمر يسره قال : الحمد [لله الذي بنعمته تتم الصالحات و إذا أتاه أمر يسوؤه قال : الحمد لله على كل حال و قد تقدم في مسند الإمام أحمد] من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا قبض الله ولد العبد يقول الله لملائكته : أقبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم فيقول : ماذا قال ؟ فيقولون حمدك و استرجع فيقول الله عز و جل : ابنوا لعبدي بيتا [في الجنة و سموه بيت الحمد

و محمد نبينا صلى الله عليه و سلم هو صاحب لواء الحمد و أمته هم الحمادون الذين يحمدون الله في السراء و الضراء و الرضا : و الحمد على الرضا له مشهران

أحدهما - علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه أحسن كل شيء خلقه و أتقن كل شيء و هو العليم الحكيم الثاني - أن يعلم أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه كما روى مسلم في صحيحه [عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : و الذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا و ليس ذلك إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له] فأخبر صلى الله عليه و سلم أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء و يشكر على الرخاء فهو خير له كما قال تعالى : { إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور

فمن لا يصبر على البلاء و لا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيرا له و لهذا : أجيب من أورد على هذا بما يقضى على المؤمن من المعاصي بجوابين أحدهما : أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما يفعله كما في قوله تعالى : { ما أصابك من حسنة فمن الله و ما أصابك من سيئة فمن نفسك } و كقوله تعالى أيضا : { و بلوناهم بالحسنات و السيئات لعلهم يرجعون } أي السراء و الضراء

الثاني - أن هذا في حق المؤمن الصابر الشاكر و الذنوب تنقص الإيمان فإذا تاب العبد أحبه الله و قد ترتفع درجته بالتوبة

قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة فمن قضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار و إن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة و ذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه و يعجب بها و يعمل السيئة فتكون نصب عينيه فيستغفر الله و يتوب إليه منها

[و ثبت في الصحيح] أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الأعمال بالخواتيم : و المؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع بعشرة أسباب

أحدهما : أن يتوب توبة نصوحا ليتوب الله عليه فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له الثاني : أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له

{ الثالث : أن يعمل حسنات يمحوها لقلوبه : { إن الحسنات يذهبن السيئات

الرابع : أن يدعو له إخوانه المؤمنون و يشفعون له حيا و ميتا

الخامس : أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به

السادس : أن يشفع فيه نبينا محمد صلى الله عليه و سلم

السابع : أن يتلى الله في الدنيا بمصائب في نفسه و ماله و أولاده و أقاربه و من يحب و نحو ذلك

الثامن : أن يتلى في البرزخ بالفتنة و الضغطة و هي عصر القبر فيكفر بها عنه

التاسع : أن يتلى الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه

العاشر : أن يرحمه أرحم الراحمين

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه [كما قال تعالى في الأحاديث الإلهيات :

إنما هي أعمالكم أحصيا لكم - ثم أوفيكم إياها - فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير

ذلك فلا يلومن إلا نفسه] ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية و المقصود أن المؤمن إذا كان

يعلم أن القضاء خير له فيرضى عن الله بما قسم له كان قد رضي بما هو خير له

و في الحديث : عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : إن الله يقضي بالقضاء [

] فمن رضي فله الرضا و من سخط فله السخط

الباب الحادي والعشرون : فيما يقدر في الصبر والرضا وينافيهما

قد تقدم أن الصبر اعتراف العبد بالله بما أصابه منه و احتسابه عند الله و أنه حبس النفس عما لا يحسن فعله و لا يجمل و حبس اللسان عما لا يحسن قوله فإذا كان معنى هذه المقالة أن الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله و القلب عن التسخيط و الجوارح عن لطم الخدود و خمش الوجوه و شق الثياب و نحو ذلك و أن العبد يرضى عن الله فيما يفعله به مما يحب و قوعه و مما يكره و قوعه فإذا وقع من العبد عكس ما ذكرته كان متلبسا بالنقائص و الرذائل فمن شك ما به إلى مخلوق مثله كان قد شك ربه إلى بعض مخلوقاته فمثله كمثل من شك من يرحمه و يلطف به و يعافيه و بيده ضره و نفعه إلى من لا يرحمه و ليس بيده نفعا ولا ضرا فهذا من عدم المعرفة و ضعف الإيمان شكاية الضار النافع الذي بيده أزمة الأمور إلى من لا يضر و لا ينفع قال شقيق البلخي : من شك مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدا

و أما إخبار المخلوق بحاله لا على وجه الشكوى فإن كان للاستعانة بأن يرشده أو يعاونه أو يوصله إلى زوال ضره بما ينفعه مما هو أخبر منه به كالحجاء يحجبه و يقلع ضرره أو رجل صالح يدعو له فهذه الأمور على هذا الوجه لم تقدر في صبره لأن هذا إخبار المريض الطبيب بحاله و إخبار المبتلي في جسده ببلائه لمن يرجو أن يكون فرجه على يديه و كذلك إخبار المظلوم لمن ينتصر به و إخبار المبتلي في دينه لمن هو مسترشد الهداية ليبين له طريق الهداية إن وفق لها

و قد ثبت أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا دخل على المريض سأله عن حاله [ويقول : كيف تجدك ؟] وهو استخبار منه و استعلام بحاله

و أما الأنين فهل يقدر في الصبر ؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد قال القاضي أبو الحسين : أصح الروايتين الكراهة لما روي عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المريض و قال مجاهد : يكتب على ابن آدم مما سطر به حتى أنينه في مرضه انتهى

و قال جماعة من العلماء : الأنين شكوى بلسان الحال فينافي الصبر

و قال عبد الله بن الإمام أحمد : قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه : أخرج إلي كتاب عبد الله بن إدريس فأخرجت الكتاب فقال : أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم فأخرجت أحاديث ليث بن أبي سليم فقال : اقرأ علي أحاديث الليث قال : قلت لطلحة : إن طاووسا كان يكره الأنين في المرض فما سمع له أنين حتى مات فما سمعت أبي أن في مرضه ذلك إلى أن توفي و الرواية الثانية أنه لا يكره و لا يقدر في الصبر بل قد يقدر في الرضا

قال بكر بن محمد عن أبيه : [سئل الإمام أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع ! فقال : يعرف فيه شيئاً عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قال : نعم حديث عائشة : [وا رأساه ! وجعل يستحسنه]
و قال المروزي : دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل و هو مريض فسألته فتغرغرت عينيه و جعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة
قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : اعلم أن الأنين على قسمين : أنين شكوى فيكره و أنين استراحة و تفريح فلا يكره و الله أعلم

في أن شق الثياب و لطم الخدود ينافي الصبر و الرضا: فصل

و مما ينافي الصبر و الرضا ما يفعله أكثر الناس في زماننا عند المصيبة من شق ثيابهم و لطم خدودهم و خمش وجوههم و نتف شعورهم و التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى و رفع أصواتهم عند المصيبة

و لقد حضرت عند شخص حين فارق الدنيا و هو من الجند فحين خرجت روحه أتوا بجعبة نشاب فكسروها بمجموعها واحدة بعد واحدة عليه و أتوا أيضا بعدة الحرب فرموها عليه و أنا مع ذلك أعظم و أقول لهم : هذا حرام نهى الله ورسوله عن ذلك و هذا فيه إضاعة مال فقال بعضهم لي : لم يصبك ما أصابنا فخرجت عنهم ثم إنهم بعد ذلك ندموا على ما فعلوا من إتلاف ما أتلفوه

و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم : إنما الصبر عند الصدمة الأولى [لأن في تلك] الحالة هيجان الحزن و استغراق الذهن و ذهول العقل بما دهمه و تمكن الشيطان منه فإن الشيطان - لعنه الله دائما - يتمكن من بني آدم عند ذهول عقلهم : إما بسكر كما وقع في قصة هاروت و ماروت و هي مشهورة حين دعتهما المرأة إل كقتل الولد أو السجود للصنم أو شرب القدح من الخمر مرارا و أنهما شربا القدح من المسكر فلما شربا سكرًا فأتيا كل ما أمرتهما به و كذلك ذهول العقل عند العشق و عند الولاية و عند كثرة المال و عند المصيبة فكل هذه الأمور العارضة للعبد في الغالب يحصل له بها ذهول العقل فيتمكن الشيطان بها منه

نسأل الله العافية و دوام العافية و الثبات في الأمر و العزيمة على الرشد [فإن النبي صلى الله عليه و سلم كان يسأل الله في دعائه : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر] الدعاء المشهور [وكان يقول : اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك] فالثبات في الأمور مطلوب شرعا كما أن العبد نهى عن الأمور المذمومة من اللجاج و الطيش و العجلة والحدة و افتقاد الحزن و غير ذلك من الأمور المذمومة التي لا أحصيها عددا و يحا لمن يقدم على الله تعالى مع هذه الأمور المذمومة التي نهى الشرع عنها غير تائب منها معتمدا على صومه و صلاته و حجه و عبادته و هومع ذلك فرح مستبشر كأنه قد جاز الصراط و أعطى البراءة و جاءه البشير من الله تعالى بالفوز و الخلاص ! و يحا لمن يعتز بأعماله الظاهرة و باطنه مثل المزابل ! نسأل الله تعالى حسن التوفيق

في البكاء و الحزن الصامت لا ينافي الرضا و الصبر: فصل

و أما البكاء و الحزن من غير صوت و لا كلام محرم فهو لا ينافي الصبر و الرضا و قد تقدم لنا قريبا من ذلك قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : { و ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم } قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيرا مع قوله تعالى : { إنما أشكو بثي و حزني إلى الله } و قوله تعالى عنه في أول السورة : { فصبر جميل } و قد [جاء في أثر مرفوع إلى النبي صلى الله عليه و سلم : من بث لم يصبر] لكن يعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من البكاء و لم يناف حزنه و بكاءه صبره فإنه عليه السلام ما شكاه بثه و حزنه إلى مخلوق و إنما شكاه إلى الله

و روى حماد بن سلمة [عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما كان من العين و من القلب فمن الله و الرحمة و ما كان من اليد و اللسان فمن الشيطان

قال خالد بن أبي عثمان : مات ابن لي فرأني سعيد بن جبير مقنعا فقال لي : إياك و التقنع فإنه من الاستكانة

و قال بكر بن عبد الله المزني : كان يقال : من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة و قال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين و يحزن القلب و لكن الجزع القول السيئ و الظن السيئ

و مات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع إليه العلماء و الفقهاء فتذاكروا ما تبين به جزع الرجل من صبره فأجمعوا أنه إذا ترك شيئا مما كان يصنعه فقد جزع

و قال ابن عبد العزيز : مات ابن لي نفيس فقلت لأمه : اتق الله و احتسبيه عند الله و اصبري فقالت مصيبتني به أعظم من أفسدها بالجزع

و قال عبد الله بن مبارك - رحمه الله - : أتى رجل يزيد بن يزيد و هو يصلي و ابنه في الموت فقال : ابنك يقضي و أنت تصلي ؟ فقال : إن الرجل إذا كان له عمل يعمل فتركه يوما واحدا كان ذلك خللا في عمله

و قال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة و أطيبه

فصل - في أن من يتلي بالمصائب هو أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين

و لا بد أن يعلم المصاب أن الذي ابتلاه بمصيبته أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و أنه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه به و لا ليعذبه و لا ليحتاجه و إنما افتقده به ليمتحن صبره و رضاه عنه و إيمانه و ليسمع تضرعه و ابتهاله و ليراه طريحا على بابه لاثنا بجنابه مكسور القلب بين يديه رافعا قصص الشكوى إليه

قال الشيخ الإمام العالم العارف المكاشف عبد القادر الكيلاني - رحمة الله عليه - لابنه يا بني إن المصيبة ما جاءت لتهلكك و إنما جاءت لتمتحن صبرك و إيمانك يا بني القدر سبع و السبع لا يأكل الميتة انتهى كلامه

و المقصود : أن المصيبة كير العبد الذي يسبك بها حاصله فإما أن يخرج ذهبا أحمر و إما أن يخرج خبثا كله كما قيل :

(سبكانه و تحسبه لجينا ... فأبدي الكير عن خبث الحديد)

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا فبين يديه الكير الأعظم فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا و مسبكها خير له من ذلك الكير و المسبك و أنه لا بد من أحد الكيرين فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل فالعبد إذا امتحنه الله بمصيبة فصبر عند الصدمة الأولى كما ورد [في حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : مر النبي صلى الله عليه و سلم بامرأة عند قبر و هي تبكي فقال لها : اتق الله و اصبري فقالت : إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي - و لم تعرفه - فقيل لها : إنه النبي صلى الله عليه و سلم فأنت باب النبي صلى الله عليه و سلم فلم تجد عنده بوابين فقالت : لم أعرفك يا رسول الله ! قال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى] رواه البخاري و [لفظ مسلم : أتى على امرأة تبكي على صبي لها فقال لها : اتق الله و اصبري فقالت : و ما تبالي بمصيبتي ؟ فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ! فأخذها مثل الموت فأنت بابه فلم تجد على بابه بوابين] و ذكر تمام الحديث

فصل - في أن الشكوى و التحدث بالمصيبة ينافي الصبر و الرضا

و مما يقدر في الصبر و الرضا و ينافيهما : إظهار المصيبة و التحدث بها و إشاعتها سواء كان كلام بها بين الأصحاب أو غيرهم اللهم إلا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه : مات فلان يعني والده أو ولده و نحو ذلك و ما يريد به إظهار المصيبة و إنما يريد إعلامهم لأجل الصلاة عليه و تشييعه و نحو ذلك مما هو من فروض الكفايات و يحصل لهم بذلك القراريط من الأجر و قد تقدم أن الإعلام بالميت هل هو نعي أم لا ؟ و المقصود أن كتمان المصيبة رأس الصبر قال الحسن بن الصباح في مسنده : [حدثنا خلف بن تميم حدثنا زفر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من البر كتمان المصائب و الأمراض و الصدقة] و ذكر أنه من بث لم يصبر

و روي من وجه آخر [من حديث أنس - رضي الله عنه رفعه إلى النبي صلى الله عليه و

[سلم قال : من كنوز البر كتمان المصائب و ما صبر من بث

و لما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوما من قبل عينه التي أصيب فيها فلم يشعر به فعلم أن الشيخ قد أصيب

و دخل رجل على داود الطائي في فراشه فرآه يزحف فقال إنا لله و إنا إليه راجعون فقال :

مه لا تعلم بهذا أحدا و قد أقعد قبل ذلك بأربعة أشهر لم يعلم بذلك أحد

و شكا الأحنف إلى عمه و جع ضرسه فكرر ذلك عليه فقال : ما تكرر علي ؟ لقد ذهبت

! عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد

و من المنافاة للصبر و الرضا : الهلع عند ورود المصيبة و هو الجزع قال الله تعالى : { إن

الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا } قال الجوهرى :

الهلع : أفحش الجزع و قد هلع بالكسر فهو هالع و هلوع

[و في الحديث : شر ما في العبد شح هالع و جبن خالع]

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : هنا في هذا الحديث أمران : أمر لفظي و أمر معنوي

فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعا و الهالع صاحبه و أكثر ما يسمى هلوعا و لا

: يقال : هالع له فإنه لا يتعدى و فيه وجهان

أحدهما - أنه على النسب كقولهم : ليل نائم و شر قائم و نهار صائم و يوم عاصف كله عند

سيبويه على النسب أي ذو كذا

و الثاني - أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع و له نظائر

و أما المعنوي فإن الشح و الجبن أردى صفتين في العبد و لا سيما إذا كان شحه هالعا أي ملولة في الهلع و جنبه خالعا أي قد خلع قلبه من مكانه فلا سماحة و لا شجاعة كما يقال : لا يتردد و لا يثرد انتهى كلامه

و روى سعيد بن منصور في سننه : [حدثنا إسماعيل بن عياش عن سليمان بن سليم عن يحيى بن جابر أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : ما يحبط الأجر في المصيبة ؟ قال : تصفيق الرجل بيمينه على شماله و الصبر عند الصدمة الأولى فمن رضي [فله الرضى و من سخط فله السخط

و ذكر بإسناده أيضا رفعه إلى النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن القوم ليصابون [بالمصيبة فيجزعون و يهلعون فما يكون لهم من أجرها شيء فيمر بهم الرجل من [المسلمين فيسترجع فيكتب الله عز و جل له أجر ما أعطاه من تلك المصيبة و قال ابن أبي الدنيا : حدثني أحمد بن عبد الأعلى حدثني شيخ من آل ميمون بن مهران أن الحجاج أصيب بآبن له فاشتد جزعه عليه فدخل فغير ثيابه و مس شيئا من طيب و جلس و أذن للناس فلم يتكلموا فقال : حسبني ثواب الله من كل نكبة و حسبني بقاء الله من كل هالك تحدثوا

فصل - في أن الله تبارك و تعالى يختبر عباده بالمصائب

و الله تبارك و تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه و تضرعه و دعاءه و صبره و رضاه بما قضاه عليه فهو سبحانه و تعالى يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب و غيرها و يعلم خائنة أعينهم و ما تخفي صدورهم فيثيب كل عبد على قصده و نيته و قد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه و لم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : { و لقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم و ما يتضرعون } و العبد أضعف من أن يتجلد على ربه و لا يشكو إليه حاله فإنه إذا كان سادات الخلائق و هم الأنبياء المعصومون صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين قد أثنى الله تعالى عليهم حيث شكوا ما بهم إلى الله تعالى فقال تعالى عن بعضهم : { و ذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين } و أثنى على أيوب بقوله : { أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين } و على يعقوب : { إنما أشكو بثي و حزني إلى الله } و على موسى بقوله : { إني لما أنزلت إلي من خير فقير } [و قد شكوا إليه خاتم أنبيائه و رسله بقوله : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي و قلة حيلتي و هواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين] الحديث المشهور في دعاء الطائف و هو دعاء عظيم فالشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصبر و لا الرضا بل إعراض العبد بالشكوى إلى غيره من جهله بخالقه و عدم رضاه و صبره بما ابتلاه الله تعالى به و الله تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه و يحب من يشكوه ما به إليه

قيل لبعضهم : كيف تشتكى إلى من لا يخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء ؟ فقال :

(قالوا : أتشكو إليه ... ما ليس يخفى عليه)

(فقلت : ربي يرضى ... ذل العبيد لديه)

و ذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسن قال : قال رجل : لأمتحنن أهل البلاء قال : فدخلت على رجل بطرسوس و قد أكلت الأكلة أطرافه فقلت له كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت و الله و كل عرق و كل عضو يألم على حدته من الوجع و إن ذلك لبعين الله أحبه إلي أحبه إلى الله عز و جل و ددت أن ربي قطع مني الأعضاء التي اكتسبت بها الإثم و أنه لم يبق مني إلا لساني تكون له ذاكرة قال : فقال له رجل : متى بدأت هذه العلة ؟ قال : أما كفاك ؟ الخلق كلهم عبيد الله و عياله فإذا نزلت بالعباد علة فالشاكى إلى الله ليس

يشكي الله إلى العباد

الباب الثاني والعشرون : هل المصائب مكفرات أم مثيبات

و قد اختلف العلماء في هذا الباب اختلافا كثيرا و تباينوا فيه تباينا شديدا فذهب بعض العلماء إلى أنه يثاب على كل مصيبة و ذهب طائفة أخرى من العلماء إلى أنه لا يثاب على المصائب مطلقا و إنما يثاب على الصبر عليها حتى قطع به ابن عبد السلام في قواعده و ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية و جماعة من العلماء إلى أن إطلاق القول بالثواب كلاهما يرد عليه ما يدفعه و أن ثم فرقا مؤثرا نذكره فيما بعد إن شاء الله و قد احتجت كل طائفة بطواهر مرجحة لما ذهبت إليه كما سنذكره بعد

احتجت طائفة من العلماء إلى أنه يثاب على كل مصيبة بقوله تعالى : { ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ و لا نصب و لا مخمصة في سبيل الله و لا يطؤون موطئا يغيظ الكفار و لا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح } الآية

و في الصحيحين [عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما يصيب المؤمن من وصب و لا نصب و لا هم و لا حزن و لا غم و لا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها] الوصب : الوجع اللازم و منه قوله تعالى : { و لهم عذاب واصل } أي لازم ثابت و النصب : التعب

و روى الحاكم في المستدرک [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : المصاب من حرم [الثواب]

و روى ابن ماجة [من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال و لا بإضاعته و لكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك و أن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك] رواه الإمام أحمد موقوفا عن أبي مسلم الخولاني و في صحيح البخاري [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : مامن مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم] و [رواه أحمد و النسائي : ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا غفر لهما] و غير ذلك من الأحاديث مما اختصرته

قال النووي - رحمه الله - في شرح مسلم عند قوله صلى الله عليه و سلم : [ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة و محبت عنه بها خطيئة] و في رواية : [إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة] و في بعض النسخ [و حط عنه بها خطيئة] بغير ألف و في رواية [إلا كتب له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة] قال :

وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين فإنه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء وحكى القاضي عياض عن بعض العلماء : أنها تكفر الخطايا فقط ولم يبلغهم هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة برفع الدرجات وكتب الحسنات انتهى كلامه و يؤيد ذلك قول عائشة - رضي الله عنها - : ما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله [صلى الله عليه وسلم وقوله صلى الله عليه وسلم : إني لأوعك مثل رجلين منكم وإنك لتوعك وعكا شديداً وقوله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأئمة فالأئمة] قال جماعة من العلماء : والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاءً ثم الأئمة بالأئمة : أنهم مخصصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب والأنبياء معصومون من الخطايا فتعين الثواب والله أعلم

وفي حديث المرأة التي كانت تصرع : دليل على أن الصرع يثاب عليه أكمل ثواب وفي صحيح مسلم [قالت امرأة يا رسول الله دفنت ثلاثة من الولد قال : احتظرت بحظار [من النار]

قال بعض السلف : فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة فإنه قد [ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : المصاب من حرم الثواب] وقد تقدم وتقدم في أثناء الكتاب أحاديث تشهد لهذا القول والله أعلم احتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها وإنما يثاب على الصبر عليها بقوله تعالى : { إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب } قال ابن عبد السلام في قواعده : الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه قال تعالى : { الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون } فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم : { إنا لله وإنا إليه راجعون } فالاسترجاع هو سبب في حصول ما ذكره كذلك [حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل لملك الموت : يا ملك الموت قبضت ولد عبدي ؟ قبضت قرة عينيه وثمره فؤاده ؟ قال : نعم قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع قال : ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد] فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له في الجنة وتسمية البيت كافية

قال القاضي عياض : وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الوجع لا يكتب به أجر وإنما يكفر الخطايا فقط

فصل - في سياق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

أما ما يحدثه الله من مصائب فتارة بغير فعل الخلائق كالأمراض و نحوها و تارة بفعلهم و فصل الخطاب : أن المصائب إن تولدت عن عمل صالح كما تتولد عن الجهاد و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و نحوه فهذا يثاب عليه فإن الإنسان يثيبه الله على عمله و على ما يتولد من عمله إذا أقدم على احتمالها فإن المجاهد قد أقدم على الجهاد و هو يعلم أنه يؤذى في الله عز وجل و قد يناله ضرر في جهاده فتموت فرسه أو يأخذ ماله أو يضرب أو يشتم و نحو ذلك كما قال تعالى : { ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح } فأخبر تعالى أنه يكتب لهم عمل صالح بما يصيبهم من التعب و الجوع و العطش و نحو ذلك الذي حصل لهم بسبب الجهاد في سبيل الله عز وجل فهذه الأمور يغفر الله بها خطاياها و يؤجر على هذه المصائب لأنها حصلت بسبب جهاده فهي مما تولد من عمله و ما تولد عن عمله الصالح من المصائب يثاب عليها و أما الجوع و العطش و التعب الذي يحصل من دون ذلك فلا يثاب إلا على الصبر عليه فإنه ليس من عمله و لا متولداً من عمل صالح لكن هو من المصائب التي يكفر الله بها خطاياها و أما المصيبة بالولد فالولد تولد عن جماعه الذي صان نفسه به عن الزنا و قصد به النسل و تكثير الأمة و غض البصر عن المحارم فإذا حصل له ذلك ثم مات الولد فقد أثيب عليه من جهة و كفر الله به خطاياها من جهة لأنه تولد عن عمله و أما الأمراض و الأسقام فهي تكفر الخطايا و قد روي أن أبا عبيدة بن الجراح لما عادوه و قالوا : له أجر فقال : ليس لي من الأجر مثل هذه و لكن المرض حطة يحيط الله بها الخطايا فهذا الذي ذكرته هو الفرق بين المصائب التي يثاب عليها و المصائب التي لا يثاب عليها فإن بعض الناس يظن أنه يثاب على كل مصيبة و من العلماء من يطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها و إنما يصاب على الصبر عليها ثم قال بعد ذلك بكلام كثير : فمن فعل فعلاً صالحاً باختياره فأوذي و احتسب ذلك الأذى كان ذلك الأذى من عمله الصالح الذي يثاب عليه كالصائم إذا احتسب جوعه و عطشه [و قد قال صلى الله عليه و سلم : لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك] والخلوف تولد عن صومه بغير اختياره و لكن تولد عن عمل صالح و كذلك القائم بالليل إذا احتسب تعبها و سهره فإن الأذى الذي يحصل باختيارك في طاعة الله أنت جلبته على نفسك باختيارك طاعة الله فليس هو كمن أوذي بغير اختياره فإن ذلك أذاه مصيبة محضة

لكن هي حق له على الظالم

وقال الشيخ - رحمه الله - [في قول النبي صلى الله عليه و سلم : لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرء شكر فكان خيرا له و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له] و هي نفسها تكفر خطاياها و يؤجر على الصبر عليها ففيها له مغفرة من جهة ما يكفره من الخطايا و له فيها رحمة من جهة ما يؤجر على الصبر عليها لا سيما إذا اقترن بها توبة و إنابة إلى الله و توكل عليه و توحيد له و إخلاص الدين له فإنها تكون من أعظم النعم و مصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله و قال بعض السلف : يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها قرع باب سيدك و في الحديث إذا قالوا للمرض : اللهم ارحمه يقول الله عز و جل : كيف أرحمه من شيء [به أرحمه ؟

و في الأثر : يا ابن آدم البلاء يجمع بيني و بينك و العافية تجمع بينك و بين نفسك انتهى و المقصود من كلام الشيخ - رحمه الله - أن كل ما تولد عن عمله الصالح من المصائب أئيب عليه بخلاف المصائب التي لم تتولد عن عمله فإنها مكفرات لا مثيبات

ت

فصل - في قوله أيضا رحمه الله في أن المصائب نعمة من نعم الله تعالى

قال الشيخ رحمه الله : و كثير من الناس لا يعرف النعمة إلا ما يلتذ به في دنياه كما قال بعض السلف : من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه و مشربه فقد قل علمه و حضر عذابه فمن الناس من يرى النعمة في بدنه فقط بالأكل و الشرب و النكاح و منهم من يرى النعمة بالرياسة و الجاه و نفاذ الأمر و النهي و قهر الأعداء و منهم من يرى النعمة في جميع الأموال و الفناطير المقنطرة و هؤلاء من جنس الكفار يرون هذه نعماً و أعلى من هؤلاء : من يرى النعمة في الإيمان و العمل الصالح لكن لا يرى الأمر بذلك و الجهاد عليه نعمة بل يرى فيه من المضار ما يوجب تركه و الذين يرون هذه النعمة : منهم من لا يراه نعمة إلا مع السلامة و الغنيمة فإن جرح أو قتل بعض أولاده أو أخذ ماله عد ذلك مصيبة لا نعمة و حجة هؤلاء كلهم أن النعمة ما يتنعم به العبد و هذه الأمور تؤلم النفس فلا تكون من النعم بل من المصائب و لا ريب أنها من المصائب باعتبار ما يحصل فيها من الألم و لهذا أمر بالصبر عليها لكن لا منافاة بين كون الشيء مصيبة باعتبار و نعمة باعتبار فباعتبار ما يحصل له من الأذى هو مصيبة و باعتبار ما حصل به من الرحمة نعمة و هذا لأنه إذا قيل : هذا يكفر به الخطايا و يؤجر عليها ويؤجر على الصبر عليها كانت نعمة و هذا بمنزلة شرب المريض الدواء الكريه هو مصيبة باعتبار مرارته و هو نعمة باعتبار إزالته للمريض الذي هو أشد ضرراً فيه و أدنى الشرين إذا زال أعظمهما كان نعمة و من استعمل نعمة الله في المعاصي كانت شراً في حقه لأنها جرته إلى العذاب الذي هو أعظم من تلك اللذة كمن أكل عسلاً فيه سم فإن ضرر السم أعظم من حلوة العسل و الله أعلم انتهى كلامه

الباب الثالث والعشرون : في الصدقة عن المصاب به و أفعال البر عنه

و هذا الباب مما يطيب قلوب أهل المصائب على مصابهم فإنهم إذا بدلوا بدل الحزن و البكاء و لطم الخدود و شق الثياب و النياحة الصدقة و الدعاء و الاستغفار و قراءة القرآن و الصلاة و الصيام و نحو ذلك من أفعال القرب و علموا وصولهم إلى موتاهم و إنه يحصل لهم بذلك : إما تكفير سيئات أو رفع درجات أو كلاهما - حصل لهم السرور بذلك و الفرح الزائد و هذا الباب منعقد على إهداء القرب إلى الموتى و الأحياء فنذكر اختلاف العلماء في وصول ثواب ذلك إليهم فمن أنواع القرب : قرب لم يختلف في وصول ثوابها إلى الموتى و ثم قرب اختلف العلماء في وصول ثوابها اختلافا كثيرا فنذكر ما يسره الله تعالى في ذلك فإن ذكر الاختلاف و البسط سبيل ذلك الكتب المطولة

في ذكر اختلاف الناس في وصول ثواب إهداء القرب إلى الموتى: فصل

أما الدعاء و الاستغفار و الصدقة و قضاء الدين و أداء الواجبات فلا أعلم خلافا في وصولها حكاها غير واحد من العلماء و من العلماء من يشترط في الوصول إذا كانت الواجبات مما يدخله النيابة قال الله تعالى : { و الذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان و لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا } و قال تعالى : { و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات } [و دعاء النبي صلى الله عليه و سلم لأبي سلمة حين مات أبو سلمة و دعاء النبي صلى الله عليه و سلم للميت الذي صلى عليه و شرع الله ذلك له و شرعه لكل من صلى على ميت بقوله : اللهم اغفر لحينا وميتنا وكذلك : اللهم اغفر له و ارحمه و عافه و اعف عنه] الدعاء المشهور المعروف و أما وصول العبادات المالية المحضة كالعتق و الصدقة و نحوهما : فجمهور العلماء من أهل السنة و الجماعة على وصول ثوابها إلى الموتى كما يصل إليهم الدعاء و الاستغفار و أما وصول ثواب الأعمال البدنية كالصوم و الصلاة و القراءة و نحو ذلك فالصحيح الوصول و هو مذهب الإمام أحمد و أبي حنيفة و طائفة من أصحاب مالك و الشافعي لما يأتي من الأحاديث بعد إن شاء الله

في الآيات و الأحاديث الواردة في هذا الباب: فصل

قد تقدم قوله تعالى : { و الذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان } و قال تعالى : { و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات } و قال تعالى : { الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم } فلو لم ينفعهم ذلك لم يخبر الله تعالى به ترغيبا و أما الأحاديث فمنها : ما روى الإمام أحمد [من حديث الحسن بن سعد بن عبادة أن أمه ماتت فقال : يا رسول الله ماتت أمي أفأتصدق عنها ؟ قال : نعم قال : قلت : فأبي الصدقة أفضل ؟ قال : سقي الماء] قال الحسن : فتلك سقاية آل سعد بالمدينة و رواه النسائي أيضا

و منها : [عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اقرؤوا يس على موتاكم] رواه أبو داود و ابن ماجه و رواه الإمام أحمد و [لفظه : يس قلب القرآن لا] يقرؤها رجل يريد الله تبارك و تعالى و الدار الآخرة إلا غفر الله له و اقرؤها على موتاكم و فيه دليل على وصول القراءة إلى الميت فإنه صلى الله عليه و سلم أمرنا أن نقرأها على موتانا و أمره في هذا المكان أمر إرشاد لا يجوز أن يعرى عن فائدة و لا فائدة للعبد بعد موته أعظم من الثواب فإننا نعلم يقينا أن الميت من أحوج الناس الى ما يقربه من رحمة الله و يباعده من عذاب الله و قد امتنع عليه ذلك بعد موته بفعل نفسه فما بقي يحصل له ذلك إلا بفعل غيره و الحصول هو الثواب المترتب على القراءة و الله أعلم

فإن قيل : قد فسر جماعة من العلماء أن المراد بقراءة يس عند الاحتضار للمسلم الذي سيموت و قد ذهب الى هذا جماعة من العلماء حتى الشيخ مجد الدين ابن تيمية الحراني بوب عليه في كتابه المنتقى

قيل : هذا خلاف الحقيقة فإنه إذا حمل على من سيموت يكون حمل اللفظ على مجازه و معلوم أن حمل اللفظ على حقيقته أولى من حمله على مجازه فإن سلم أنه أريد به المحتضر فهو حجة على المخالف المانع من وصول ثواب القراءة إلى الميت فإن قول المخالف في أن الحي لا ينتفع بعمل الغير أشد من قوله في الميت فإن قيل : إنما يحصل له به راحة و سرور كالتذادة به في الدنيا قلنا : هذه دعوى تفتقر إلى دليل و الأصل عدمه بل نقول : أي راحة و سرور أعظم من ثواب يحصل للميت يرفع درجاته أو يحط عنه سيئاته ؟ و قد أفردت لهذا الكلام جزءا و

سميته الدر المنتخب في إهداء القرب فمن رام كشف ذلك فليطلبه من محله و ما ذكره هنا على سبيل التنبيه و منها ما روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن العاص بن وائل نذر أن ينحر في الجاهلية مائة بدنة و أن هشام بن العاص نحر حصته خمسين [و أن عمرا سأل النبي صلى الله عليه و سلم عن ذلك فقال : أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت عنه و تصدقت عنه نفعه ذلك] رواه الإمام أحمد و هو دليل على وصول أفعال الخير إلى الميت

و منها : [عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه و سلم : إن أبي مات و لم يوص أفينفعه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم] رواه مسلم و الإمام أحمد و النسائي و ابن ماجه

و منها : [عن عائشة - رضي الله عنها - أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه و سلم : إن أمي افتلتت نفسها و أراها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : نعم] رواه البخاري و مسلم و الإمام أحمد

و [عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما على أحدكم إذا أراد أن يتصدق بصدقة تطوعا أن يجعلها عن والديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها و له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء] رواه حرب في مسائله بسنده

و روى ابن المنذر بإسناده عن عائشة - رضي الله عنها - أنها أعتقت عن أخيها عبد الرحمن عبدا بعد موته

و روى الدارقطني و غيره [عن عطاء بن أبي رباح مرسلا أن رجلا قال : يا رسول الله إن [أبي مات أفأعتق عنه ؟ قال : نعم

و روى الدارقطني أيضا عن الحسن و الحسين - رضي الله عنهما أنهما كانا يعتقان عن أبيهما علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد موته

عن ابن أسيد مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه و [سلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم الصلاة عليهما و الاستغفار لهما و افتقاد عهدهما بعدهما و صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما و إكرام صديقيهما] رواه أبو داود و هذا لفظه و ابن ماجه

فصل - من الأدلة المستحسنة قوله صلى الله عليه وسلم في الأضحية : بسم الله و الله أكبر

و من الأدلة المستحسنة [قوله صلى الله عليه وسلم في الأضحية لما ضحى بكبشين فلما ذبح أحدهما قال : بسم الله و الله أكبر اللهم هذا عن محمد و آل محمد و لما ذبح الثاني قال : اللهم هذا عني و عمن لم يضح من أمتي] و في رواية ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موسومين فذبح أحدهما عن محمد و آل محمد و ذبح الآخر عن أمته و عمن شهد له بالبلاغ ففيه دليل على أن النفع قد نال الأحياء و الأموات من أمته بأضحيته صلى الله عليه وسلم و إلا لم يكن في ذلك فائدة فإنه صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى [و قال للذي قضى الدين عن الميت : الآن بردت عليه جلده]

و حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : إنهما ليعذبان و ما [يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول - و في قول لا يستنزه من البول - أما الآخر فكان يمشي بالنميمة ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرس على كل قبر [واحدة و قال : إنه ليخفف عنهما ما لم يببسا

قال الخطابي : هذا عند أهل العلم محمول على أن الأشياء ما دامت على أصل خلقتها أو خضرتها و طراوتها فإنها تسبح الله عز و جل حتى تجف رطوبتها أو تحول خضرتها أو تقطع من أصلها فإذا خفف عن الميت بوضعه صلى الله عليه وسلم الجريدة على قبره لكونها تسبح الله فبطريق الأولى و الأخرى أن تخفف القرب على اختلاف أسبابها و إن أعظم القرب كلام رب العالمين الذي نزل به الروح الأمين على قلب أشرف المرسلين و قد أوصى بريدة - رضي الله عنه - أن يجعل جريدة على قبره ذكره البخاري و قد استحب ذلك جماعة من العلماء من أصحابنا و غيرهم و أنكره آخرون و قال الشيخ محي الدين النووي في شرح مسلم : ذكر أن العلماء استحباوا القراءة لخبر الجريدة لأنه إذا أرحي التخفيف لتنسبها للقراءة أولى انتهى كلامه

فصل - في قوله تعالى و أن ليس للإنسان إلا ما سعى

و أما احتجاج بعض من خالف من أصحاب الشافعي و مالك بهذه الآية على أن الميت لا ينتفع بثواب من سعي غيره [لأن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا مات ابن آدم [انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده أو ولد صالح يدعو له قالوا : و لأن نفع العبادة لا يتعدى فاعلها

فيقال لهم : قد ثبت بالسنة المتواترة و إجماع الأمة أن الميت يصلى عليه و يدعى له و يستغفر له و هذا من سعي غيره و كذلك ما وافقوا عليه و سلموه من أن ينتفع بالصدقة و العتق و هو من سعي غيره فما كان جوابهم على مورد الإجماع فهو جواب الباقيين عن محل النزاع و للناس في ذلك أجوبة متعددة سبيلها الكتب المطولة و لكن تحقيق ذلك أن يقال : إن الله تعالى لم يقل : إن الإنسان لا ينتفع إلا بسعي نفسه و إنما قال : { و أن ليس للإنسان إلا ما سعى } و هو لا يملك إلا سعيه و لا يستحق غير ذلك و إنما سعي غيره فهو له كما أن الإنسان لا يملك إلا مال نفسه و يملك نفع نفسه بمال غيره و قد روي عن ابن عباس أن الآية منسوخة بقوله تعالى : { و الذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم } فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء و لا يصح هذا لأن لفظ الآيتين لفظ خبر و الأخبار لا تنسخ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : اللفظ المنقول عن ابن عباس هو من تفسير علي بن طلحة الوالبي عنه و قد قيل : إنه لم يسمعه من ابن عباس و قال عكرمة : هي خاصة بقوم إبراهيم و موسى دون هذه الأمة و شرع من قبلنا ليس بشرع لنا و أما هذه الأمة فلهم ما سعوا و سعي لهم قال الشيخ : و هذا ضعيف لأن الله إنما ذكر هذا ليخبر به هذه الأمة و ليعلموا أن هذا حكم شامل و لو كان هذا مخصوصاً بأمة موسى و إبراهيم لم يقم به حجة على أن من أرسل إليه النبي صلى الله عليه و سلم و جميع المسلمين بما في هذا { القول : } و لا تزر وازرة وزر أخرى

و أيضاً فمن أين لهم أن تلك الأمة لم تكن تنفعهم الصدقة عنهم بعد الموت و الدعاء لهم ؟ و قد بين النبي صلى الله عليه و سلم أننا إذا قلنا : السلام علينا و على عباد الله الصالحين أصابت كل عبد لله في السماء و الأرض و نحن إذا ذكرنا الصالحين من الأمم و ترحمنا عليهم وصل ذلك إليهم و ليس هو من سعيهم و إبراهيم قد دعا لأولاده بنص القرآن و ليس ذلك من سعيهم

و قال الربيع بن أنس : المراد بالإنسان و الكافر و هذا ليس بشيء لأن سياق الآية يناقضه

بقوله : { ثم يجزاه الأوفى } و هذا يتناول المؤمن قطعاً فلو عكس كان أولى مع أن حكم العدل لا فرق فيه بين مؤمن و كافر

قال الحسن بن الفضل : ليس للإنسان إلا ما سعى من طريق العدل فأما من طريق الفضل فجائز أن يزيد الله ما شاء

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : و هذا القول أمثل من غيره و معناه صحيح لكنه لم يفسر لفظه الآية فإن قوله : ليس للإنسان : نفي عام فليس له إلا ذلك و هذا هو العدل ثم إن الله قد ينفعه و يرحمه بغير سعيه من جهة فضله و إحسانه و إن كان ذلك ليس له ثم قال الشيخ : و قال ابن الزاغوني إنه ليس له إلا سعيه غير أن الأسباب مختلفة فتارة يكون سعيه في تحصيل الشيء نفسه و تارة يكون في تحصيل سببه مثل سعيه في تحصيل قرابة أو نكاح ليحصل له ولد صالح يدعو له أو صديق صالح و تارة يسعى في خدمة أهل الدين و العبادة فيكتسب محبتهم بسبب سعيه في ذلك

قال الشيخ رحمه الله : و هذا أمثل من غيره و قد استحسنته و رجع أبو البركات و هو ضعيف فإنه قد ينتفع بعمل غيره من لم يحصل سبباً و بسط القول على هذا و علله بأمور و ذكر ابن أبي الزغواني قولاً آخر قال : و أن ليس للإنسان بمعنى : و أن ليس عليه إلا ما سعى

قال الشيخ : و هذا من أزدل الأقول فإنه قلب لمعنى الآية فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى و تمامها { و أن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الأوفى } أفترى السعي الصالح لم يدخل في هذه ؟ ! و بسط القول على هذا و بين فساده و قد ذكرنا هذه الأقوال و رتبناها مبسوطاً في إهداء القرب

فصل - في أن الدفن بجوار الصالحين يجلب نوال بركتهم

و مما يستأنس به في وصول الثواب أنه يستحب الدفن عند الصالحين ليناله بركتهم و نص الإمام أحمد على أن الميت يتأذى بالمنكر عنده و قد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : جنبوا الميت جار السوء و قالت عائشة - رضي الله عنها - : الميت يؤذيه في قبره ما يؤذيه في بيته لكن : هذان الأثران و إن كان فيهما ضعف ففيهما دلالة على المسألة فإن الميت إذا تأذى بالمنكر انتفع بالخير بطريق الأولى و قد ثبت في الصحيح : [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه] فالله تعالى أحكم و أعدل من أن يوصل عقوبة المعصية إليه و يحجب عنه المثوبة و الله تعالى أعلم

في استحباب القراءة عند القبر و ما ورد فيها: فصل

تستحب القراءة عند القبر لأنه قد صح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عنده بفاتحة البقرة و خاتمتها و المشهور عن الإمام أحمد أن القراءة في المقبرة و عند القبر لا تكره اختاره أبو بكر عبد العزيز و القاضي و جماعة من أصحابنا ذكره بعض أصحابنا و عليه عمل الناس في زمننا هذا قال في المستوعب : و لا تكره القراءة على القبر و كان أحمد رحمه الله يكرهما ثم رجع رجوعاً أبان به عن نفسه و قال : يقرأ بعد أن نهى عن ذلك و من أصحابنا من يتمسك بكراهته أولاً و يجعل المسألة على روايتين ثم قال بعد ذلك : فإن أهدى إليه الثواب نفعه انتهى كلامه و هذا مذهب الحنفية لكن اختلف أصحابهم هل تستحب القراءة أم تباح ؟ وجهان لهم و روي عن الإمام أحمد أن القراءة لا تكره حال الدفن دون غيره و روي عنه الكراهة مطلقاً اختارها الإمام عبد الوراق و أبو حفص العكبري قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الكراهة نقلها الجماعة عن الإمام أحمد و هي قول جمهور السلف و عليها قدماء أصحابه كالمروزي و غيره و قال ابن عقيل و ابن المنجا - تعليلاً لرواية الكراهة - بأنها مدفن النجاسة كالحش و نحوه انتهى كلامهما

و ذكر بعض أصحابنا عن الخلال أنه قال : المذهب رواية واحدة أن القراءة عند القبر لا تكره
انتهى
لكن القراءة على القبر ليست من فعل النبي صلى الله عليه و سلم و لا أصحابه و الله
أعلم

فصل - فيما نص عليه الإمام أحمد بن حنبل في استحباب الدعاء للميت عقب دفنه
نص الإمام أحمد على أنه يستحب الدعاء للميت عقب دفنه ثم قال أحمد : قد فعله علي بن أبي طالب و الأحنف بن قيس و يروى [عن عثمان بن عفان أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه و قال : استغفروا لأخيكم و سلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل] رواه أبو داود و روى الطبراني [من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقف على القبر بعد ما يسوى عليه التراب فيقول : اللهم نزل بك صاحبنا و خلف الدنيا خلف ظهره اللهم ثبت عند المسألة منطقة و لا تبتله في قبره بما لا طاقة له به]

و يروى أن عليا - رضي الله عنه - كان يقول - إذا سوي على الميت التراب عند شفير القبر بعد ما يدفن - : اللهم عبدك و ولد عبدك نزل بك و أنت خير منزل به اللهم أوسع له مدخله و اغفر له ذنبه فإننا لا نعلم إلا خيرا و أنت أعلم به رواه حرب الكرمانى في مسائله و كان أنس - رضي الله عنه - إذا سوى على الميت قبره قام عليه فقال : اللهم عبدك نزل بك فأرأف به و ارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبه و افتح أبواب السماء لروحه و تقبل منه بقبول حسن اللهم إن كان محسنا فضاعف له الحسنات أو قال : - فرد له في إحسانه - و إن كان مسيئا فتجاوز عنه رواه الإمام أحمد و الطبراني و غيرهما و ذهب الشافعي أيضا إلى استحباب الدعاء عقب الدفن و قال أكثر المفسرين في قوله عز و جل في حق المنافقين : { و لا تقم على قبره } : معناه بالدعاء و الاستغفار بعد الفراغ من دفنه و كذلك ذكر جماعة من المفسرين : لما هم النبي صلى الله عليه و سلم بالاستغفار لعمة أبي طالب لما مات و هم بعض الصحابة بالاستغفار لأبويه أنزل الله تعالى : { ما كان للنبي و الذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولي قربى } الآية فلولا أن ذلك نافع للمؤمنين كما تقدم لم يكن لذلك معنى بل لما نهى عنه المشركين دل على وقوعه للمؤمنين و نفعه لهم و قال محمد بن حبيب التمار : كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة فأخذ بيدي و قمنا ناحية فلما فرغ الناس من دفنه جئنا إلى القبر فجلس و وضع يده على القبر و قال : اللهم إنك قلت في كتابك : { فأما إن كان من المقربين } فقرأ إلى آخر السورة اللهم و إنا نشهد أن هذا فلان بن فلان ما كذب بك و لقد كان يؤمن بك و برسولك اللهم فاقبل شهادتنا له و دعا له ثم انصرف

فصل - هل يصح إهداء ثواب نوافل العبادات للمسلم الحي ؟

و هذه مسألة لا تكاد تظفر بها في كتاب مشهور لغرابتها فذكر ابن تميم في كتابه فذكر وصول الثواب إلى الميت قال : و في الحي وجهان و ذكر لي بعض فضلاء الحنفية أن وصول القرب إلى الحي مذهبهم و الدليل على الوصول قوله تعالى : { فاعف عنهم و استغفر لهم } [و أيضا فإن الرسول صلى الله عليه و سلم و المسلمون مازال يدعو بعضهم لبعض عموما و خصوصا لأحيائهم و أمواتهم من غير نكير و] لأنه مشروع في دعاء الميت إلى يوم القيامة في قوله : اللهم اغفر لحينا و ميتنا قال القاضي أبو يعلى : و ليس يعرف عن الإمام أحمد رواية في الفرق بين الحي و الميت بل ظاهر قوله يعمهما و قد دل عليه الكتاب و السنة في الدعاء و الاستغفار للتساوي فلا فرق

و قال الشيخ شمس الدين بن عبد القوي في مجمع البحرين : هذا ليس له نكير فهو إجماع و لا شبهة لمن قال بعدم الجواز انتهى كلامه و قال ابن عقيل في المفردات : إن القراءة و نحوها لا تصل إلى الحي فإنه يفتح مفسدة عظيمة فإن الأغنياء يتكلمون عن الأعمال ببذل الأموال التي تسهل لمن ينوب عنهم فيفوتهم أسباب الثواب بالانكال على الثواب و تخرج أعمال الطاعات عن بابها إلى المعاوضات انتهى كلامه

فلو قال قائل : نحن نلتزم ذلك لوروده في الكتاب و السنة ؟
و نقول : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم

الباب الرابع والعشرون : في ذكر عمارة القبور

و قد اشتغل بعض أهل زماننا ممن أصيب بموت أقاربه ببناء قبورهم و تبيطها و تخصيصها و بناء التربة المحتوية على القبور و تحسينها و تزويقها و يزرعونها أنواع الرياحين و يصعدون إليها في الغالب كل خميس بالأهل و الأقارب و ملاذ الأطمعة و أنواعها و يظنون أن ذلك قربة و طاعة إلى الله عزو جل و ربما يقولون : في هذه الأمور تسلية لنا عن الموتى و ما علموا أن هذه الأمور من البدع المكروهة المنهية عنها و أن من البدع تعظيم القبور و تبيطها و تخصيصها و بناء القباب عليها كل هذا من البدع الذي كرهه السلف و العلماء و هو مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم

و قد روى أبو داود و الترمذي [من حديث جابر : أن النبي صلى الله عليه و سلم نهى أن يجصص القبر و أن يبنى عليه] زاد الترمذي : و أن يكتب عليه و أن يوطأ و حسنه و صححه و لفظ أبو داود و أن يقعد عليه

و قد بعث النبي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن لا يدع تمثالا إلا طمسه و لا قبراً مشرفاً إلا سواه

و عن الهياج الأسدي قال : قال لي علي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ اذهب فلا تدع تمثالا إلا طمسته و لا قبراً مشرفاً إلا سويته رواه أبو داود و الترمذي

فالسنة تسوية هذه القبور المشرفة المحجرة المطينة المخصصة و كذلك نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يكتب عليه و نهى عن اتخاذها مساجد و إيقاد السرج عليها و اشتد نهيه صلى الله عليه و سلم حتى لعن فاعل ذلك و نهى عن الصلاة إلى القبور حتى نهى أمته أن يتخذوا قبره مسجداً أو عيداً

و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعظ الناس عند القبور كما ثبت ذلك في صحيح البخاري و مسلم [من حديث علي - رضي الله عنه - قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه و سلم فجلس و جلسنا حوله و معه مخرصة فنكس و جعل

ينكت بمخرصته و قال : ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار و مقعده من الجنة فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : اعملوا و سددوا و قاربوا و كل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة و أما من كان من

أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ الآية : { فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى *

[فسنيسره للعسرى
و في الصحيح أيضا : أنه كان يقف عند الدفن و يقول : استغفروا لأخيكم و اسألوا له [
التثبيت فإنه الآن يسأل

فصل - في أن العمارة ليست من الظاهر بل عمارة الأحياء و الأموات في الباطن
و ليعلم أن عمارة الأحياء و الأموات ليست من خارج [فإن النبي صلى الله عليه و سلم
قال : إن الله لا ينظر إلى صوركم و لا إلى أجسامكم و لكن ينظر إلى قلوبكم] فعمارة
القلب هي العمارة النافعة و الميت في قبره كذلك ليست بزخرفة القبر و لا التربة و لا
تزويقها و إنما العمارة بالصدقة عن ساكنها و أفعال القرب عنه و قد تقدم هذا في الباب
الذي قبله
أما علم أن القبر الذي يزخرف ظاهره فإن باطنه مظلم ضيق و قد طرح فيه من هو أحب
أقاربه إليه فريدا و حيدا مستوحشا من غير و سادة و لا تمهيد و قد باشر الثرى و واجه
البلى و ترك دنياه بالورى و نبذ منها ما كان بيده بالعرا مع حبيب تركه و قرين أسلمه فكل
ما ذكرته لك يا أخي يفطم النفوس عن الشهوات و تعلم أن عمارة البواطن أولى من عمارة
الظواهر و هي العمارة النافعة في يوم القارعة
فإذا بحثت عن الحقيقة و نظرت بعين البصيرة علمت أنك عن قريب صائر إلى ما صار إليه و
قادم على ما قدم عليه فإن العبد بينما هو يمرح في أمنيته غافلا عن يوم مصرعه إذ
هجمت عليه المنية فهتكت أستاره و كسفت أنواره و طمست أعلامه و آثاره فأخرجته من
قصر مشيد و بيت حميد مزخرف نضيد إلى حفرة من الأرض كحفرة أخيه أو ولده أو غيرها
مظلمة ضيقة الجوانب مملوءة من الرعب و الفزع فإما هي روضة من رياض الجنة أو حفرة
من حفر النار أعادنا الله منها
قيل لبعض الزهاد : ما أبلغ الموعظة ؟ قال : النظر في محلة الأموات
فإذا كانت القبور النظر إليها موعظة و هي أول منازل الآخرة و عبرة لأهل الدنيا فلا ينبغي
التزين و لا التزخرف و لا ما يفعله غالب الأغنياء من الأمراء و التجار و غيرهم من ضرب الخام
و الخيام و غيرها في التراب و وضع البسط و الفرش تحت ذلك و ينامون عليها و إخوانهم
تحت ذلك على التراب في حفرة ضيقة مظلمة فأى موعظة تعظ هؤلاء بموتاهم ؟ ! بل هذه
غفلة نسأل الله تعالى السلامة منها

فصل - في بكاء عثمان رضي الله عنه على القبور

و كان عثمان رضي الله عنه - إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته فقيل له : تذكر [الجنة و النار و لا تبكي و تبكي من هذا ؟ ! فقال : إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه و إن لم ينج منه فما بعده أشد منه]

و روى الترمذي في جامعه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما رأيت منظرا إلا و [القبر أقطع منه

و روى الترمذي أيضا [من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم مصلاه فرأى ناسا كأنهم يكتشرون فقال : أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات - يعني الموت - لشغلكم عما أرى فأكثرُوا ذكر هاذم اللذات : الموت فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول : أنا بيت الغربية و أنا بيت الوحدة و أنا بيت التراب و أنا بيت الدود فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا و أهلا أما إن كنت لأحب من مشى على ظهري إلي فإذا و لبتك اليوم و صرت إلي فسترى صنيعي بك فيتسع له مد بصره و يفتح له باب إلى الجنة و إذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحبا و لا أهلا أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إلي فإذا و لبتك اليوم فسترى صنيعي بك فيلتئم عليه حتى يلتقي عليه و تختلف أضلاعه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم بأصابعه فأدخل بعضها في بعض قال : و يقيض له سبعون تنينا لو أن واحدا منها نفخ في [الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا فينهشنه و يخدشنه حتى يفضى به إلى الحساب قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر [النار]

و روى الحاكم في كتاب الكنى و القاسم بن أصبغ [من حديث أبي الحجاج الثمالي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يقول القبر للميت إذا وضع فيه : ويحك يا ابن آدم ! ما غرك بي ؟ ألم تعلم أني بيت الفتنة و بيت الظلمة و بيت الوحدة و بيت الدود ؟ ما غرك بي يا ابن آدم ؟ ! فإن كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر : فيقول : أ رأيت إن كان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ؟ فيقول القبر : إني أعود عليه خضرا و يعود جسمه نورا و [تصعد روحه إلى رب العالمين

و قال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته تقول أنا بيت الدود و بيت الوحدة و بيت الوحشة ! و بيت الظلمة و بيت الغربية ! هذا ما أعددت لك يا ابن آدم فما أعددت لي ؟

! و قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : ألا أخبركم بيوم فقري ؟ يوم أدخل قبوري
و كان جعفر الصادق - رضي الله عنه - يأتي القبور ليلا و يقول : يا أهل القبور ما لي إذا
دعوتكم لا تجيبون ؟ ثم يقول : حيل و الله بينهم و بين الجواب و كأنني أكون مثلهم و أدخل
في جملتهم ثم يستقبل القبلة حتى طلوع الفجر
و قال عمر بن عبد العزيز - رحمة الله عليه - لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقت البارحة
تفكيراً بالقبور و ساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث ليال في قبره لاستوحشت منه بعد
طول الأنس به و لرأيت بيتا تجول الهوام فيه و يجري فيه الصديد و تحرقه الديدان مع تغير
الريح و تقطع الأكفان و كان ذلك بعد حسن الهيئة و طيب الريح و نقاء الثوب ثم شهق
شهقة خر مغشيا عليه
و قال بعض الحكماء : أربعة أبحر لأربع : الموت بحر الحياة و النفس بحر الشهوات و القبر
بحر الندامات و عفو الله بحر الخطيئات فنسأل الله العظيم أن يجعل الله القبر خير بيت نعمره
! و نسكنه

فصل - في عدم استطاعة التمييز بين السعيد و الشقي في القبر

و اعلم أنه لو دخل شخص إلى المقابر المزخرفة ليميز السعيد من الشقي ما علم هذا من هذا و ما يعلمه إلا علام الغيوب بل قد يكون قبرا من القبور قد درست أعلامه و قد بقي ممشى للدولاب و صاحبه في أعلى الجنان و قد يكون قبرا مزخرفا و قد عليت عليه القباب و البشخانات الحريير و صاحبه في نار جهنم بل نقول : لو دخل الشيخ المقابر لم يميز قبر الذكر من الأنثى و لا الشيخ من الشاب و لا الحر من العبد فإذا كان هذا التمييز الذي يمكن الشخص العاقل أن يميز بين هؤلاء في الحياة الدنيا قد أبهم علينا بعد الموت فكيف نميز السعيد من الشقي ؟ و يشبهه هذا ما روي أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها عدة ملوك و بادوا فقال الإسكندر : هل بقي من نسل أولئك الملوك أحد ؟ فقل : ما بقي منهم إلا رجل واحد يأوي المقابر فدعا به فلما أحضره قال له : ما حملك على لزوم المقابر ؟ قال : أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت الكل سواء قال له الإسكندر : هل لك أن تتبعني فأجيز لك بشرف آبائك إن كانت لك همة عظيمة ؟ فقال : إن لي همة عظيمة بشرط : إن كانت بغيتي عندك تبعتك قال : و ما بغيتك ؟ قال : حياة لا موت فيها و شباب ليس معه هرم و غنى ليس معه فقر و سرور ليس معه حزن قال الإسكندر : ليس ذلك عندي و لا بيدي فقال : أي خير أرجوه عندك إن لم يكن عندك هذه الأشياء ؟ فامض لشأنك و دعني أطلب ذلك ممن يملكه و هو عنده ثم عاد إلى مكانه و لم يلتفت إلى الإسكندر كان عطاء السليمي - رحمه الله - إذا جن الليل خرج إلى المقابر فيقول : يا أهل القبور متم فوا موتاه و عانيتم أعمالكم فوا عملاه ثم يقول : غدا يكون عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح

و قال سفیان الثوري : من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة و من غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار
و مر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بالمقابر فوقف عليها قليلا فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة و المحال المقفرة أنتم لنا سلف و نحن لكم تبع و بكم عما قليل لاحقون اللهم اغفر لنا و لهم و تجاوز عنا و عنهم طوبى لمن ذكر المعاد للحساب و قنع بالكفاف و رضي في جميع أحواله عن الله تعالى ثم قال : يا أهل القبور أما الزوجات فقد نكحت و أما الديار فقد سكنت و أما الأموال فقد قسمت هذا خبر ما عندك فما خبر ما عندكم ؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى و يروى أن رجلا دخل على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فرآه قد تغير من كثرة العبادة

فجعل يتعجب من تغير لونه و استحالة صفته فقال : له عمر : يا ابن أخي و ما تعجبك مني ؟ ! فكيف لو رأيتني بعد دخول قبري بثلاث ؟ و قد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين و تقطعت الشفتان و تقلصت عن الأسنان و خرج الصديد و الدود من المنخرين و الفم و انتفخ البطن فعلا على الصدر لو رأيت ذاك مني فهو أعجب مما رأيت الآن و اعلم - رحمك الله - أنه من علم مصيره إلى هذه الحفرة المظلمة الموحشة لم يبالغ في تحسين ظاهرها مع علمه بما يؤول صاحبها إليه مع ترافة جسمه و حسن منظره و لين بدنه فإنه عن قريب سيطرح في حفرة تتقطع فيها أوصاله و تتغير فيها أحواله ثم ينتن بعد ذلك و يفر من رائحته من كان عنده من أحب الناس إليه إذا اطلع عليها فإذا نظر العبد بعين بصره و بصيرته إلى قبور المترفين من أهل الدنيا رأى كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا أبدا في لذاتهم و طيب عيشهم هم و الله صرعى قد حلت بهم المثلات و استحکم فيهم البلاء و أصابت الهوام في أجسادهم فأطيبهم و أنعمهم من قد أمن من عذاب الله عز و جل قال ثابت البناني : دخلت المقابر فلما أردت الخروج منها إذا أنا بصوت يقول : يا ثابت لا ! يغرنك صموت أهلها فكم من نفس معذبة فيها

الباب الخامس والعشرون : في أن الله يثبت الذين آمنوا عند المسألة

قال الله تعالى : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } قال أكثر المفسرين : هي كلمة التوحيد وهي قول : لا إله إلا الله في الحياة الدنيا - يعني قبل الموت - وفي الآخرة يعني في القبر - وذهب بعض المفسرين إلى أن قال : في الحياة الدنيا في القبر عند السؤال وفي الآخرة : عند البعث والأول أصح عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم [إذا سأل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } وفي لفظ : نزلت في عذاب القبر يقال له : من ربك ؟ فيقول ربي الله و نبيي محمد و ذلك قول الله : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت } الآية] رواه البخاري و مسلم و رواه أحمد مطولا و أهل السنن والمسانيد

وراه الإمام أبو داود في سننه بأتم من هذا [من حديث البراء أيضا و لفظه : قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولم يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم و جلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير و في يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه و قال : استعيذوا بالله القبر مرتين أو ثلاثا و ذكر صفة قبض الروح و عروجها إلى السماء ثم عودها إليه إلى أن قال : و إنه ليسمع خفق نعالهم - إذا ولو مدبرين - حين يقال له : يا هذا من ربك ؟ و ما دينك ؟ و من نبيك ؟ و في لفظ فيأتيه ملكان فيجلسانه و يقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ قال : فيقول : هو رسول الله فيقولان : و ما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب صلى الله عليه وسلم و آمنت به و صدقت ؟ فذلك قوله : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } قال : فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة و ألبسوه من الجنة و افتحوا له بابا إلى الجنة قال : فيأتيه من روحها و طيبها قال : و يفسح له مد بصره قال : و إن الكافر فذكر موته قال : و تعاد روحه إلى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه و يقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فينادي مناد من السماء : أن كذب عبدي فأفرشوه من النار و ألبسوه من النار و افتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها و سمومها قال : و يضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلعه قال : ثم يقبض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا قال : فيضربه بها ضربة يسمعها بين

المشرق و المغرب إلا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح [ورواه الطبراني بأتم من هذا فقد اشتمل هذا الحديث على فوائد منها : التثبيت لأهل الإسلام و الإيمان الذين آمنوا بالله و ما جاء من عند الله و صدقوا به و آمنوا برسوله و اتبعوه و منها الإيمان بعذاب القبر و إعادة الروح إلى الجسد و غير ذلك من الأمور التي لا تحضرني كما سأذكره مفصلا بعد إن شاء الله

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن [العبد إذا وضع في قبره و تولى عند أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا قال : يأتيه ملكان فيقعدهانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله و رسوله قال : فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال : نبي الله صلى الله عليه و سلم : فيراهما جميعا و ذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا يملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون و أما المنافق أو الكافر فيقول : لا أدري كنت أقول ما تقول الناس فيه ! فقال : لا دريت و لا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين] رواه البخاري و مسلم و قد روي من حديث البراء و حديث أنس في قبض الروح و المسألة و نعيم صاحب القبر و عذابه عن أبي هريرة و حذيفة ابن اليمان و غيرهما

فرواه الإمام أحمد في مسنده و ابن حبان في صحيحه [من حديث أبي هريرة و لفظه : أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه و كان الصيام عن يمينه و كانت الزكاة عن شماله و كان فعل الخيرات و الصدقة و الصلة و المعروف و الإحسان عند رجله فيأتيان من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصلاة : ما قبلي مدخل ثم يؤتى من قبل شماله فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من الصدقة و الصلة و المعروف و الإحسان : ما قبلي مدخل فيقال اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد أضاءت الغروب فيقال له : هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ؟ و ماذا تشهد به عليه ؟ فيقول دعوني حتى أصلي : فيقال : إنك ستصلي أخبرنا عما نسألك عنه أرايت هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ؟ و ما تشهد به عليه ؟ قال : فيقول : محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله فيقال له : على ذلك حبيت و على ذلك تموت و على ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له هذا مقعدك و ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة و سرورا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا و ينور له فيه و يعاد الجسد لما بدأ منه فيجعل نسمة في النسيم الطيب و هو طير يعلق من شجر الجنة قال

فذلك قوله تعالى : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } و ذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال : يضيق عليه قبره إلى أن تختلف أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى : { فإن له معيشة ضنكا و نحشره يوم القيامة أعمى { [وهذا مختصر من الحديث و رواه مسلم في صحيحه] من حديث أبي هريرة أيضا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها - فذكر من ربح طيبها و ذكر المسك - قال : فيقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك و على جسد كنت تعمريه فينطلق به إلى ربه ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل قال : و إن الكافر إذا خرجت روحه و ذكر من نتنها و ذكر اللعن فيقول أهل السماء : روح جاءت من قبل الأرض فيقال انطلقوا به إلى آخر الأجل قال أبو هريرة : فرد رسول الله صلى الله عليه و سلم ربيعة كانت عليه على أنفه هكذا] و [في رواية أخرى : فيقول عبدك فلان - يعني المؤمن - فيقول أرجعوه فإني منها خلقتهم و فيها أعيدهم و منها أخرجهم تارة أخرى قال : فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه فيأتيه آت و في لفظ فيأتيه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر و للآخر : النكير ففي الترمذي : فيقولان و في غيره : فيقول من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيقول : ربي الله و ديني الإسلام و نبيي محمد صلى الله عليه و سلم فينتهره فيقول : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ و هي آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حين يقول : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت } الآية فيقول كما قال فيقول له : صدقت ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : أبشر بكرامة من الله و نعيم مقيم فيقول : و أنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عمك الصالح كنت و الله سريعا في طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا ثم يفتح له باب من الجنة و باب من النار فيقول : هذا منزلك لو عصيت الله بذلك به هذا فإذا رأى ما في الجنة قال : رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي و مالي فيقول له : اسكن و في لفظ : فيقال له : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه و إن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا و إقبال من الآخرة نزلت عليه ملائكة غلاظ شداد فانزعوا روحه كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل و ينزع نفسه مع العروق فيلعنه كل ملك بين السماء و الأرض و كل ملك في السماء و تغلق أبواب السماء ليس من أهل باب إلا و هم يدعون الله أن لا يعرج بروحه من قبلهم فإذا عرج بروحه قالوا : رب فلان عبدك قال : أرجعوه فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم و فيها أعيدهم و منها أخرجهم تارة أخرى فإنه ليسمع خق نعال أصحابه إذا ولوا عنه قال : فيأتيه آت فيقول : ما دينك ؟ فيقول : لا أدري ! فيقال : لا دريت و لا تليت فيأتيه آت قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح

فيقول : أبشر بهوان من الله و عذاب مقيم فيقول : و أنت بشرك الله بالشر من أنت ؟
فيقول : أنا عملك الخبيث كنت بطيئا عن طاعة الله سريعا في معصية الله فجزاك الله شرا
ثم يقبض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه ضربة فيصير
ترابا ثم يعيده الله كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين
قال البراء : ثم يفتح له باب من النار ويمهد له له من فرش النار [و رواه الإمام أحمد
و روى أحمد و الحافظ ابن منده بإسناد حسن] من حديث البراء أيضا بآتم ما تقدم من
حديث أبي هريرة و البراء قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في جنازة
فانتبهنا إلى القبر فجلس فجلسنا كأن على أكتافنا فلق الصخر و على رؤوسنا الطير فأرم
قليلا - و الإمام السكوت - فلما رفع رأسه قال : إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة و
دبر من الدنيا و حضره ملك الموت فجلس عند رأسه و نزلت عليه ملائكة معهم كفن من
الجنة و حنوط من الجنة فجلسوا منه مد الصبر ثم يقول - يعني ملك الموت - : اخرجي أيتها
النفس الطيبة - و في رواية أيتها النفس المطمئنة - إلى مغفرة من الله و رضوان قال :
فتخرج نفسه كما تسيل القطرة من في السقاء فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل ملك
بين السماء و الأرض إلا الثقلين فيأخذها و في رواية فإذا أخذها - يعني ملك الموت - لم
يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها في ذلك الكفن و ذلك الحنوط و يخرج منها
كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال : فيصعدون بها إلى السماء فيفتح له
السماء و يشيعه مقربوها إلى السماء الثانية و في لفظ : فلا يمرون منها على ملأ من
الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي
يسمونه بها في الدنيا فيشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي به إلى السماء
السابعة إلى العرش فإذا انتهى إلى العرش قال الله عز و جل : اكتبوا كتاب عبدي في
عليين و أعيدوه إلى الأرض و في لفظ - إلى مضجعه - فإني وعدتهم أنني منها خلقتهم و
فيها أعيدهم و منها أخرجهم تارة أخرى فتعاد روحه إلى جسده فيأتيه منكر و نكير يثيران
الأرض بأنبياهما و يفحصان الأرض بأشفاهما فيجلسانه ثم يقال له : يا هذا من ربك ؟
فيقول : ربي الله فيقولان : صدقت ثم يقال له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان :
صدقت ثم يقال : من نبيك ؟ فيقول : محمد رسول الله : فيقولان : صدقت ثم يفسح له في
قبره مد بصره و يأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : جزاك الله خيرا و
في لفظ فيقول : أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول : من أنت ؟ فوجهك
الوجه الذي يجيء بالخير فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى
أهلي و مالي ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده و منزله منها حتى تقوم
الساعة و إن العبد الكافر إذا كان في دبر من الدنيا و قبل من الآخرة و حضره الموت نزلت

عليه من السماء ملائكة و معهم كفن من نار و في لفظ ملائكة سود الوجوه معهم المسوح قال : فيجلسون منه مد بصره وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول : اخرجي أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى غضب الله و سخطه فتتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترى و تعاین فذكر خروجها كما تقدم و نتن ريحها و وضعها في تلك المسوح و لعن الملائكة لها و غلق أبواب السماء دونها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم : { لا تفتح لهم أبواب السماء و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط } فيقول الله عز و جل : اكتبوا كتاب عبدي في سجين : في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ : { ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق } فيأتيه منكر و نكير يثيران الأرض بأنيابهما و يفحصان الأرض بأشجارهما أصواتهما كالرعد القاصف و أبصارهما كالبرد الخاطف فيجلسانه ثم يقولان : يا هذا من ربك ؟ فيقول : لا أدري فينادى من جانب القبر : لا دريت فيضربانه بمزربة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل و يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله [من مضجعه ذلك

و ذكر تمام الحديث كما تقدم

و رواه أبو داود أيضا بطوله بنحو هذه الرواية و أبو حاتم و ابن حبان في صحيحه و روى النسائي و ابن ماجة أوله و رواه أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفراييني في صحيحه و أما ابن منده فرواه في كتاب الإيمان بطوله و قال : هذا إسناد متصل مشهور ولم أذكر سنده للاختلاف فيه قال أبو عوانة : قال زاذان الكندي : سمعت البراء و قال غيره : لم يسمعه من البراء و الله أعلم

و في صحيح البخاري و مسلم [عن مالك عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة و إن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة] و رواه الإمام أحمد أيضا في مسنده

فصل - في أن النار و الخصرة في القبر ليست كمثلها في الدنيا

و ليعلم أن النار و الخصرة التي ورد ذكرهما في القبر : كما تقدم ليست من نار الدنيا و لا الخصرة زرع الدنيا و إنما هي من نار الآخرة و من خصرها و هما أبلغ و أشد من نار الدنيا و خصرها فإن من قضى الله بعذابه فإنه يحمى عليه ذلك التراب و تلك الحجارة التي فوقه و تحته أو اللبن حتى يكون أعظم حرا من جمر الدنيا و لو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك ولم يروا إلا ترابا و حجارة و لبنا بل قد يدفن شخصان : أحدهما إلى جانب صاحبه هذا في حفرة من حفر النار و هذا في روضة من رياض الجنة لا حر هذا يصل إلى هذا و لا نعيم هذا يصل إلى هذا و قدرة الرب عز وجل أوسع و أبلغ و أعجب من ذلك و كل ذلك حتى يحصل

للمؤمنين اجتهاد و خوف من الله تعالى و مراقبته في السر و العلانية فينتج من ذلك مضاعفة الأجر العظيم و الثواب الجزيل لأن ما ذكرناه هو من الإيمان بالغيب و يعلم المؤمن أن أمامه أهوال و عقبات - نسأل الله السلامة - و ما ذكرته و إن كان من المغيبات قد يطلع الله بعض خلقه على ما يشاء من عجائب قدرته كما في الصحيح [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع] و في الصحيح أيضا : [أن النبي صلى الله عليه و سلم مر بقبرين و قال : إنهما ليعذبان و ما يعذبان في كبير] الحديث المشهور

قال العلامة ابن القيم رحمه الله - في كتاب الروح - : حدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الوزير الحراني أنه خرج من داره بعد العصر بآمد من بستان قال : فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فإذا بقبر منها و هو جمرة من نار مثل كور الزجاج و الميت في وسطه فجعلت أمسح عيني و أقول : أنا نائم أم يقظان ؟ ! ثم التفت فإذا سور المدينة قلت : و الله ما أنا نائم ! ثم ذهبت إلى أهلي و أنا مدهوش فأتوني بطعام فلم أستطع أن أكل ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب ذلك القبر فقالوا رجل مكاس توفي فإذا به توفي ذلك اليوم انتهى ما ذكره

و قد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب القبور و كتاب المنامات من هذا النوع شيئا كثيرا عن النبي صلى الله عليه و سلم و الصحابة و التابعين في الخير و الشر فمن رام المطالعة فليطلب ذلك من موضعه

ومما ذكر مرفوعا [أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه و سلم : مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمع حتى يغيب في الأرض ثم يخرج فيفعل به ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ذاك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة

فصل - في البرزخ و البحث في ماهيته

قال الله تعالى : { و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون } فالبرزخ : اسم لما بين الدنيا و الآخرة و هذه الآية دالة عليه و هذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا و الآخرة و عذاب القبر و نعيمه : اسم لعذاب البرزخ و نعيمه فجعل الله سبحانه و تعالى الدور ثلاثة : دار الدنيا و دار البرزخ و دار القرار و جعل لكل دار أحكاما تختص بها و ركب هذا الإنسان من بدن و نفس و جعل أحكام الدنيا على الأبدان و الأرواح تبع لها و لهذا جعل الله تعالى الأحكام الشرعية على ما يظهر من حركات الإنسان و الجوارح و إن كان في النفس خلاف ما ظهر منها و جعل أحكام البرزخ على الأرواح و الأبدان تبع لها فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا في نعيمها و عذابها تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها و عذابها فالأرواح في البرزخ هي المباشرة للنعيم و العذاب ثم يسري إلى أبدانها كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري على أرواحها فالأبدان في الدنيا ظاهرة و الأبدان خفية و إذا أردت أن تعلم ذلك فخذ في نوم الشخص في الدنيا فإنه ينعم في حال نومه أو يعذب فهو يجري على روحه أصلا و البدن تبع لها و قد يقوى التأثير في البدن حال النوم حتى يشاهد و هذا - و الله أعلم - غالب الناس يشاهد هذا في منامه

و لقد أخبرني الشيخ نصير المقدسي - و كان من صلحاء أهل مدرسة شيخ الإسلام أبي عمر - قال لي : ثلاث ليال أرى في النوم كأن أناسا يستعملونني بالفاعل و أخلف منهم خوفا شديدا فأعمل ثم أصبح في هذه الأيام و أنا تعبان في غاية التعب ثم قال لي : انظر إلى يدي فنظرت و إذا بكفيه شلافيط كبار فكان ينزل الفجر يقرئ الناس فامتنع في النزول في تلك الأيام ثم أني أرشدته إلى ذكر يقوله عند النوم لعله أن يصرف عنه ما يجد و ربما قص علي منامات لبعض الناس يرى أنه يأكل أو يشرب فيستيقظ و هو يجد أثر الطعام و الشراب في فيه و أعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في حال نومه و يبطش و يضرب في الهواء أو يدافع عن نفسه و ربما صرخ بأعلى صوته كأنه يقظان و هو لا شعور له بشيء من ذلك لأن الروح استعانت بالبدن و لو دخلت فيه لاستيقظ و إنما مثلت لك ذلك حتى تعلم صحة ما ذكرته لك في أول هذا الفصل و الله أعلم

في عرض أعمال الأحياء على أقاربهم الأموات: فصل

و ينبغي للعبد إذا تفكر بعين بصيرته و علم ماله إلى هذه الحفرة و ما أعد له فيها في العبادة و يكثر من الأعمال الصالحة و يعلم أن عمله يعرض على أقاربه من الأموات كما ورد في الخبر [من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن أعمالكم تعرض على أقاربكم و عشائركم من الأموات فإن كان خيرا استبشروا و إن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا] رواه الإمام أحمد في

مسنده

و روى ابن أبي شيبة بإسناده [عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور] فكان أبو الدرداء يقول : اللهم أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عند عبد الله بن راحة فنعوذ بالله من الافتضاح بين الأقارب الصلحاء أهل طاعة الله تعالى ثم نعوذ بالله من الافتضاح غدا بين يدي أحكم الحاكمين على رؤوس الخلائق بل نسأل الله تعالى التوفيق لما يحبه و يرضاه

قال مجاهد : إنه ليبشر المؤمن بصلاح ولده من بعده لتقر بذلك عينه

فصل - في تلقين الصغار و ما قيل في التلقين عموما

و أما تلقين الصغار فقد قال الإمام أبو عمر و بن الصلاح : أما تلقين الطفل الرضيع فما له مستند يعتمد عليه و لا نراه و الله أعلم
و قال النووي رحمه الله : الصواب أنه لا يلحق الصغير سواء كان رضيعا أو أكبر منه ما لم يبلغ إذ يصير مكلفا و الله أعلم
و قال العلامة موفق الدين في المغنى : التلقين بعد الدفن لم أجد فيه عن أحمد شيئا و لا أعلم فيه للأئمة قولا سوى ما رواه الأثرم قال : قلت لأبي عبد الله هذا الذي يصنعون إذا دفن الميت يقف الرجل و يقول : يا فلان بن فلانة الحديث المعروف قال : ما رأيت أحدا يفعل هذا إلا أهل الشام حين مات أبو المغيرة جاء إنسان فقال ذلك ثم قال بعد كلام : و قال القاضي أبو الخطاب : يستحب ذلك و روي فيه [عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم عند رأس قبره ثم ليقل : يا فلان بن فلانة فإنه يسمع و لا يجب ثم ليقل : يا فلان بن فلانة الثانية فيستوي قاعدا ثم ليقل : يا فلان بن فلانة فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله و لكن لا تسمعون فيقول : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله و أنك رضيت بالله ربا و بالإسلام دينا و بمحمد نبيا و بالقرآن إماما فإن منكرا و نكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول : انطلق فما يقعدنا عند هذا و قد لقن حجته ؟ و يكون الله حجيجه دونهما فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال : فلينسب إلى حواء [رواه ابن ماجة أيضا في كتاب ذكر الموت

فصل - في حياة الميت في قبره و الخلاف في ذلك

و من غرائب ما ذكره أبو محمد بن حزم في كتابه في الملل و النحل قال : و أما من ظن أن الميت يحيا في قبره يوم القيامة فخطأ لأن الآيات التي ذكرناها تمنع من ذلك و كان قد ذكر قبل ذلك قوله تعالى : { قالوا ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين } و قوله تعالى : { كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم } ثم قال : و لو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالى أماننا ثلاثا و هذا باطل و خلاف القرآن إلا من أحياه الله آية لنبي من الأنبياء فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى أجسادها إلا إلى أجل مسمى - و هو يوم القيامة - و أخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن يكون لهم قبور و لم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا و اعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك فصح أن الخطاب و السماع لأرواحهم بلا شك و أما الجسد فلا حس له و قد قال تعالى { و ما أنت بمسمع من في القبور } فنفي السمع عن في القبور و هي أجساد و لم يات قط عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في ذلك خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة و لو صح ذلك عنه لقلنا به و إنما هذه رواية شاذة عن المنهال بن عمرو وحده و ليس بالقوي تركه شعبة و غيره و قال جماعة من الحفاظ : ما جازت للمنهال شهادة في الإسلام قط انتهى كلامه

فهذا مضمون ما ذكره و من اطلع على ما قدمته من أحاديث و آمن بها و صدقها فليحمد الله تعالى على التوفيق لذلك فإنه لو لم تكن هذه الأحاديث كان إجماع الناس من أمة محمد صلى الله عليه و سلم على إعادة الروح في الجسد لأجل المسألة فكيف و قد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم ؟ ! بل قد كفانا الرسول صلى الله عليه و سلم أمر هذه المسألة و أغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه و ما كان يليق بأبي محمد بن حزم أن يجازف هذه المجازفة و أن يقول القول بهذا الخطأ : فجوابه مردود بالنصوص الصريحة المتقدم ذكرها و هو [قوله صلى الله عليه و سلم : فتعاد روحه في جسده] بل لقد قيل : إن هذا إجماع الأمة على هذا و أنهم تلقوه بالقبول و أنهم مجمعون على : من رد ذلك و أنكره إنه مخطيء و أن تصديق ذلك من الإيمان بالبعث و لكن إن أراد ابن حزم أن الميت لا يحيا في قبره الحياة المعهودة في الدنيا التي يقوم فيها الروح بالبدن و تدبره و تصرفه و يحتاج معها إلى الطعام و الشراب و اللباس فهذا صحيح يشهد العقل بصحة ذلك و إن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بل تعاد الروح إليه غير الإعادة المألوفة في الدنيا لأجل المسألة و الامتحان كما وردت بذلك النصوص الصحيحة فهذا حق و نفيه خطأ بين بل

نفيه باطل قادح فيمن نغاه بل قد ورد في سنن أبي داود مرفوعا [أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من رجل يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فسلم إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام] فهذه إعادة الروح إلى الجسد أيضا غير الإعادة المألوفة في الدنيا لأجل رد السلام بل لو سلم على الميت في الليل و النهار مرارا عديدة عادت روحه لرد السلام و لا يلزم من ذلك أن يحيا الحياة المعروفة

و قوله : الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو به فهذه مجازفة فإن ما قيل فيه قال أحمد تركه شعبة هذا مضمون ما ذكره أبو الفرج بن الجوزي في الكلام على الرجال ولم يذكر أن أحدا رد شهادته و الحديث صحيح لا شك فيه و قد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير المنهال منهم عدي بن ثابت و محمد بن عقبة و مجاهد و غيرهم

قال العلامة بن القيم - رحمه الله - : الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة :

الأحكام

أحدهما : تعلقها به في بطن الأم

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض

الثالث : تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه و مفارقة من وجه

الرابع : تعلقها به في البرزخ فإنها و إن فارقت و تجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كلياً بحيث لا يبقى لها النفثات إليه بل تعاد إليه وقت المسألة و ترد إليه أيضا وقت سلام المسلم و هذا الرد إعادة خاصة لا يوجب إعادة البدن قبل القيامة

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد و هو أكمل تعلقها به و لا نسبة لما قبله من أنواع التعلق البتة إذ هو تعلق لا يقبل البدن موتا و لا نوما و لا فسادا و الله أعلم انتهى كلامه

فهذا العلامة ابن القيم - رحمه الله - قد كفانا مؤنة الرد بلا تكلف

قال شيخ الإسلام ابن تيمية الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال و سؤال البدن بلا روح قول طائفة من الناس و أنكره الجمهور و قابلهم آخرون فقالوا : السؤال للروح بلا بدن و هذا قاله ابن مسرة و ابن حزم و كلاهما غلط و الأحاديث الصحيحة تردده و الله أعلم انتهى كلامه

الباب السادس والعشرون - في اجتماع الأرواح و هيئاتها و أين محلها و الخلاف في ذلك
قال الله تعالى : { و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي } و قال الله تعالى : { و نفخت فيه من روحي } و قوله : { فنفخنا فيه من روحنا } و [قوله صلى الله عليه و سلم : [ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح و أما قوله تعالى : { فأرسلنا إليها روحنا } و { يقوم الروح و الملائكة صفا } فهل هو جبريل أو ملك آخر ؟ فيه خلاف للمفسرين و أما كلام العلماء في هذا الباب فقد ألف الناس فيه شيئا كثيرا لكن على غير هذا الترتيب فنذكر نبذة يسيرة جامعة لكلام غالب العلماء في مستقر الأرواح بعد الموت إلى أن تقوم الساعة هل هي في السماء أم في الأرض ؟ و هل هي في الجنة أم في النار ؟ و هل تنعم في أجسادها و تعذب أم تودع في أجساد غير أجسادها ؟ أم تكون مجردة أو تعدم بالكلية فلا يبقى لها و جود أصلا ؟
فقد نقلوا عن العلماء في ذلك اختلافا كثيرا متباينا ذهب كل طائفة إلى قول نصرته و رجحته على غيره و هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه و هذه المسألة إنما تعرف من جهة الشرع بالسمع
فمن العلماء من ذهب إلى أن أرواح المؤمنين و الشهداء في الجنة بشرط أن لا يحسبهم عنها ذنب عظيم كمظالم العباد و نحوها فإذا كانوا خالين من ذلك تلقاهم ربهم بالعمى و الرحمة قال الله تعالى : { و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون } و ممن ذهب إلى هذا القول : أبو هريرة و عبد الله بن عمر و جماعات من السلف قال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله : إن أرواح المؤمنين في الجنة و أرواح الكفار في النار
و ذهبت طائفة إلى أن أرواح المسلمين على أبواب الجنة يأتيهم من روحها و نعيمها و رزقها
و قال أبو عبد الله بن منده : و قالت طائفة من العلماء من الصحابة و التابعين : أرواح المؤمنين عند الله عز و جل و لم يزيدوا على ذلك ثم قال : و قد روي عن جماعة من الصحابة و التابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية و أرواح الكفار في بئر برهوت - بئر حزموت - و قال أبو عمر بن عبد البر : أرواح الشهداء في الجنة و أرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم
و حكى ابن المبارك عن ابن جريح فيما قرئ عليه عن مجاهد قال : أرواح المؤمنين في

الجنة يأكلون من ثمارها و يجدون ريحها
وقال مالك : بلغني أن الروح مرسله تذهب حيث شاءت
وقال صفوان بن عمر : سألت عامر بن عبد الله هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ قال : إن
الأرض التي يقول الله : { ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي
الصالحون } قال : هي الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث و قال
هي الأرض التي يورثها الله المؤمنين في الدنيا
وقال كعب الأحبار : أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة و أرواح الكفار في
سجين في الأرض السابعة
وروي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : أرواح الأبرار في عليين و أرواح الفجار في
سجين و عن عبد الله بن عمر نحوه
و ذهب طائفة من العلماء إلى أن أرواح المؤمنين في بئر زمزم ولم أطلع على دليل يدل
على هذا القول ثم قال أرباب هذا القول : و أرواح الكفار في بئر برهوت
وقال سليمان الفارسي : أرواح المؤمنين تذهب حيث شاءت كما قال مالك - و قد تقدم - و
أرواح الكفار في سجين
وقال ابن قتيبة : ذهب جماعة من العلماء إلى أن أرواح المؤمنين على أفنية قبورهم و
منهم من ذهب من أهل السنة و الجماعة إلى أن أرواح المؤمنين و الكفار في القبور و أن
الروح تنعم وتعذب في القبر إلى يوم القيامة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق و أن القبر
روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار و لهذا نهى عن الجلوس على القبر و أمر
بالسلام عليهم و قال : إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل
الجنة فمن أهل الجنة و إن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له : هذا مقعدك حتى
يبعثك الله إلى يوم القيامة
و ذهب جماعة من العلماء إلى أن محل الأرواح و مستقرها في سماء الدنيا كما أخبر بذلك
الرسول صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء أنه رأى ليلة أسري به في السماء الدنيا آدم
عليه السلام و عن يمينه أرواح أهل السعادة و عن شماله أرواح أهل الشقاوة
و من هذا الباب ما ثبت في صحيح البخاري [من حديث سمرة بن جندب - رضي الله عنه -
عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في حديث الرؤيا إلى أن قال فيه فأما الرجل الطويل
الذي في الروضة إبراهيم عليه السلام و أما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة
فقبل يا رسول الله : و أولاد المشركين ؟ قال : و أولاد المشركين] [و في رواية له : و
الشيخ في أصل الشجرة إبراهيم و الصبيان حوله أولاد الناس] فهذا الحديث ليس هو عام
في جميع الأرواح و إنما هو خاص بأرواح الصغار و ما رأيت أحدا ذهب إلى التفرقة بين أرواح

الصغار و الكبار لهذا الحديث و لا أعلم أحدا قال به و الله أعلم

فيما جاء في أرواح الشهداء و غيرهم و أمكنتها: فصل

و قد أشرنا إلى بعضه فيما تقدم و لو ذكرنا كل قول و حجج من نصره و ذهب إليه لطال الكتاب و خرج عن موضوعه و لكن نذكر ما يسره الله تعالى من الأحاديث فمنها ما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود - كذا وقع في نسخ معتمد عليها و وقع في بعض النسخ عبد الله فقط فمن الحفاظ من يقول عبد الله بن عمرو و منهم من يقول ابن مسعود و الله أعلم بالصواب - [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال في الشهداء : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل]

[و في حديث قتادة لفظ غريب قال : أرواح المؤمنين في صورة طير بيض] قال القاضي عياض : في هذا الحديث ذكر أرواح الشهداء و في حديث مالك : إنما نسمة المؤمن لم يذكر الشهداء و النسمة تطلق على ذات الإنسان جسما و روحا و تطلق على الروح مفردة و هو المراد بها في هذا الحديث و الله أعلم و في الحديث دلالة على أن المراد بها الروح قطعا فإنه قال : حتى يرجعه الله إلى جسده يوم القيامة و لكن تارة في هذا الحديث ذكر نسمة المؤمن و في اللفظ الآخر أرواح الشهداء و قد ورد في حديث ابن عمر أن غير الشهداء إنما يعرض عليه مقعده بالغداة و العشي كما روى في النظر في قوله تعالى في حق آل فرعون : { النار يعرضون عليها غدوا و عشيا } قال القاضي عياض أيضا في موضع آخر : و قيل : المراد جميع أرواح المؤمنين الذين يدخلون الجنة بغير عذاب فيدخلونها الآن بدليل عموم الحديث كذا ذكره النووي في شرح مسلم و قد [ورد بلفظ آخر في صحيح مسلم أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة و تأكل من ثمارها] ليس فيه ذكر أجواف الطيور و هذا إخبار منه صلى الله عليه و سلم عن الشهداء المؤمنين و ذكر ابن منده بإسناده [عن اسماعيل بن طلحة بن عبد الله عن أبيه قال : أردت مالي بالغابة فأدركني الليل فأويت إلى قبر عبد بن عمرو بن حزم فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فذكرت ذلك له فقال : ذاك عبد الله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد و ياقوت و علقها وسط الجنة ؟ فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانهم التي كانت] و أخبر سبحانه و تعالى عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوا و عشيا قبل يوم القيامة و ليس للعقول في هذا مجال فإنه سبحانه و تعالى يتصرف فيها كيف شاء و غير مستحيل أن يصور هذا الجزء طائرا أو يجعل في جوف

طائر أو في حواصل طير أو في قناديل معلقة بالعرش
قال العلامة ابن القيم : وهذه حياة أرواح و رزقها و الأبدان قد تمزقت
و قد فسر رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر
لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع
عليهم ربهم اطلاعه فقال : هل تشتبهون شيئا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي و نحن نسرح
من الجنة حيث شئنا ؟ يفعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا
قالوا : نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى و صح عنه صلى
الله عليه و سلم الحديث من غير وجه و في بعض الألفاظ تعلق من ثمر الجنة و تعلق -
بضم اللام - : تأكل العلقة

و عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لما [
أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة و تأكل من
ثمارها و تأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم و مأكلمهم و
حسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد و لا
ينكلوا عن الحرب فقال الله : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله على رسوله : { و لا تحسبن الذين
قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون } [رواه الإمام أحمد
و لا أعلم أحدا ذهب إلى أن هذا النعيم المذكور مختص بالذين قتلوا في أحد و الله أعلم

فصل - في بيان مستقر الأرواح و اختلاف مساكنها

و ذهب ابن حزم و جماعات إلى أن مستقر الأرواح حيث كانت قبل خلق أجسادها قال ابن حزم : و هذا الذي أخبر الله تعالى به و نبيه صلى الله عليه و سلم لا يتعداه و هو البرهان الواضح قال الله تعالى : { و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين } و قال تعالى : { ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم } فصح أن الأرواح خلقها الله تعالى جملة و [كذلك أخبر صلى الله عليه و سلم أن : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف] و أخذ الله و شهادتها له بالربوبية و هي مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم و قبل أن يدخلها في الأجساد و الأجساد يومئذ تراب و ماء ثم آخرها حيث شاء و هو البرزخ ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها في الأجساد المتولدة من المنى

إلى أن قال ابن حزم : فصح أن الأرواح أجساد حاملة لأعراضها من التعارف و التناكر و أنها عارفة مميزة فإذا توفاهها الله تعالى رجعت إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم ليلة أسري به عند سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم و أرواح أهل الشقاوة عن يساره و ذلك عند منقطع العناصر و تعجل أرواح الأنبياء و الشهداء إلى الجنة ثم قال : و قد ذكر محمد بن نصر المروزي عن اسحاق بن راهوية هذا الذي ذكرنا بعينه ثم قال : على هذا أجمع أهل العلم انتهى كلامه

و ذكر الأدلة على ذلك و لم يذكر خلافا و قد تقدم ذكر الخلاف على ذلك و ما ذكره أبو محمد بن حزم فهو بينى على الأصل و هو أن الأرواح هل خلقت قبل الأجساد أو الأجساد خلقت قبل الأرواح ؟

: فهذه المسألة للناس فيها قولان حكاهما شيخ الإسلام ابن تيمية و غيره أحدهما : ما حكاه و اختاره ابن حزم و محمد بن نصر المروزي و قد تقدم و ذكرنا ما استدل به

و القول الثاني : و عليه عامة السلف و الخلف أن الأجساد خلقها متقدم على الأرواح و الأدلة متظاهرة من وجوه عديدة ليس هذا محل ذكرها فخلق أبي البشر الذي هو أصل الناس هكذا فإنه سبحانه و تعالى أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طينا ثم صوره ثم نفخ فيه الروح بعد تصويره و هذه قصة مشورة قد وردت من عدة طرق تدل على أن الله سبحانه نفخ فيه من روحه بعد أن خلق جسده

و في الصحيح : [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح] الحديث المشهور فنفخ الملك فيه الروح هو سبب حدوث الروح فيه و لو كان للروح وجود قبل البدن و هي حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة في هذا العالم شاعرة به و لو بوجه ما و من الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها و هي بين ملأ من الأرواح تنتقل إلى هذا البدن و لا تشعر بحالها الأول و إذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها و هي في البدن على التفصيل و تعلم ما كانت عليه ههنا مع أنها التبست بالبدن أمورا عاقها عن كثير من حالها فلأن تشعر بحالها الأول و هي غير معوقة هناك بطريق الأولى و الله أعلم

فصل - في قوله صلى الله عليه و سلم : الأرواح جنود مجندة و كيفية ذلك
في قوله صلى الله عليه و سلم : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف و ما تناكر [
منها اختلف] فمن العلماء كابن حزم و ابن نصر المروزي و غيرهما يقول الأرواح مجموعة أو
مجتمعة و أنواع مختلفة فهي خلقت مجتمعة ثم فرقت في أجسادها فمن وافقه نسميه
إلفه و من باعده نافر و خالفه و قال الخطابي و غيره : هو ما خلقها الله عليه من السعادة
و الشقاوة في المبتدأ فالأرواح قسمين متقابلين فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت و
اختلفت بحسب ما خلقت عليه فيميل الأختيار إلى الأختيار و الأشرار إلى الأشرار انتهى
كلامه

و من هذا الباب احتج آدم و موسى قال الحسن : معناه التقت أرواحهما في السماء فوق
الحجاج بينهما قال القاضي عياض : و يحتمل أنه على ظاهره و أنهما اجتمعا بأشخاصهما و
قد ثبت في حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه و سلم اجتمع بالأنبياء صلوات الله و
سلامه عليهم أجمعين في السموات و في بيت المقدس و صلى بهم قال : فلا يبعد أن
الله أحياهم قال : و يحتمل أن قصة موسى جرت في حياة موسى و أنه سأل أن يريه آدم
فحاجه و الله أعلم

فصل - هل الأرواح محدثة عند خلق البدان أم قديمة

و هل الأرواح مخلوقة محدثة كائنة بعد أن لم تكن أم قديمة ؟ و هي من أمر الله و لا يكون أمر الله مخلوقا و لا محدثا و قد أخبر أنه نفخ في آدم من روحه فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ؟ و ما حقيقة هذه الإضافة ؟

قال العلامة ابن القيم : و هذه مسألة زل فيها عالم و ضل فيها طوائف من بني آدم و هدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين فأجمعت الرسل صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن العالم حادث و أن معاد الأبدان واقع و أن الله وحده الخالق و كل ما سواه مخلوق له - حتى نبعت نابعة - فمن قصر فهمه في الكتاب و السنة زعم أنها قديمة غير مخلوقة و احتج بأنها من أمر الله و أمره غير مخلوق و بأنها أضافها إليه كما أضاف إليه علمه و حياته و قدرته و توقف في ذلك آخرون فقالوا : لا نقول مخلوقة و لا غير مخلوقة انتهى كلامه

و قال الحافظ بن مندة لما سئل عن الأرواح هل هي مخلوقة أم لا ؟ فقال : أن الناس اختلفوا في معرفة الأرواح و محلها من النفس فقال بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة و هذا مذهب أهل الجماعة و الأثر و احتجت [بقوله صلى الله عليه و سلم : الأرواح جنود مجندة فمن تعارف منها ائتلف] الحديث و الجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة و قال بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها و علمها عن الخلق و احتجت بقوله : { قل الروح من أمر ربي } و قال بعضهم : الأرواح نور من نور الله تعالى و حياة من حياته و احتجت [بقوله صلى الله عليه و سلم : إن الله خلق خلقه في ظلمة و ألقى عليهم من نور] انتهى كلامه

و قال محمد بن نصر المروزي : تأول صنف من الزنادقة و من الروافض في روح آدم ما تأولته النصارى في روح عيسى و ما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار في المؤمن فقال صنف من الزنادقة و صنف من الروافض : إن روح آدم غير مخلوق و تأولوا قوله تعالى : { و نفخت فيه من روحي } و قوله : { ثم سواه و نفخ فيه من روحه } ثم قال بعد كلام طويل : و لا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم و بنيه و عيسى و من سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها و أنشأها و كونها و اخترعها انتهى كلامه

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة و أئمتها و سائر أهل السنة و قد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي و أبو محمد بن قتيبة و غيرهما و ذكر كلاما طويلا و

بحثنا كثيرا يطول ذكره و الله أعلم

فصل - في دليل إضافة الروح إلى الله و تفسير تلك الإضافة

من استدل بإضافة الروح إلى الله تعالى بقوله : { و نفخت فيه من روحي } فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه و تعالى نوعان أحدهما : صفات لا تقوم بأنفسها كالعلو و القدرة و الكلام و السمع و البصر فهذه إضافة صفة إلى موصوفها صفات له غير مخلوقة و كذلك وجهه و يده سبحانه و تعالى و الثاني : إضافة أعيان منفصلة عنه كبيت الله و ناقة الله و رسول الله و روح الله فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه و مصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصا و تشريفا يتميز به المضاف إليه عن غيره كبيت الله و إن كانت البيوت كلها ملكا لله و كذلك ناقة الله و النوق كلها ملكه و خلقه و لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها و تشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه و إيجاد هذا خلق الله فالعامة تقتضي الخلق و الإيجاد و الخاصة تقتضي الاختيار و الله يخلق ما يشاء و يختار إضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة و لا من باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضوع فإنه ينفعك من التخلص من البدع فقد ضل فيه خلق كثير نسأل الله العصمة

فصل - عن موت الأرواح و الأبدان

فقد اضطربت مقالات الناس في هذا الباب فقالت طائفة : تموت و تذوق الموت لأنها نفس و كل نفس ذائقة الموت

قالوا : و قد دل القرآن عليه بقوله : { كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام } و قوله تعالى : { كل شيء هالك إلا وجهه } و { كل نفس ذائقة الموت } قالوا : و إن كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت و قال في حق أهل النار : { قالوا ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين } فالموتة الأولى هذه المشهودة فهي للبدن و الأخرى للروح و قال آخرون لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء و إنما تموت الأبدان قالوا : و قد دل على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح و عذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها و لو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم و العذاب و قال تعالى : { ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين } الآية هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم و ذاقت الموت

قال العلامة ابن القيم : و الصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها و خروجها منها فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت و إن أريد أنها تعدم و تضمحل و تصير عدما محضا فهي لا تموت بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب كما صرح به في النصوص حتى يردها الله في أجسادها ثم ساق بعد ذلك النصوص الواردة في هذا المحل انتهى كلامه

فصل - في عذاب القبر على الروح و البدن

و هل عذاب القبر على الروح و البدن ؟ أو على الروح دون البدن ؟ أو على البدن دون الروح و هل يشارك البدن النفس في النعيم و العذاب أم لا ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - بعد أن سئل عن هذه المسألة فأجاب - : بل العذاب و النعيم على النفس و البدن جميعا باتفاق أهل السنة و الجماعة تنعم النفس و تعذب منفردة و تنعم و تعذب متصلة بالبدن و البدن متصل بها فيكون النعيم و العذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما تكون الروح منفردة عن البدن منعمة أو معذبة و هل يكون العذاب و النعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث و السنة و أهل الكلام و في المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة و الحديث

قول من يقول إن النعيم و العذاب لا يكون إلا على الروح و أن البدن لا ينعم و لا يعذب و هذا يقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان و هؤلاء كفار بإجماع المسلمين و يقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة و غيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان و لكن يقولون : لا يكون ذلك في البرزخ و إنما يكون عند القيام من القبور لكن هؤلاء ينكرون عذاب الأبدان في البرزخ فقط و يقولون إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ فإن كان يوم القيامة عذبت الروح و البدن معا

و هذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام و أهل الحديث و غيرهم و هو اختيار ابن حزم و ابن مسرة فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة بل هو مضاف إلى قول من يقر بعذاب القبر و يقر بالقيامة و يثبت معاد الأبدان و الأرواح لكن هؤلاء لهم في

: عذاب القبر ثلاثة أقوال

أحدها : أنه على الروح فقط

و الثاني : أنه عليها و على البدن بواسطتها

الثالث : أنه على البدن فقط

وقد يضم إلى ذلك قول من يثبت عذاب القبر و يجعل الروح هي الحياة و يجعل الفساد قول منكر عذاب الأبدان مطلقا و قول من ينكر عذاب البرزخ مطلقا و الفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك ينكرون معاد الأبدان فهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون معاد الأرواح و نعيمها و عذابها بدون الأبدان و كلا القولين خطأ و ضلال لكن قول الفلاسفة أبعد من أقوال أهل الإسلام و إن كان قد يوافقهم عليه من هو متمسك بدين الإسلام بل من يظن أنه من أهل المعرفة و التصوف

و القول الثالث الشاذ : قول من يقول أن البرزخ ليس فيه نعيم و لا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة و نحوهم ممن ينكر عذاب القبر و نعيمه فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى و أما الأحاديث الدالة على نعيم القبر و عذابه فهي كثيرة جدا بل لو قيل أنها بلغت التواتر في المغالبة لم يبعد ذلك فمنها ما تقدو من أحاديث مسألة منكر و نكير و فيها كفاية و منها ما لم أحط به ولم أطلع عليه و منها ما اطلعت عليه و اختصرته للتطويل و منها ما أذكره للتنبيه فقد ثبت في الصحيحين [من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه و سلم مر بقبرين فقال : إنهما ليعذبان و ما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول و أما الآخر فكان يمشي في النميمة ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين فقال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا] [رواه أبو داود الطيالسي لكن قال فيه : أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس] و باقيه كما ذكرته و ثبت في صحيح مسلم في حديث طويل قال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن [لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ثم قال : تعوذوا بالله من عذاب القبر قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر قال : تعوذوا بالله من عذاب القبر قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها و ما بطن] الحديث و في صحيح مسلم أيضا و جميع السنن [عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم و من عذاب القبر و من فتنة المحيا و الممات و من فتنة المسيح الدجال] و في الصحيحين : [عن أبي أيوب خرج النبي صلى الله عليه و سلم و قد وجبت الشمس] فسمع صوتا فقال : يهود تعذب في قبورها و في صحيح البخاري و مسلم : [عن عائشة قالت : دخلت على عجز من يهود المدينة فقالت : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم قالت فكذبتها و لم أنعم أن أصدقها فخرجت و دخل علي رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت يا رسول الله إن عجز من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ! فقال : صدقت إنهم يعذبون] عذابا يسمعه البهائم كلها قالت : فما رأيت بعد في صلاته إلا أن يتعوذ من عذاب القبر قال بعض أهل العلم : ولهذا السبب يذهب الناس بالخیل إذا مغلّت إلى قبور اليهود و النصرارى فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعا و حرارة تذهب بالمغل و الأحاديث كثيرة جدا في هذا الباب وقد تقدم في أحاديث المسألة ما هو أبلغ من ذلك] في قوله : فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك [وهذا صريح في أن البدن يعذب في القبر

و روى النسائي [من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه
و سلم قال : هذا الذي تحرك له العرش و فتحت له أبواب السماء و شهد له سبعون ألفا
من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه] قال النسائي : - يعني سعد بن معاذ -
و في حديث عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : للقبر ضغطة لو نجا [
منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ] قال نافع : بلغني أنه شهد جنازته سبعون ألف ملك لم
[ينزلوا إلى الأرض قط] و في لفظ : منديل من مناديل سعد خير من الدنيا و ما فيها

في عذاب القبر حق: فصل

قال المروزي : قال الإمام أحمد : عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل
وقال حنبل : قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر ! فقال : هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر
بها كلما جاء عن النبي صلى الله عليه و سلم إسناد جيد أقررنا به إذا لم نقر بما جاء به
الرسول و دفعناه و رددناه رددنا على الله أمره قال تعالى : { و ما آتاكم الرسول فخذوه }
قلت له : و عذاب القبر حق ؟ ! قال : حق يعذبون في القبور قل : و سمعت أبا عبد الله
يقول : نؤمن بعذاب القبر و بمنكر و نكير و أن العبد يسأل في قبره { يثبت الله الذين آمنوا
بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } في القبر
وقال أحمد بن القاسم : قلت يا أبا عبد الله : نقر بمنكر و نكير و ربما يروى من عذاب القبر ؟
! فقال : سبحان الله ! نعم نقر بذلك و نقول به
قال العلامة ابن القيم : و مما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات
و هو مستحق العذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار
رمادا و نسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه و بدنه من العذاب ما
يصل إلى القبور انتهى كلامه

فصل - في أن البلي يختص البدن

و مما ينبغي أن يعلم أن البلي يختص هذا البدن المشاهد المركب فإن هذا البدن ليس بشيء إنما هو آلة والنظر إلى ما يؤدي الروح و ينفعها
و قد روى أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله - بإسناده قال : دخل عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - المسجد وقد قتل عبد الله بن الزبير فمال إلى أسماء أم ابن الزبير فقال لها : اصبري فإن هذه الجثث ليست بشيء و إنما الأرواح عند الله تعالى ثم قال : و روينا عن ابن الزبير أنه قال لأمه أسماء قبل قتله : يا أماه إن قتلت فإنما [أنا] لحم لا يضر ما صنع بي و روى خالد بن معدان قال : لما قتل هشام بن العاص يوم أجنادين وقع على ثلثة فسدها و لم يكن ثم طريق غيره فلما انتهى المسلمون إليه هابوا أن يوطئوه الخيل فقال عمرو بن العاص : أيها الناس إن الله قد استشهده ورفع روحه و إنما هو جثة فأوطئوه الخيل ثم أوطأه هو و تبعه الناس حتى قطعوه و إذا ثبت هذا فإن الله تعالى إذا أتلف هذا البدن الترابي وأبلاه المعرض للآفات فإنه سيعيده بدنا لا يبلى في حياة لا تنفد أبدا وتبدل صعوبات التكليف بحسن الجزاء ويعطيهم أجورا باقية عن أعمال منقطعة كما لا يبقى لمرارات الشعث والتكليف في أيام الإحرام طعم عند أيام التشريق و الله تعالى الموفق

الباب السابع والعشرون : في عد الشهداء و فضلهم و أنهم أرفع درجات من الصالحين

قال تعالى : { و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين

قال قتادة : قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم : كيف يكون الحال في الجنة و أنت في الدرجات العلى ونحن أسفل منك ؟ فكيف نراك ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية : { ومن يطع الله } في أداء الفرائض { والرسول } في السنن : { فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين } أي لا تفوتهم رؤية الأنبياء و مجالسهم فأعلى درجات بني آدم الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون وهذا ترتيب لا شك فيه لأن الله تعالى رتبهم في الذكر قدم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل في المراتب و المنازل

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما من نفس [تموت لها عند الله خير يسرها أنها ترجع إلى الدنيا و لا أن لها الدنيا و ما فيها إلا الشهيد] الحديث هذا من صرائح الأدلة في عظم فضل الشهادة

و عن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من سأل [الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء و إن مات على فراشه] رواه مسلم في صحيحه

وفي صحيح مسلم أيضا [من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من طلب [الشهادة صادقا أعطيتها و لو لم تصبه

و رواه الترمذي و صححه] من حديث معاذ مرفوعا و لفظه : من سأل القتل في سبيله

صادقا في قلبه أعطاه الله أجر الشهيد] و رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ

و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما [

تعدون الشهيد فيكم ؟ قالوا : يا رسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد قال : إن

شهداء أمتي إذا لقليل ! قالوا : فمن هم يا رسول الله ؟ قال : من قتل في سبيل الله فهو

شهيد و من مات في سبيل الله فهو شهيد و من مات في الطاعون فهو شهيد و من مات

[في البطن فهو شهيد و الغريق شهيد - و في رواية - و صاحب الهدم شهيد

و عن جابر بن عتيك - رضي الله عنه - أن النبي قال : الشهداء سبع سوى القتل في [

سبيل الله عز و جل : المطعون شهيد و الغريق شهيد و المبطون شهيد و صاحب ذات

الجنب شهيد و الذي يموت تحت الهدم شهيد و صاحب الحريق شهيد و المرأة تموت بجمع

شهادته] رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي و روى ابن ماجة بقوله بجمع بضم

الجيم و إسكان الميم - : و هي التي تموت حاملا أو نفساء كذا ذكره غير واحد من أهل العلم و الله أعلم

و روى الإمام أحمد و النسائي [من حديث صفوان بن أمية عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الطاعون شهادة و الغرق شهادة و البطن شهادة

و روى النسائي أيضا] من حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : خمس من قبض على شيء منهن فهو شهيد : المقتول في سبيل الله شهيد و الغريق في سبيل الله شهيد و المطعون في سبيل الله شهيد و الغناء في سبيل الله شهيد

و روى مالك في الموطأ [عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - في قصة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : ما تعدون الشهادة فيكم ؟ قالوا : القتل في سبيل الله قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله] ثم ذكر نحو ما تقدم في السنن من حديث جابر بن عتيك

و روى البخاري و مسلم [من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : الشهداء خمس : المطعون و المبطون و الغريق و صاحب الهدم و الشهيد في سبيل الله] قال العلامة اسماعيل التيمي الأصبهاني - مفسرا الحديث - قال : المطعون : الذي أصابه الطاعون و المبطون الذي أصابه علة البطن انتهى و قال غيره من العلماء : للناس في تفسير علة البطن ثلاثة أقوال : أحدهما : أنه الذي يموت بالاستسقاء

و الثاني : الذي يموت بالمغص الشديد - وهو الذي يسمونه القولنج - وهو مرض معروف و الثالث : الذي يموت بالاسهال انتهى كلامه

قلت : والقول الثالث هو الراجح عند أكثر أهل العلم وبعضهم لم يحك غيره ويحتمل - و الله أعلم - أن الشهادة تعم الثلاثة أصناف المذكورة وهو أبلغ في الكرم وسعة الفضل و الله أعلم و مما يؤيد هذا الاحتمال ما روى ابن حبان في صحيحه [من حديث سليمان بن مراد و خالد بن عرفطة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : من قتله بطنه لم يعذب في قبره]

و عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من قتل دون ماله [فهو شهيد] رواه البخاري

و روى أبو داود و الترمذي و النسائي واللفظ له [من حديث سعيد ابن زيد - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من قتل دون ماله فهو شهيد و من قتل دون دينه فهو شهيد و من قتل دون أهله فهو شهيد

و روى النسائي مفردا [من حديث سويد بن مقرن - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله
[صلى الله عليه و سلم : من قتل دون مظلومه فهو شهيد
و روى الإمام أحمد [من حديث ابن لهيعة عن خالد بن أبي زيد عن سعيد بن أبي هلال
عن إبراهيم بن عبد الله بن رفاعة أن أبا محمد أخبره - وكان من أصحاب ابن مسعود - حدثه
عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه ذكر عنده الشهداء قال : إن أكثر شهداء أمتي
[أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته
[و روينا في خبر ابن عرفة مرفوعا : أن الموت كفارة لكل مسلم]

في تسلية المصاب: فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن العبد إذا نظر أو سمع ما تقدم في هذا الباب من تنوع الشهادة و ذكر تعدادها حصل له تسلية بموت محبوبه فإنه في الغالب لا بد أن يكون ناله نصيب منها مع أنني لم أحط بكل ما [ورد عن النبي صلى الله عليه و سلم في تسمية الشهداء و قد روي مرفوعا : موت الغريب شهادة] و قد استقصينا في عد الشهداء في كتاب أحكام الطاعون

و يكفي في البشارة ما تقدم قريبا [من رواية الإمام أحمد مرفوعا : إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش] و تقدم ما أعد الله للشهداء من حين الموت و ما لهم عند الله و أن أرواحهم في حواصل طير خضر تأكل و تشرب في الجنة و تسرح حيث شاءت و كل هذا في دار البرزخ فإذا دخلوا الجنة يوم القيامة بأجسادهم انتقلوا إلى نعيم أعلى من ذلك و أكثر منه

قال أبو بكر القطيعي : [حدثنا بشر بن موسى حدثنا ابن خليفة حدثنا عوف عن خنساء قالت : حدثتني عمتي قالت : قلت يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة و الشهيد في الجنة و المولود في الجنة و المؤمنة في الجنة] و كذلك رواه بن دار عن غندر عن عوف فذكر مثله

فانتقال العبد إلى الله و ما عند الله هو خير لعباده من هذه الدنيا التي خلقهم فيها فينظر كيف يعملون و يبتليهم بالمحن و المصائب و الشهادات حتى يعلم الصابر منهم و الجازع ليجازي كل شخص بحسبه فمنهم من يجازيه بالحنان و منهم من يجازيه بالنيران و كل ذلك عدل منه سبحانه و تعالى لا يظلم مثقال ذرة بل إن أدخل العبد الجنة فبرحمته و فضله و إن أدخله النار فبعده و سلطانه : { لا يسأل عما يفعل وهم يسألون } فله الحمد دائما على كل حال

في الشهادة المطلوبة : شهادة المعركة: فصل

و الشهادة المطلوبة شهادة المعركة على ما تقدم و كذلك شهادة الطاعون فإنه قد رود في أحاديث و آثار في تمني الطاعون ما وقع في قصة المغيرة بن شعبة أنه قال : اللهم ارفع عنا الرجز - يعني الطاعون - فقال أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - : أما أنا فلا أقول هذا و لكن أقول كما قال العبد الصالح أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - اللهم طعنا و طاعونا في مرضاتك و قام أبو عبيدة خطيبا فقال : يا أيها الناس إن هذا الوجد رحمة بكم : و دعوة نبيكم و موت الصالحين قبلكم و إن أبا عبيدة يسأل الله العظيم أن يقسم له من حظه قال : فطعن فمات

و ثبت في مسند الإمام أحمد [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن و الطاعون] و غير ذلك من الأحاديث و الآثار التي لا تحضرني و قد قررت ذلك في كتابنا المعروف ب أحكام الطاعون و لكنه لم يكن عندي حين ألغت هذا الكتاب فإن قيل : الشهادة المطلوبة شهادة المعركة و كذلك شهادة الطاعون كما تقدم

و قد ورد في بعض الأحاديث [أن النبي صلى الله عليه و سلم استعاذ من بعض ما عده شهادة ففي مسند الإمام أحمد مرفوعا : استعاذ من سبع موتات : من موت الفجأة و من لدغ الحية و من السبع و من الغرق و من الحرق و من أن يختر على شيء أو يختر عليه [شيء و من الفرار من الزحف

و في المسند أيضا مرفوعا : اللهم إني أعوذ بك أن أموت هما أو غما و أن أموت غرقا و أن [يتخبطني الشيطان عند الموت] و [رواه النسائي و لفظه : اللهم إني أعوذ بك من الهدم و التردى و الهم و الغم و الغرق و الحرق و أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت و أعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا و أعوذ بك أن أموت بك لديغا] و غير ذلك من الأحاديث يقال : لم يقل أحد من العلماء : إن كل شهادة مطلوبة بل من وقع له أو لمحبوبه أو لغيره : شيء مما عده النبي صلى الله عليه و سلم شهادة والشهيد ثلاثة أقسام

أحدها : شهيد في الدنيا و الآخرة وهو المنقول في المعركة مخلصا

و الثاني : شهيد في الدنيا و الآخرة فقط وهو المقتول في المعركة مرثيا

و الثالث : الشهيد في الآخرة فقط وهو من أثبت له الشارع الشهادة ولم يجر عليها أحكامها في الدنيا كالغريق و الحريق و من به ذات الجنب ونحوه كما تقدم

فإن قيل : لم سمي الشهيد شهيدا ؟

قيل : قد اختلف العلماء في ذلك على أقوال

أحدها : لأنه حي كما فصل تعالى : { و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل
} أحياء عند ربهم يرزقون

الثاني : لأن الله تعالى و ملائكته شهدوا له بالجنة

الثالث : لأن الملائكة تشهده

الرابع : لقيامه بشهادة الحق حتى قتل

الخامس : لأنه يشهد ما أعد الله له من الكرامة بالقتل

السادس : لأنه شهد لله بالوجود و الإلهية بالفعل لما شهد غيره بالقول

السابع : لسقوطه بالأرض و هي الشاهد له

الثامن : لأنه شهد له بوجوب الجنة

التاسع : من أجل شاهده و هو دمه

العاشر : لأنه شهد له بالإيمان و حسن الخاتمة

فهذه عشر أقوال من أماكن متفرقة جمعت إليك رخيصة الأثمان فهذه الأقوال في المخلص

الذي قصد بجهاده وجه الله تعالى و الدار الآخرة فإنه سبحانه و تعالى إذا علم قصد العبد و

إخلاصه أعانه و أغاثه قال تعالى : { إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا } و قد ذكر أبو الفرج

بن الجوزي في جزء الثبات عند الممات في هذا المعنى عن علي بن الموفق قال :

سمعت حاتم الأصم يقول : لقينا الترك و كان بيننا جولة فرماني تركي بسهم فقلبني عن

فرسي فنزل عن دابته فقعده على صدري و أخذ بلحيتي و أخرج من خفه سكيناً ليذبحني

فوحق سيدي ما كان قلبي عنده و لا عند سكينه و إنما كان قلبي عند سيدي أنظر ماذا

ينزل القضاء منه فقلت : سيدي قضيت علي أن يذبحني هذا ؟ فعلى الرأس و العين إنما

أنا لك و ملكك فبينما أنا كذلك و هو قاعد على صدري إذا رماه بعض المسلمين بسهم فما

أخطأ حلقه فسقط عني فقامت إليه و أخذت السكين من يده فذبحته بها فما هو إلا أن

تكون قلوبكم عند مليكمم حتى تروا عجائب لطفه ما لا ترون من الآباء و الأمهات

الباب الثامن و العشرون : في ذكر الصراط و درجات الناس في المرور عليه

أما الصراط فهو جسر منصوب على متن جهنم و هو أحد من السيف و أدق من الشعرة
ثبتنا الله و إياكم على المرور عليه
و قد روى مسلم في صحيحه [من حديث أبي هريرة و حذيفة - رضي الله عنهما - قال :
قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يجمع الله تبارك و تعالى الناس فيقوم المؤمنون
تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : و هل أخرجكم من
الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك : اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال :
فيأتون إبراهيم فيقول إبراهيم عليه السلام : لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء
وراء اعمدوا إلى موسى كلمه الله تكليما فيأتون موسى فيقول : لست بصاحب ذلك اذهبوا
إلى عيسى كلمة الله و روحه فيقول عيسى : لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى محمد قال :
فيأتون محمدا صلى الله عليه و سلم و يؤذن له و يرسل الأمانة و الرحم فيقومان جنبني
الصراط يمينا و شمالا فيمر أولكم كالبرق يمر و يرجع في طرفة عين ثم كمر الريح ثم كمر
الطير و شد الرحال تجري بهم أعمالهم و نبيكم صلى الله عليه و سلم قائم على الصراط
يقول : رب سلم رب سلم : حتى تعجز أعمال العباد و حتى يجيء الرجال فلا يستطع
السير إلا زحفا قال : و في حافة الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أمرت به فمخدوش
[ناج و مكدوس في النار و الذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفا
و عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم و ذكر]
الصراط و مرور الناس عليه قال : فيمر المؤمنون كطرف العين و كالبرق و كالريح و كالطير و
كأجاويد الخيل و الركاب فناج مسلم و مخدوش مرسل و مكدوس في نار جهنم [رواه
مسلم
و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و ذكر حديث]
الشفاعة : و يضرب الصراط بين ظهراي جهنم فأكون أنا و أمتي أول من يجيز و لا يتكلم
يومئذ إلا الرسل و دعاء الرسل يومئذ : اللهم سلم اللهم سلم و في جهنم كلاليب مثل
شوك السعدان - هل رأيتم شوك السعدان ؟ - ثم قال : و إنها مثل شوك السعدان غير أنه
الحديث [لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم

فصل - في المرور على الصراط

قد سمعت - رحمك الله - فانظر إلى هذه الطريق الحرج و المسلك الشاق و القنطرة المضطربة و العقبة الكؤود التي لا تثبت عليها الأقدام و لا تجوزها الأوهام و لا يثبت عليه إلا من ثبته الله بالقول الثابت و ثبت قدماه يوم تزل الأقدام و لعل من عنده تساهل و عدم توفيق يسمع بالصراط فيظن أن طريقه يشبه طريق الدنيا التي هي صعبة المسلك و عرة ذات صعود و نزول هيهات و ما علم و الله إنه أحد من السيف و أدق من الشعرة و على يمينه و شماله كلاليب و خطاطيف فإذا كلفت المرور عليه و هو بهذه المثابة - و أعظم من ذلك أن جهنم تحتك و قد أرعب قلبك من هول منظرها و ملأت أذنيك زفيرها - فهل تستطيع المرور أو النهوض أو الزحف ؟ ! فإنه إذا اضطرب بك الصراط و التهب السعير من تحتك التهابا و لم تجد إلى النجاة سبيلا و لا إلى الخلاص مقبلا فلا ينفعك في تلك الحال إلا سعي صالح مشكور أو توبة نصوح من ذنب مغفور فتخير الآن أي الأعمال أنجى لك ؟ و أي الطرق معينة لك على سعيك لما ينفعك ؟

و قال روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن وهب بن منبه قال : وجدت في زبور داود - عليه السلام - : يا داود هل تدري من أسرع الناس ممرا على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي و ألسنتهم رطبة من ذكري

الباب التاسع والعشرون : في ذكر سعة رحمة الله و من مات على التوحيد

قال الله تعالى : { و رحمتي وسعت كل شيء } و في الصحيح [أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم و يضعها على اليهود و النصارى]

و قد تقدم [في حديث أبي هريرة : لكل أحد منزل في الجنة و منزل في النار فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار لاستحقاقه ذلك بكفره] كما [ورد في الصحيح : هذا فكاكك من النار] و هذه بشارة عظيمة للمسلمين أجمعين حتى قال الشافعي و عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنهما - هذا الحديث أرجى حديث المسلمين لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم

و في الصحيحين [من حديث أبي سعيد مرفوعا إلى أن قال فيه : فيقال أخرجوا من عرفتم يعني من النار - فتحرم صورهم عن النار فيخرجون خلقا كثيرا و قد أخذت النار إلى نصف ساقيه و إلى ركبتيه فيقولون : ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول : ارجعوا فمن و جدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجه فيخرجون خلقا كثيرا إلى أن قال : ثم يقال ارجعوا فمن و جدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجه فيخرجون خلقا كثيرا] و كان أبو سعيد الخدري يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم : { إن الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها } الآية [فيقول الله : شفعت الملائكة و شفعت النبيون و شفعت المؤمنون و لم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقبهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله ؟ الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه و لا خير قدموه ثم يقال : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط لأحد من العالمين فيقول : لكم عندي أفضل من هذا فيقولون : ربنا و أي شيء أفضل من هذا ؟ [فيقول رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدا]

و في حديث أنس بن مالك و ذكر فيه الشفاعة مرة بعد مرة و أنه صلى الله عليه و سلم [قال : في الآخرة فأقول : رب أي رب أئذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله فيقول : الله : و عزتي و جلالتي و عظمتي و كبريائي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله] و [في رواية الحديث] مسلم : ليس ذلك لك أو إليك

فصل - في رحمته وسعت كل شيء

و قد أخبر الله تعالى : أن رحمته وسعت كل شيء وأنه كتب على نفسه الرحمة و قال [: سبقت رحمتي غضبي و غلبت رحمتي غضبي] فالجنة دار رحمته و النار دار غضبه فثبت أن الجنة ينشأ لها خلفا في الآخرة و يدخلها أيضا من دخل النار أولا و يدخلها الأولاد بعمل الآباء فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيرا قط و ثبت أن النار لا يعذب أحد فيها بغير ذنب فرحمته واسعة حتى إن جماعة من المفسرين ذكروا قصة فرعون : قال جبريل : يا محمد لو رأيتني و أنا أدس الطين في في فرعون مخافة أن يقول فرعون كلمة يرحمه الله بها فهذا جبريل من أعظم رسل الملائكة قد علم سعة رحمة الله ففعل ذلك مخافة إدراك الرحمة له مع أنه قال } : { أنا ربكم الأعلى

فصل - في أن من مات موحدا داخل الجنة

و مما ينبغي أن يعلم أن مذهب أهل السنة و الجماعة من السلف و الخلف أن من مات موحدا أدخل الجنة قطعا على كل حال فإن كان سالما من المعاصي كالصغير و المجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ و التائب توبة نصوحا صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته و من نشأ في عبادة الله و لم يقارف معصية أصلا كل هؤلاء يدخلون الجنة و لا يدخلون النار لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود و الصحيح إن شاء الله تعالى على ما ذكره جماعة من العلماء أن المراد بالورود المرور على الصراط و هو منصوب على ظهر جهنم أجازنا الله من حرها و بردها و أما من مات من أهل المعاصي أو له معصية كبيرة و لم يتب منها فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء عذبه بمقدار ذنبه أو القدر الذي يريد ثم يدخله الجنة و إن شاء عفا عنه مطلقا فلا يخلد أحد في النار مات على التوحيد و لو عمل من المعاصي ما عمل و هذا من أحسن ما يتسلى به من مات له قريب أو صاحب من أهل المعاصي و مات و ما يعلم هل تاب من المعاصي أم لا ؟

قال أبو ذكريا النووي - رحمه الله - : و قد تظاهرت الأدلة من الكتاب و السنة و إجماع من يعتد به على هذه القاعدة و تواترت بهذه نصوص تحصل العلم القطعي بذلك انتهى كلامه و يؤكد ذلك ما ثبت في الصحيح [من حديث عثمان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله

[صلى الله عليه و سلم : من مات و هو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة]
قال القاضي عياض : اختلف الناس فيمن عصى الله تعالى من أهل الشهادتين فقالت
المرجئة : لا تضره المعصية مع الإيمان و قالت الخوارج : تضره و يكفر بها و قالت المعتزلة :
يخلد في النار إذا كانت كبيرة و لا يوصف بأنه مؤمن و لا كافر لكنه فاسق و قالت جماعة
من العلماء : بل هو مؤمن و إن لم يغفر له و إن عذب فلا بد من إخراجهم من النار و إدخاله
الجنة قال : و هذا الحديث حجة على الخوارج و المعتزلة و أما المرجئة فإن احتجت بظاهره
قلنا : نحمله على أنه غفر له و خرج من النار بالشفاعة ثم أدخل الجنة و يكون معنى قوله
عليه السلام : دخل الجنة : أي دخلها بعد مجازاته بالعذاب و هذا لا بد من تأويله لما جاء
في ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة انتهى كلامه
و من هذا الباب ما ثبت في الصحيح أن أبا الأسود الديلي [حدثه أبو ذر قال : أتيت رسول
الله صلى الله عليه و سلم و هو نائم على قميص أبيض ثم أتيته فإذا هو نائم ثم أتيته و قد
استيقظ فجلست إليه فقال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل
الجنة قلت : و إن زنى و إن سرق ؟ قال : و إن زنى و إن سرق ثلاث مرات ثم قال في
الرابعة : على رغم أنف أبي ذر قال : فخرج أبو ذر و هو يقول : و إن رغم أنف أبي ذر] و فيه
رد على الخوارج و على المعتزلة بتخليد أهل الكبائر في النار
و في رواية ل البخاري : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أتاني جبريل فقال : [
من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت : و إن زنى و إن سرق قال : و إن
زنى و إن سرق] و هو حديث أبي ذر
و في الصحيح [من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من مات لا يشرك
بالله شيئاً دخل الجنة و من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار] و [في لفظ : من لقي الله
لا يشرك به شيئاً دخل الجنة] و [في رواية : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة] و [في
لفظ : من شهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله دخل الجنة]
و في حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه [
قال : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة]
و عنه أيضاً مرفوعاً : من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة] و [في رواية : ما من
عبد يشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله إلا حرمه الله على النار] و زاد في
[صحيح البخاري و مسلم] من حديث عبادة بن الصامت : على ما كان من عمل
و في صحيح البخاري و مسلم [من حديث أنس أن نبي الله صلى الله عليه و سلم و معاذ
بن جبل رديفه على الرجل قال : يا معاذ قال : لبيك و سعديك يا رسول الله قال : يا معاذ
قال : لبيك و سعديك يا رسول الله قال : يا معاذ قال : لبيك و سعديك يا رسول الله قال : ما

من عبد يشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله إلا حرمه الله على النار قال : أو لا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذا يتكلموا [فأخبر بها عند موته تأثما - يعني مخافة الإثم -

و في لفظ مسلم [من حديث عبادة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [من شهد أن لا إله إلا الله و ان محمدا رسول الله حرم الله عليه النار و عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك [؟ فذكره قال : أسعد الناس بشفاعتي من قال : لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه [رواه البخاري

و عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لكل نبي دعوة مستجابة [فتعجل كل نبي دعوته و إنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا [رواه مسلم] و في لفظ له : حرم الله على [النار من قال لا إله إلا الله

و قد ورد في ذلك عدة أحاديث و غالب هذه الأحاديث سردها مسلم في صحيحه في باب واحد في باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت لكن قال سعيد بن المسيب عند سماعه هذه الأحاديث : إن هذا قبل نزول الفرائض و الأمر و النهي و هذا القول عن سعيد بن المسيب - رحمه الله - ليس بشيء و قال بعض العلماء : هو خطأ لأن راوي أحد هذه الألفاظ أبو هريرة و هو متأخر الإسلام اسلم عام خيبر سنة سبع بالاتفاق و كانت أحكام الشريعة مستقرة كالصلاة و الزكاة و الصيام و نحوها فعلم ضعف هذا القول و الله تعالى أعلم و قال بعض العلماء : هي جملة تحتاج إلى شرح و معناه : من قال الكلمة و أدى حقها و فريضتها و هذا قول الحسن البصري و قيل : إن ذلك لمن قالها عند الندم و التوبة و مات على ذلك و هذا قول البخاري و قد تقدم في أول الباب حملها على ظاهرها و أن مذهب السلف و الخلف من الفقهاء و أهل الحديث على أن من مات موحدا دخل الجنة و إن كان من أهل المعاصي و أنه داخل تحت المشيئة و الله تعالى أعلم و عن أبي جعفر قال : لما حضر أبا زرعة الموت و عنده أبو حاتم و محمد بن مسلم و المنذر بن شاذان و جماعة من العلماء هابوا أن يلقنوه الشهادة فقال بعضهم لبعض : تعالوا نذكر الحديث فقال محمد بن مسلم : حدثنا الضحاک عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح و لم يجاوز و قال أبو حاتم : حدثنا بندار عن أبي عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح و لم يجاوز و الباقر سكوت فقال أبو زرعة : [ثنا بندار عن أبي عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي عريب عن كثير بن مرة الحضرمي عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة] ثم

توفي في ساعته رحمة الله عليه

و عن عبيد بن عياش قال : لما مات النوار امراة الفرزدق شهدها الحسن البصري فلما سوي عليها التراب : وثب الفرزدق لينصرف فقال للحسن : يا أبا سعيد أما تسمع ما يقول الناس ؟ قال : و ما يقول الناس ؟ قال : يقولون : اجتمع في هذه الجنازة خير الناس و شر الناس يعنونك و يعنونني فقال الحسن : ما أنا بخيرهم و ما أنت بشرهم و لكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : يا أبا سعيد شهادة أن لا إله إلا الله فبكى الحسن ثم التزم الفرزدق فقال : لقد كنت من أبغض الناس إلي و إنك اليوم من أحب الناس إلي

الباب الثلاثون : في فضل الزهد في الدنيا و التسلية عنها و الرغبة في الآخرة

قال الله تعالى : { قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى و لا تظلمون فتيلًا }
فلاستمتاع بالدنيا قليل و متعتك بها قليل من قليل و ثواب الآخرة خير و أفضل لمن اتقى
المعاصي و أقبل على الطاعات
و مما ينبغي أن يعلم : أن هذا الباب من أنفع الأبواب لمن تدبره فإن الدنيا دار قلعة و زوال
منزل نقلة و ارتحال و محل نائبه و امتحان و متاع غرور و افتتان فلا ييأس على ما فات منها
و لا يفرح على ما وجد منها و لا يجزع على ولد أو نفس تموت و لا يحزن على أمر يفوت
عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم [
بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل] و كان ابن عمر يقول : إذا
أمسيت فلا تنتظر الصباح و إذا أصبحت فلا تنظر السماء و خذ من صحتك لمرضك و من
حياتك لموتك رواه البخاري

قال جماعة من العلماء في تفسير هذا الحديث : لا تركز إلى الدنيا و لا تتخذها وطنًا و لا
تحدث نفسك بطول البقاء فيها و لا بالاعتناء بها و لا تغتر بها فإنها غرارة خداعة و لا تتعلق
إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه و لا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذي يريد
الذهاب إلى أهله و بالله فاستعن

و عن سهل بن سعد الساعدي قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : [
يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله و أحبني الناس فقال : ازهد في الدنيا
يحبك الله و ازهد فيما عند الناس يحبك الناس] رواه ابن ماجه و غيره بإسناد جيد و لوائح
الصحة ظاهرة عليه

وعنه أيضا رفعه إلى النبي صلى الله عليه و سلم قال : لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح
بعوضة ما سقى كافر منها شربة ماء [رواه الترمذي و قال حديث صحيح
و عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ألا إن الدنيا [
ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله و ما والاه و عالما و متعلما] رواه الترمذي و قال : حديث
حسن

وروى الترمذي أيضا [عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم
يقول : لكل أمة فتنة و فتنة أمتي المال] قال الترمذي : حديث حسن صحيح
وروى الترمذي و حسنه و صححه [عن عثمان أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :
ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه و ثوب يوارى عورته و جلف الخبز و

الماء] - قال ابن فارس في مجمله : وعاء الشيء جلفه - قال الترمذي : سمعت أبا داود يقول : سمعت النضر بن شميل يقول : الجلفة : الخبز ليس معه إدام و قال غيره : هو غليظ الخبز و قال الهروي : و المراد به هنا وعاء الخبز كالجوالق و الخرج و نحوه و الله أعلم و في صحيح مسلم [عن عبد الله بن الشخير قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يقرأ : { ألهاكم التكاثر } قال : يقول ابن آدم : : مالي مالي و هل لك يا ابن آدم [من مالك إلا ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟ و في صحيح البخاري و مسلم من حديث أبي سعيد قال : جلس رسول الله صلى الله عليه و سلم على المنبر و جلسنا حوله فقال : [إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا و زينتها

و في صحيح مسلم] عنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إن الدنيا حلوة [خضرة و إن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعلمون ؟ فاتقوا الدنيا و اتقوا النساء و في مسلم أيضا] عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يؤتى بأئمة أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا و الله يا رب و يؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا و الله ما مر بي بؤس قط و لا رأيت شدة قط

و في مسلم أيضا [من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم مر بالسوق و الناس كنفية فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه فقال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء و ما نضع به ؟ قال : تحبون أنه لكم ؟ قالوا : و الله لو كان حيا كان عيبا أنه أسك فكيف و هو ميت ؟ فقال : و الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم] قوله : كنفية أي من جانبيه و الأسك الصغير الأذن

و عن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت قال : أراه رفعه النبي صلى الله عليه و سلم قال : يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال : ميزوا ما كان منها لله عز و جل و ألقوا سائرها في النار] رواه ابن أبي الدنيا

وروي أيضا [عن عبادة بن العوام عن هشام أو عوف عن الحسن مرسل أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : حب الدنيا رأس كل خطيئة

و اعلم أنه من أحب دنياه أضر بأخوته و من أحب آخرته أضر بدنياه فأثروا ما يبقى على ما يفنى

و عن الحسن مرسل أن النبي صلى الله عليه و سلم قالوا له : يا رسول الله من خيرنا ؟ [

قال : أزهدكم في الدنيا و أرغبكم في الآخرة [و [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
من زهد في الدنيا أسكن الله الحكمة قلبه و أطلق بها لسانه و بصره عيوب الدنيا داءها و
دواءها و أخرجه منها سالما مسلما إلى دار السلام] رواه ابن أبي الدنيا

فصل - في العجب ممن يسعى لدار الغرور

و من العجب كل العجب يصدق بدار الخلود و هو يسعى لدار الغرور فمن أحبه الله حماه عن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه عن الماء [و قد ورد في الحديث مرفوعا : إن الله لم يخلق] خلقا أبغض إليه من الدنيا و إنه منذ خلقها لم ينظر إليها

و روى ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا : قال مالك بن دينار : قالوا لعلي - رضي الله عنه - : يا أبا الحسن صف لنا الدنيا ؟ قال : أطيل أم أقصر ؟ قالوا : بل أقصر قال : حلالها حساب و حرامها النار و عنه أيضا : قالوا : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا ؟ قال : و ما أصف لكم من دار ؟ من صح فيها أمن و من سقم فيها ندم و من افتقر فيها حزن و من استغنى فيها فتن في حلالها الحساب و في حرامها النار

و روي عن يونس بن عبيد قال : ما شبهت الدنيا إلا كرجل نائم فرأى في منامه ما يكره و ما يحب فبينما هو كذلك إذ انتبه

و قال الحسن بن علي : الدنيا ظل زائل

و قال أبو سليمان الداراني : إذا كانت الآخرة في القلب : جاءت الدنيا تزحمها و إذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة لأن الآخرة كريمة و الدنيا لثيمة

و قال الأوزاعي : سمعت بلالا بن سعيد يقول : و الله لكفى به ذنبا أن الله عز و جل يزهد في الدنيا و نحن نرغب فيها فزاهدكم راغب و مجتهدكم مقصر و عالمكم جاهل

فصل - في أن شرور الدنيا كأحلام نوم

و اعلم أن شرور الدنيا كأحلام نوم أو كظل زائل إن أضحكت قليلا أبكت كثيرا و إن سررت يوما أو أياما ساءت أشهرا و أعواما و إن متعت قليلا منعت طويلا و ما حصلت للعبد فيها سرورا إلا خبأت له أضعاف ذلك شرورا

قال ابن مسعود : لكل فرحة ترحة و ما ملئء بيت فرحا إلا ملئء ترحا

قال ابن سيرين : ما من ضحك إلا يكون بعده بكاء

و قالت هند بنت النعمان : لقد رأيتنا و نحن من أعز الناس و أشدهم ملكا ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا و نحن أذل الناس و إنه حق على الله عز و جل أن لا يملأ دارا حبرة إلا ملأه عبرة و سألها رجل أن تحده عن أمرها فقالت أصبحت ذات صباح و ما في العرب أحد إلا يرجونا ثم أمسينا و ما في العرب أحد إلا يرحمنا و بكت أختها حرقه بنت النعمان يوما و هي في عزها فقيل لها : ما يبكيك ؟ فذكر أنها قالت : رأيت كثرة أهلي و سرورهم و قلما املأت دار سرورا إلا املأت حزنا قال إسحاق بن طلحة : دخلت عليها يوما فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس إنا نجد في الكتب : أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة و إن الدهر لم يظهر : لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ثم قالت

فبينما نسوس الناس و المر أمرنا)

(إذ نحن فيهم سوقة نتنصف ...)

(فأف لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا أو تصرف)

و في الحديث مرفوعا : ما مثلي و مثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل [

تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح و تركها] رواه ابن أبي الدنيا

و روى أيضا : قال عيسى عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت و يتركها ؟ يأمنها

و نغره و يثق بها و اتخذله ويل للمغتربين كيف أرقهم ما يكرهون و فارقهم ما يحبون و جاءهم ما

! يوعدون ويل لمن الدنيا همته و الخطايه عمله كيف يفتضح غدا بذنبه ؟

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن وهب بن منبه قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم

كما ينظر المريض إلى طيب الطعام ولا يلتذ من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ

بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا إن الدابة إذا لم تتركب وتمتهن تصعبت

و تغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترق بذكر الموت و دأب العبادة تقسو و تغلظ

فصل - في اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا

[و ثبت في الصحيح مرفوعا : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا]
قال أهل اللغة : القوت : ما يسد الرمق وفيه دلالة على فضيلة التقليل من الدنيا و الاقتصار على القوت منها و الدعاء بذلك و الله أعلم فإن الدخول في الدنيا و الميل إليها على خطر عظيم [كما تقدم في الصحيح مرفوعا : إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا] قال العلماء : في التحذير من الاغترار بالدنيا و النظر إليها و المفاخرة بها فالدنيا و إن أقبلت على الشخص من وجه حل يخاف عليه الفتنة و الاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة فإن وفق لإعطاء المسكين و اليتيم و ابن السبيل و صرفه في وجوه البر كان من الفائزين و إلا كان من الهالكين
وقد ثبت في صحيح مسلم [عن المستورد بن شداد الفهري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر] بما ترجع إليه
و قال معاوية : سمعت - على هذا المنبر - رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : إنما [بقي من الدنيا بلاء و فتنة و إنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله] و إذا خبث أعلاه خبث أسفله
و قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب و من ارتقب الموت سارع في الخيرات
و قال الحسن البصري : و الذي نفسي بيده لقد أدركت أقواما كانت الدنيا عليهم أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه
ثم علامة الشقاء قسوة القلب و جمود العين و طول الأمل و الحرص على الدنيا
و قال الفضيل بن عياش : علامة السعادة اليقين في القلب و الورع في الدنيا و الزهد في الدنيا و الحياء و العلم
و قال الفضيل أيضا : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالا لا أحاسب بها في الآخرة لكنت أتجنبها كما يتجنب أحدكم الجيفة - إذا مر بها - أن تصيب ثوبه
و قال أبو الهاشم الزاهد : خلق الله الداء و الدواء فالداء الدنيا و الدواء تركها

فصل - في أن الدنيا دار ممر

حضر بعض الرؤساء صلاة الجمعة و به مرض لا يحتمل معه تطويل الخطبة فصعد الخطيب المنبر فقال : الحمد لله رب العالمين و صلواته على أشرف النبياء و المرسلين أما بعد : فإن الدنيا دار ممر و الآخرة دار مقر فخذوا لمقركم من ممركم و لا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم و أخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم أقول قولي هذا و أستغفر الله لي و لكم
فما أبلغ هذه الخطبة و أفصحها و أوجزها ! فعمر الدنيا و الله قصير و أغنى غني فيها فقير و كأني بك في عرصة الموت و قد استنشقت ريح الغربية قبل الرحيل و رأيت أثر اليتيم في الولد قبل الفراق فتيقظ إذن من رقدة الغفلة و انتبه من السكره و اقلع حب الدنيا من قلبك فإن العبد إذا أغمض عينه و تولى تمنى الإقالة فليل كلا
قال أبو عمران الجوني : مر سليمان بن داود عليهما السلام في موكبه و الطير تظله و الجن و الإنس عن يمينه و شماله قال : فمر عابد من عباد بني إسرائيل فقال : و الله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ! ! قال : فسمع سليمان كلمته فقال : تسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود و ما أعطي ابن داود يذهب و التسبيحة تبقى

فصل - في أن هذه الدار رحلة

من بذل وسعه في التفكير التام علم أن هذه الدار رحلة فجمع للسفر رحلة و يعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطن الأمهات ثم إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى الحشر ثم إلى دار الإقامة الأبدية فدار الإقامة هي دار السلام من جميع الآفات و هي دار الخلود و العدو سبانا إلى دار الدنيا فنجتهد في فكك أسرنا ثم في حث السير إلى الوصول إلى دارنا

: الأولى وفي مثل هذا قيل

فحي على جنات عدن فإنها (

) منازلك الأولى و فيها المخيم ...

(و لكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا و نسلم)

و ليعلم أن مقدار السير في الدنيا يسير و يقطع بالأنفاس و يسير بالإنسان سير السفينة

: لا يحس بسيرها و هو جالس فيها كما قيل

(إنما هذه الحياة متاع ... فالغوي الشقي من يصطفها)

(مامضى فات و المؤمل غيب ... و لك الساعة التي أنت فيها)

و لا بد له في سفره من زاد و لا زاد إلى الآخرة إلا التقوى فلا بد من تعب الشخص و

التصبر على مرارة التقوى لئلا يقول وقت السير : ارجعون فيقال : كلا فليتنبه الغافل من

كسل مسيره فإن الله تعالى يريه في قطع مسافة سفره آيات يرسلها تخويها لعباده لئلا

يميلوا عن طريقهم المستقيم و نهجهم القويم فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة

فرأى ما يخاف منه فليرغب إلى الله بالرجوع إليه عما ارتكبه من السبل فيتوب من معصيته

و يبكي من قسوته فإذا انتبه من رقدة كسله علم أن الدنيا دار غرور طبعت على كدر كما

: روى ابن أبي الدنيا قال : أنشدني الحسن بن السكن

(حياتك بالهم مقرونة ... فما تقطع العيش إلا بهم)

(لذاذات دنياك مسمومة ... فما تأكل الشهد إلا بسم)

(إذا تم أمر بدا نقصه ... توقع زلولا إذا قيل تم)

: و كما قيل في المعنى

(حكم المنية في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار)

(بينا يرى الإنسان فيها مخبرا ... حتى يرى خبرا من الأخبار)

طبعت على كدر و أنت تريدها (

) صفوا من الأقداء و الأكدار ...

و قال بعض السلف : احذروا دار الدنيا فإنها أسحر من هاروت و ماروت فإنهما يفرقان بين المرء و زوجته و الدنيا تفرق بين العبد و ربه

و ذكر ابن أبي الدنيا هذا الأثر مرفوعا قال جعفر بن سليمان : سمعت مالكا يقول : اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء - يعني الدنيا -

و ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده إلى الحسن البصري أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة و إنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها و الغنى منها فقرها لها في كل حين قتيل تذلل من أعزها و تفقر من جمعها هي كالسم يأكله من لا يعرفه و هو حتفه فكن كالمداوي جراحته يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا و يصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء فاحذر هذه الدار الغرارة الحيلة الخداعة التي أزينت بخدعها و فتنت بغورها و ختلت بآمالها و تشرفت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية فالعيون إليها ناظرة و القلوب عليها والهة و النفوس لها عاشقة و هي لأزواجها كلهم قاتلة فلا الباقي بالماضي معتبر و لا الآخر على الأول مزدرج و لا العارف بالله عز و جل حين أخبر عنها مذكر فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر و طغى و نسي المعاد فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه فعظمت ندامته و كثرت حسرته فخرج بغير زاد و قدم على غير مهاد فاحذرها يا أمير المؤمنين و كن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه إلى مكروه قد وصل الرخاء منها بالبلاء و جعل البقاء فيها إلى فناء فسرورها مشوب بالحزن لا يرجع منها ما ولى فأدبر و لا يدري ما هو آت فينتظر أما نبيها كاذبة و آمالها باطلة و صفوها كدر و عيشها نكد و ابن آدم فيها على خطر و لقد عرضت على نبيك محمد صلى الله عليه و سلم بمفاتيحها و خزائنها فأبى أن يقبلها كره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه فزواها عن الصالحين اختيارا و بسطها لأعدائه اغترارا جاءت الرواية أنه تبارك و تعالى قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغني مقبلا فقل : ذنب عجلت عقوبته و إذا رأيت الفقر مقبلا فقل : مرحبا بشعار الصالحين

و الحمد لله رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا

: و في آخر المخطوط التي تمت الطباعة وفقا له ما يأتي بخط المؤلف

علقها مؤلفا محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي كان الله له و سامحه بمنه وكرمه من نسخة أصله في رجب الفرد سنة سبع و سبعين و سبعمائة أحسن الله عا

قبتها

[تم]

www.al-mostafa.com